خلق المسلم

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار القمة

لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي

فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

خلق المسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

رقم الايداع ٢٩٣٠ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى
977-331-250-x

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

مقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد... فقد أثنى الله تعالى على نبيه ﷺ بحسن خلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤)، وأمره سبحانه بمحاسن الأخلاق فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (سورة فصلت: ٣٤).

وجعل جلَّ وعلا الأخلاق الفاضلة سببًا تنال به الجنة فقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٣-١٣٤).، وبعث رسوله ﷺ بإتمامها فقال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» (رواه البخاري)، وبين ﷺ فضل محاسن الأخلاق فقال: «**ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق**» (رواه البخاري)، وقال: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا**» (رواه أحمد وأبو داود)، وسئل ﷺ عن أي الأعمال أفضل؟ فقال: «**حسن الخلق**»، ولما سئل عن أكثر ما يدخل الجنة؟ قال: «**تقوى الله وحسن الخلق**» (رواه الترمذي وصححه)؛ فإذا كان الدين هو حسن الخلق فالواجب على كل من آمن بالله واليوم الآخر وآثر نجاة نفسه أن يتعرف على هذا المعنى الجليل وأن يلتزم به.

مفهوم الأخلاق:

الأخلاق في اللغة جمع خُلق والخلق اسم لسجية الإنسان، وطبيعته التي خُلق عليها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم:٤)، والخلق العظيم كما يقول الطبري: الأدب العظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به وهو الإسلام وشرائعه وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «**على دين عظيم وهو الإسلام**»، وعن مجاهد في قوله: ﴿خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال: الدين، وعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «**كان خلقه القرآن**»، قال قتادة: تقول كما هو في القرآن.

وذكر القرطبي أن المراد بالخلق العظيم أدب القرآن، وقيل: هو رفقه بأمته وإكرامه إيَّاهم وقيل المراد: إنك على طبع كريم وقال أيضًا: حقيقة الخلق في اللغة هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب لأنه يصير كالخِلقة فيه، وأما ما طبع عليه الإنسان من الأدب فهو الخيم أي السجية والطبع وعلى ذلك يكون الخلق: الطبع المتكلف والخيم الطبع الغريزي وقد رجح القرطبي تفسير عائشة رضي الله عنها للخلق العظيم بأنه القرآن وسمى خلقه عظيمًا لأنه لم تكن له ﷺ همة سوى الله تعالى وقيل: لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، وقيل: لأنه امتثل تأديب الله إيَّاه، وقال الماوردي في الخلق العظيم ثلاثة أوجه: أحدها ـ أدب القرآن، الثاني ـ دين الإسلام، الثالث ـ الطبع الكريم وهو الظاهر.

قال وحقيقة الخُلق ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب، وسمي بذلك لأنه يعتبر كالخلقة فيه.

والخِلاق: ما اكتسبه الإنسان من الفضلة بخلقه، قال تعالى: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ (سورة البقرة:١٠٢)، وقيل: الخلاق هو النصيب والدين، ولا يكاد يستعمل إلا للنصيب من الخير، والخليقة الطبيعية وجمعها خلائق، والخلقة: الفطرة؛ فالخلق

بمقتضى اللغة والاصطلاح: هو السجية والطبيعة سواء كانت حسنة أو قبيحة، أو العادة والطبيعة والدين والمروءة، أو صفة مستقرة في النفس ذات آثار في سلوك الفرد والمجتمع قد تكون محمودة أو مذمومة.

بين الأخلاق والآداب والقيم:

أحيانًا يتم التعبير عن الأخلاق بالآداب فيقال فلان مؤدب عنده أخلاق أو فلان عديم الأدب لا أخلاق عنده، وأحيانًا يعبر عن الأخلاق بالقيم فيقال: فلان عنده قيم، وقد انتشرت في الآونة الأخيرة كلمة القيم الروحية، فيتطلب الأمر التعريف بكل كلمة على حدتِها، وقد تكلمنا على معنى الأخلاق وبقى أن نتعرف على معنى الآداب والقيم.

والأدب: هو استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً أو هو الأخذ بمكارم الأخلاق والوقوف مع المستحسنات وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وحقيقة الأدب: استعمال الخلق الجميل، ولهذا كان الأدب استخراجًا لما في الطبيعة من الكمال من القول إلى الفعل، وقال المناوي: الأدب رياضة النفوس ومحاسن الأخلاق ويقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل، وقيل: هو عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ، وورد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته**»، وتقرأ مأدبة بضم الدال وبفتحها، فإذا قرأت بالفتح قصد بها الأدب، فالقرآن هو منبع الفضائل والآداب المحمودة.

أمَّا بالنسبة للقيم، فقد قال الزجاج: القيم مصدر بمعنى الاستقامة، ومعنى قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ (سورة الأنعام: ١٦١) أي دينًا مستقيمًا لا عوج فيه، وقال الراغب: أي ثابتًا مقومًا لأمور معاشهم ومعادهم، أما قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (سورة البينة: ٥)، فقد قال ابن كثير في تفسيرها: دين الملة القائمة العادلة أو الأمة المستقيمة المعتدلة، وقيل المراد دين الكتب القيمة.

والتقارب واضح بين مفهوم الأخلاق والقيم، ولعلنا لا نكاد نلمح فارقًا بين الاثنين فالقيم والأخلاق كلاهما يتصل بكافة جوانب الحياة فهي لا تنفصل عن حياة الإنسان في كافة جنباتها، فالفعل الخلقي هو في صميمه فعل قيمي.

معنى حسن الخلق:

لما كان البعض يتوهم أنه إذا أصلح فيما بينه وبين ربه، فقد كفاه ذلك! بيَّن النبي ﷺ أن التقوى لا تتم ولا تكتمل حتى تعطي كل ذي حق حقه، وتخالق الناس بخلق حسن؛ فقال ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**» (رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح).

وجماع حسن الخلق: أن تعطي من حرمك، وأن تصل من قطعك وأن تعفو عمن ظلمك، وقالوا في معنى البر: البر شيء هين، وجهٌ طليق وكلامٌ لين، وقال الحسن في بيان حسن الخلق: «حسن الخلق بسط الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى»، وقال عبد الله بن المبارك: «حسن الخلق في ثلاث: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة على العيال»، وقال آخر: «حسن الخلق كف الأذى، واحتمال المؤمن»، وقال آخر: «حسن الخلق أن لا يكون لك همٌ غير الله تعالى»، وقالوا في علامة ذي الخلق الحسن: «أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برًا وصولاً وقورًا صبورًا رضيًا حليمًا، وفيًا عفيفًا، لا لعانًا ولا سبابًا ولا نمامًا، ولا مغتابًا، ولا عجولاً، ولا حقودًا، ولا بخيلاً، ولا حسودًا، بشاشًا هشاشًا، يحب في الله ويبغض في الله، ويرضى في الله ويسخط لله»، وسنتكلم فيما بعد ـ بإذن الله ـ بالتفصيل عن بعض الأخلاق المحمودة والصفات الطيبة؛ كالأمانة، والرجولة، والإنصاف والتأني، وتعظيم الحرمات، والبصيرة، والجود، والثبات، وتفريج الكربات، والتواضع . . . .

أخلاق مذمومة وسلوكيات مرذولة:

ذكرنا معنى حسن الخلق، ومنه يفهم معنى سوء الخلق، ومن أمثلة الأخلاق المذمومة: الغدر، والغرور، والغش، والغفلة، والغل، والغيبة، والفجور، والفحش، واللغو، واللؤم، والمكر، والمن بالعطية، والقسوة، والقنوط، والكذب... مما سنتعرض له بالتفصيل بإذن الله حتى نتجنبه ونتخلى عنه ـ إذ التخلية أهم من التحلية، أي التخلص عن الرذائل أوجب وأهم من التحلي بالفضائل، لقول النبي ﷺ فيما صح وثبت عنه: «**إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»، ولما كان الوقت الذي نعيشه، وقت غربة، وجهالة، وقد تابعت فيه الأمة اليهود والنصارى حذو القذة، بالقذة، وحذو النعل بالنعل مصداق، ما أخبر عنه رسول الله ﷺ، فقد رأينا من يتخلق بأخلاق الأوروبيين!! إظهارًا للتطور والتحضر بزعمه، فأصبح لا حرج من أن تراقص المرأة رجلاً أجنبيًا عنها، وقد يسمح لها زوجها بذلك!! ولا مانع من أن يجد الرجل صديقه مع امرأته في المنزل وهنا وهناك، ولا اعتراض حتى لا يكون رجعيًا متزمتًا!! وتسير المرأة أمام الرجال في المواكب وتتقدم في النزول من السيارة فهذا هو البروتوكول كما يزعمون!! ومن الإيتيكيت أن يأكل الإنسان بشماله عند هؤلاء!! وما أكثر الذوقيات والإنسانيات عند الماديين ومن تشبه بهم، المنحلة، والمنحرفة، والمخالفة لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ، ولا يجوز لنا أن نقبل الكلمة المنسوبة للشيخ محمد عبده في وصفه الأوروبيين، أخلاقهم كديننا وأخلاقنا كدينهم، فلا يجوز التعميم ولا الإنبهار بما هم عليه، إذ لابد من إخضاع ما هم عليه من أخلاق ودين لما ورد في كتاب الله وفي سنة الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ (سورة المائدة:٣)، والحق مقبول من كل من جاء به، والباطل مردود على صاحبه كائنًا من كان.

منهج الأخلاق الإسلامية:

الأخلاق في الإسلام موصولة بالإيمان وتقوى الله، قال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة التوبة: ٤). فلا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، وقال ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، فقيل له: من هو يا رسول الله؟. فقال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه» (متفق عليه)، وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» (متفق عليه)، وقال: «هي في النار» للتي قيل له: **إنها تصوم النهار، وتقوم الليل، وتؤذي جيرانها** (رواه أحمد والحاكم بإسناد صحيح)، فالارتباط وثيق بين مفهوم الأخلاق، ومفهوم الإيمان، وليس ثمة طريق يبلغ بالإنسان إلى كماله المنشود وصلاحه المرجو، وبالتالي سعادته المأمولة غير طريق الإيمان، ولذلك نجد شيخ الإسلام ابن تيمية قد بنى مفهوم الأخلاق على الإيمان بالله وحده خالقًا ورازقًا بيده الملك، وعلى معرفة الله سبحانه وأنه المستحق للعبادة وعلى حبه جلَّ وعلا، الحب الذي يستولي على مشاعر الإنسان ويدفعه إلى تحقيق رضا الله والالتزام بهذه الغاية في كل صغيرة وكبيرة من شئون الحياة، وحينئذ يسمو العبد عن الأنانية وعن الأهواء، وعن المآرب الدنيا بحيث يصبح السلوك والعمل من الدرجة الأولى، وبذلك نكون ماضين حقًا وصدقًا في طريق تحقيق أو بلوغ الكمال الإنساني الذي ننشده ونتمناه.

مناهج أخلاقية قاصرة وخاطئة:

العلوم الإنسانية في الغرب، والتربية في مقدمتها تقوم على أسس خطيرة، وهذه الأسس هي:

١ ـ النظرية المادية التي لا تعترف بوجود الخالق جلَّ وعلا، وتضع مكانه الطبيعة.

٢ ـ النظرية التي تخضع الإنسان لمفهوم الحيوان سواء من ناحية النفس (فرويد)، أو المعدة (ماركس)، أو مسئولية المجتمع (دور كايم).

٣ ـ نسبية الأخلاق باعتبارها ليست من الدين، ولكنها عادات وتقاليد وقد تطرق هذا الخلل المادي الذي يوصف باسم العلوم الإنسانية والتربية!! إلى أبناء أمتنا وتشربته نفوسهم بعد أن تعلموه ودرسوه في الجامعات هنا وهناك، فنظريات دارون وفرويد وماركس وسارتر ودور كايم التي زيفها الغرب وفرضها على جامعاتنا على أنها علوم ـ وهي ليست كذلك ـ وجدت نفوسًا مهزومة وآذانًا صاغية وقلوبًا لاهية عن دينها، فكانت هذه اللوثة الأخلاقية التي تعاني الأمة من مظاهرها.

إن من الخطأ أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فقد أغنانا سبحانه وكفانا بالإسلام الذي رضيه لنا دينًا شاملاً لكل ناحية من نواحي الحياة ومحققًا لكل خير وكمال ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (سورة مريم: ٦٤)، ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الملك: ١٤)، فالمناهج الفلسفية والعقلانية فيها من الثغرات وعليها من المآخذ ما يجعلها عاجزة عن تحقيق الكمال الإنساني، ولا يصح التعويل في معرفة الأخلاق على التحسين والتقبيح العقلي، فالعقل دابة توصلك لقصر السلطان ولا تدخل بها عليه، ولا يتصور وجود تعارض بين نقل صحيح وعقل صريح، فإذا حدث قدمنا النقل على العقل ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (سورة النساء: ٦٥)، ومن القصور أيضًا أن ننظر إلى الفكر الصوفي على أنه الفكر الأخلاقي المعتمد للمسلمين، ففي الأخلاق وغيرها لابد وأن نكون على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وأن ننهج منهج السلف الصالح فيما كانوا عليه من علم نافع وعمل صالح.

ذكر بعض من تكلم في الأخلاق ومؤلفاتهم:

بُعِثَ النبي ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق، وكان خلقه القرآن ﷺ وقد بين أن الدين هو حسن الخلق، وقد تأسى الصحابة بنبيهم صلوات الله وسلامه عليه، وظهر ذلك في أقوالهم وأفعالهم بحيث كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا كما وصفهم ابن مسعود ﷺ؛ فكانوا سادة وقادة وقدوة لكل من جاء بعدهم، وكانت دعوتهم بالسلوك أبلغ من الدعوة بالقول وتبعهم على ذلك التابعون بإحسان، فظهر الأئمة الأربعة (أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل)، وكانت اجتهاداتهم بمثابة مصابيح أضاءت الطريق في المجتمع الإسلامي.

وقد ظهرت الموسوعات الأدبية والتاريخية، وتناولت أبوابًا في الأخلاق، ومن ذلك ما كتبه ابن قتيبة في موسوعة «عيون الأخبار»، كما ظهرت أعمال علمية خصصت للحديث عن الأخلاق وممن برز في ذلك الجاحظ ومن مؤلفاته «تهذيب الأخلاق»، ورسالة في كتمان السر وحفظ اللسان، ورسالة في النبل والتنبل، وذم الكبر، ورسالة في المودة والخلطة . . . وأخرى في الجِدِ والهَزِل وقد ضمن كتبه الأخرى مثل «البيان والتبيين»، و«البخلاء»، و«الحيوان» العديد من الوصايا الأخلاقية، ومن الفلاسفة المسلمين الذين كتبوا في الأخلاق متأثرين بالفلسفة اليونانية يعقوب بن إسحاق الكندي «القول في النفس»، أبو بكر الرازي «الفقراء والمساكين»، الحكيم الترمذي «كتاب الذوق» و«الرياضة وأدب النفس» و«كتاب المناهي»، أبو نصر الفارابي «آراء أهل المدينة الفاضلة»، «الآداب الملوكية»، ابن مسكويه «تهذيب الأخلاق»، ابن سينا «رسالة في الحكمة والإنصاف»، ابن باجة الأندلسي «اتصال العقل» و«كتاب النفس»، ابن الطفيل «رسالة في النفس»، ابن رشد «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال».

علماء سلكوا المنهج الصحيح في الكلام على الأخلاق:

بإزاء الفلاسفة والمتكلمين برز علماء أجلاء فقهاء ومحدثون وزهاد تكلموا في الأخلاق والتربية والسلوك وكان منهجهم الكتاب والسنة وغيرهما من المصادر الإسلامية الخالصة مثل الإجماع والقياس ونحن لا نقول بعصمة هؤلاء فكل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وكما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ ما منا إلا وَرَدَّ ورُدَّ عليه ولكن يبقى الفارق الكبير بين صحة المنهج حتى وإن أخطأ صاحبه، وبين فساد المنهج حتى وإن أصاب صاحبه، فالأول مأجور والثاني مأزور، كما بين الإمام أحمد وعلي بن المديني، ونحن نذكر باختصار أسماء بعض علماء الأمة ومؤلفاتهم في الأخلاق:

ابن المبارك «كتاب الزهد» ـ وكيع بن الجراح «كتاب الزهد» ـ أحمد بن حنبل «كتاب الزهد» ـ عناد بن السرى «كتاب الزهد» ـ أبو عبد الله المحاسبي «الوصايا» و«آداب النفس» و«الرعاية لحقوق الله» و«التوبة» ـ البخاري «صحيح البخاري» و«كتاب الأدب المفرد» ـ ابن أبي الدنيا «الإخلاص» و«الأمر بالمعروف» و«الحذر والشفقة» و«ذكر الموت» و«ذم الغضب» و«الرضا عن الله والصبر على قضائه» و«الغيبة والنميمة» و«القناعة» و«الصمت وآداب اللسان» ـ النسائي «عمل اليوم والليلة» ـ أبو بكر الخرائطي «مكارم الأخلاق ومعاليها» و«مساوئ الأخلاق ومذمومها وطرائق مكروهها» ـ ابن السني «عمل اليوم والليلة» ـ البيهقي «شعب الإيمان» ـ ابن الجوزي «صفة الصفوة» ـ الحافظ المنذري «الترغيب والترهيب» ـ العز بن عبد السلام «شجرة المعارف والأصول» ـ النووي «رياض الصالحين» ـ ابن تيمية «الفتاوى» ـ الذهبي

«الكبائر» ـ ابن قيم الجوزية «الفوائد» و«مدارج السالكين» و«عدة الصابرين» و«إعلام الموقعين» و«الداء والدواء» و«إغاثة اللهفان» ـ ابن مفلح «الآداب الشرعية» ـ السفاريني «غذاء الألباب».

لابد وأن نتعرف على ماذا نقرأ ولمن نقرأ حتى لا يكون الإنسان أشبه بحاطب بليل فقد يحمل حية تلدغه، ولذا فنحن نقبل ابن سينا الطبيب أمَّا فلسفته فمردودة عليه لمخالفتها للوحي المنزل، وقد امتدح شيخ الإسلام ابن تيمية «كتاب المهلكات والمنجيات» من إحياء علوم الدين للغزالي ـ رحمه الله ـ، ولما سُئِلَ أحد العلماء هل قرأت أدب النفس لأرسطو؟ قال: بل قرأت أدب النفس لمحمد بن عبد الله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (سورة الأحزاب: ٢١)، وللحديث بقية ـ بإذن الله ـ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

د/ سعيد عبد العظيم

الغاية من الأخلاق

هدفنا من وراء الأقوال والأفعال والحركات والسكنات وغايتنا من وراء التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل هو: مرضاة ربنا جلَّ وعلا وأن تزكو نفوسنا وتطهر بحيث تستحق أن ينادى عليها على أبواب الجنة: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (سورة الزمر: ٧٣). وقد أقسم سبحانه أحد عشر قسمًا متواليًا على أنه لا يستحق الفوز بالجنة والنجاة من النار إلامن زكت نفسه وصفت، فقال سبحانه: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس: ١-١٠)، وهذا الالتزام الخلقي من شأنه أن تتحقق به سعادة الفرد والمجتمع في الدارين في العاجل والآجل؛ فالإيمان بالله واليوم الآخر ليس معناه هجران الحياة ودخول الخرائب كما هو شأن بعض الصوفية!! والتطور والتحضر والتقدم ليس معناه الكفر بخالق الأرض والسموات والعبُّ من الشهوات المحرمة كما هو شأن الغرب المادي والناس في هذه وغيرها طرفي نقيض بين إفراط وتفريط وبين غلو وجفو، وإسراف وتقصير، والعدل أساس الملك وبه قامت السموات والأرض، يقول الغزالي: «لا وصول إلى الله تعالى إلا بالتنزه عن الشهوات، والكف عن اللذات، والاقتصار على الضرورات فيها»، وهذا الكلام يصح فيما لو كانت الشهوات واللذات محرمة، وإلا فلا يسعنا تحريم الحلال أو تحجير الواسع أو التضييق على الخلق كما لا يسعنا تحليل الحرام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا﴾ (سورة البقرة: ١٦٨)، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (سورة الأعراف:٣١-٣٢)، كان البعض يقول: متاع الغرور ما ألهى صاحبه عن طلب الآخرة، أمَّا ما لم يلهك عن طلب الآخرة فهو متاع بلاغ إلى ما هو أبلغ منه، فذم الدنيا لا ينصرف إلى زمانها أو مكانها ولكن ينصب على أفعال العباد المخالفة لشرع الله وكان أحد العلماء يقول: نعمت الدار الدنيا كانت للمؤمن وذلك أنه عمل قليلاً وأخذ زاده منها إلى الجنة وبئست الدار كانت للكافر والمنافق وذلك أنه ضيع لياليه، وكان زاده منها إلى النار وقال آخر: كيف لا أحب دنيا قدر لي فيها قوت أكتسب به حياة، وأدرك بها طاعة أنال بها الجنة فلابد من تعمير الدنيا بطاعة الله، وإقامة حضارة على منهاج النبوة وأن ندور مع إسلامنا حيث دار فالحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله والدين ما شرعه الله وليس لنا إلا أن نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (سورة البقرة:٢٨٥).

علاقة الأخلاق بالعبادة

العبادة مفهوم واسع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة؛ فالصلاة عبادة والصوم والحج والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة، وكذلك جهاد الكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والرفق والشفقة والدعاء والذكر وتلاوة القرآن، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه والشكر لنعمه، والرضا بقضائه والتوكل عليه، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه... كلها داخلة في مفهوم العبادة، وذلك أن العبادة هي كمال الحب مع تمام الخضوع والذل، وهي الغاية التي لأجلها خلق الله الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (سورة الذاريات:٥٦-٥٨)؛ ولها أرسل الله جميع الرسل، فما من نبي إلا وقال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم

﴿مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (سورة الأعراف:٦٥)، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (سورة النحل:٣٦)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (سورة الأنبياء:٢٥)، وبها نزلت الكتب، وعليها تنصب الموازين، وتخزن الجنة والنار، وقد أمر بها سبحانه نبيه حتى الممات فقال: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (سورة الحجر:٩٩) أي حتى يدركك الموت فلا تنفك عن طاعة الله ولا عن عبادته سبحانه ولذلك خاب وخسر من قال بسقوط التكاليف عن الواصلين، وأخطأ من توهم أن العبادة قاصرة على الصلاة والصيام والحج... فحسب فالدين كله داخل في العبادة وهي شاملة للسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وجميع نواحي الحياة قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأنعام:١٦٢-١٦٣). ومن هنا تكون فضائل الأخلاق ومكارمها داخلة في إطار الدين وركنًا أساسيًا من أركان العبادة، ونحن لا نقبل فصل بعض العبادات عن بعض فهذا من تجزيء الدين وتبعيضه، ويقال لمن صنع ذلك: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة:٨٥)، إن الأوامر التي وردت في الكتاب والسنة وتعلقت بالصلاة والصيام... لا تنفصل عن الأوامر التي تعلقت بالصدق والعدل... ولابد من تعظيم شعائر وشرائع الله وأن نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (سورة البقرة:٢٨٥)، والعبادة المقبولة لابد فيها من نية وصحة أو إخلاص ومتابعة وهذا شامل للعبادات كالصلاة كما هو شامل للأخلاق الكريمة ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (سورة الكهف:١١٠)، كما أن العبادة لابد فيها من حب وخوف ورجاء فمن عبد الله بالحب فقط فهو زنديق، ومن عبد الله بالرجاء فقط فهو مرجيء، ومن عبده بالخوف فقط فهو حروري (نسبة إلى الخوارج الذين اعتصموا بحروراء) وقد أثنى سبحانه على أنبيائه ورسله

فقال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٠)، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ (سورة الإسراء: ٥٧)، نحن نرفض اعتبار الأخلاق عادات وتقاليد كما نرفض أيضًا الانبهار بالفلسفات والذوقيات والعقلانيات المخالفة لدين الله، واعتبار الصوفية أو الفلاسفة أصحاب قصب السبق في النواحي الأخلاقية والتأصيل لها، أمر يتجافى مع الحق والحقيقة؛ فالبشرية قد بدأت بنبي مكلم هو آدم عليه السلام وتتابع بعده الرسل ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (سورة فاطر: ٢٤)، ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٥)، والدين واحد ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (سورة آل عمران: ١٩)، وإنما تعددت الشرائع وشريعة الإسلام حاكمة ومهيمنة على سائر الشرائع وقد اتفقت الشرائع في هذه الأمور الخمس المذكورة في سورة الأعراف ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٣٣).

علاقة الأخلاق بالإيمان

ورد في الحديث: «**الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**» (متفق عليه)، فالإيمان شعب، ويزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، وأهل الإيمان يتفاضلون ويتفاوتون في درجات الإيمان، وهناك شعب يزول الإيمان بزوالها مثل قول: لا إله إلا الله، وهناك شعب يؤدي زوالها إلى نقص الإيمان كإماطة الأذى عن الطريق، وجميع شعب الإيمان تسمى إيمانًا لقول الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (سورة البقرة: ١٤٣) أي صلاتكم التي كنتم تصلونها إلى بيت المقدس قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة، وإذا كان الحياء شعبة من الإيمان فعدم الحياء شعبة من شعب الكفر، وقس على ذلك الكذب والغدر، وقد وردت روايات تدل على العلاقة الوثيقة بين الأخلاق والإيمان، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم

في جواب أي المسلمين أفضل؟ قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**» (رواه مسلم)، وقوله ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا - وأشار إلى صدره ثلاثًا - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**» (رواه مسلم)، وقوله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»(رواه البخاري)، وقوله ﷺ في جواب من قال أي الإسلام خير؟ قال: «**أن تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**» (متفق عليه)، وقوله ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**» (رواه الترمذي وابن ماجه وهو حسن)، وقوله ﷺ: «**مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» (متفق عليه)، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ما خلاصته: إذا كان الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، وأنه لابد فيه من شيئين: الأول تصديق بالقلب وإقراره ومعرفته وهذا هو التوحيد، والآخر عمل القلب وهو التوكل على الله وحده ونحو ذلك من حب الله ورسوله وحب ما يحب الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده كانت أعمال القلب من الحب والإخلاص والخشية والتوكل ونحوها داخلة في الإيمان بهذا المعنى، وكانت الأخلاق الكريمة داخلة فيه أيضًا، وأما البدن فلا يمكن أن يتخلى عن مراد القلب لأنه إذا كان في القلب معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» (متفق عليه)، إن الإيمان بذلك هو مناط تكوين القيم الخلقية والاجتماعية ونحوها، وهو أيضًا مصدر الإلزام الخلقي، لأنه هو المسيطر على كل غرائز الإنسان وشهواته، والمتحكم في أحاسيسه ودوافعه، إن الإيمان قول وعمل، والأخلاق الكريمة أقوال وأفعال لا تنفك عن معنى الإيمان، فالإيمان هو البر والهدى والتقى والإسلام والبصيرة، وهو أيضًا العلم النافع والعمل الصالح.

الأخلاق والنفس البشرية

الأخلاق الكريمة تتوافق مع العقول السليمة والفطرة المستقيمة، وبها بعثت الرسل وأنزلت الكتب قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الروم: ٣٠)، فالله سبحانه خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، وبالفطرة يستدل الإنسان على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به وكل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه (رواه البخاري)، ولم يقل الصادق المصدوق ﷺ : أو يسلمانه، وذلك لأن الإسلام هو دين الفطرة، وقد بعث ﷺ بحنيفية سمحة، يقول ابن تيمية: «لقد فطر الله عباده على محبته وعبادته، فإذا تركت هذه الفطرة بلا فساد كان القلب عارفًا بالله محبًا له عابدًا له وحده» اهـ.

لقد خلق الله عباده حنفاء، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحل الله لهم وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا فإذا كان الناس ينشدون إقامة المدينة الفاضلة وبلوغ السعادة الحقيقية، والوصول إلى درجات الكمال النفسي فما عليهم إلا اتباع الصراط المستقيم صراط الله، فكما له الخلق سبحانه فينبغي أن يكون له الأمر ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ (سورة الأعراف: ٥٤)، قال: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (سورة الملك: ١٤)، وقال جلَّ وعلا: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (سورة طه: ١٢٣-١٢٤)، فلا يمكن أن تتحقق هذه المطلوبات بصرف العبادة لغير الله، ولا باتباع غير شريعته سبحانه فضلاً عن أن يتم ذلك برياضة كاليوجا مثلاً، وقد روى ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطًا، ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو

إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (سورة الأنعام:١٥٣)، والصراط المستقيم هو الإسلام، وهو ما دعت إليه الرسل، وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ والصحابة الكرام ﷺ، إن العبد في سيره إلى الله عليه أن يعلم قدم الصراع بين الخير والشر، وسنن التدافع بين الإيمان والكفر، وبين أصحاب الصراط المستقيم من جهة والمغضوب عليهم والضالين وأصحاب المناهج الوضعية من جهة أخرى، والإنسان يتنازعه ويتصارع عليه الشيطان والهوى والنفس الأمارة بالسوء مما له أبلغ الأثر على أخلاق الإنسان وسلوكه وهذا هو موطن الإبتلاء، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(سورة الكهف:٧)، وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(سورة الملك:١-٢).

لقد قيل: إن للإنسان ثلاثة أنفس: أمارة بالسوء، ولوامة، ومطمئنة، والصحيح أنها نفس واحدة لها ثلاث حالات: فأحيانًا تكون أمارة بالوسوء تحض على الشر والفجور وهذه قرينها الشيطان، وأحيانًا تكون لوامة وهي التي تلوم صاحبها لما قلت كذا ولما فعلت كذا وكان كذا أولى من كذا، وقيل هي نفس المؤمن التي أقسم بها سبحانه فقال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (سورة القيامة:١-٢)، وأحيانًا تكون مطمئنة وهي التي ألهمها الله التقوى، تلوم صاحبها على السيئات وتدفعه إلى التوبة، والاستغفار، وهذه النفس قرينها الملك يسددها ويوفقها وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(سورة الفجر:٢٧-٣٠)، فعلى العبد أن يضرع إلى ربه في صلاح نفسه وأن يدعو ربه: «اللهم أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا تكلني إلى أحد من خلقك، اللهم أعطني نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها».

وعلى العبد أن يتذكر الموت والقبور والآخرة، فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني، وكان عمر رضي الله عنه يقول: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن، وتهيئوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية**»؛ فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل، قال محمد بن واسع ـ رحمه الله ـ: عددت مائة خصلة من خصال الخير لم أجد نفسي فيها نصيب فمن آثر نجاة نفسه عليه أن يتحسس عيبه ويستعين بربه على إصلاح وعلاج هذه النفس ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٩).

علاقة الأخلاق بالأسماء والصفات

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ بعد كلام طويل على أولية الله تعالى وما في ذلك الشهود من الغنى التام قال: وليس هذا مختصًا بأوليته تعالى فقط بل جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب سبحانه يستغني العبد بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها، فمن شهد مشهد علو الله تعالى على خلقه وفوقيته لعباده واستوائه على عرشه كما أخبر بها أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق وتعبد بمقتضى هذه الصفة، بحيث يصير لقلبه صمد يعرج إليه ساجيًا له مطرقًا واقفًا بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز، فيشعر بأن كلامه وعمله صاعد إليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه فيستحي أن يصعد إليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هناك، ويشهد نزول الأمر والمراسيم الإلهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والتصرف من الإماتة والإحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلب الدول ومداولة الأيام بين الناس إلى غير ذلك من

التصرفات في المملكة التي لا يتصرف فيها سواه، فمراسيمه نافذة فيها كما يشاء ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (سورة السجدة: ٥). فمن أعطى هذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنى به، وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا في قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال بل أحاط بذلك علمه علمًا تفصيليًا ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود من حراسة خواطره وإرادته وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية بادية لا يخفى عليه منها شيء، وكذلك إذا أشعر قلبه صفة سمعه سبحانه لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها وسواء عنده من أسر القول ومن جهر به لا يشغله جهر من جهر عن سمعه صوت من أسر، ولا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها بل هي عنده كلها كصوت واحد، كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة.

وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير جلَّ جلاله الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في حندس الظلماء ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها ويرى مد البعوضة جناحها في ظلمة الليل وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية بحرس حركاته وسكناته وتيقن أنها بمرأى منه سبحانه ومشاهدة لا يغيب عنه منها شيء، وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنه قائم على كل شيء وقائم على كل نفس بما كسبت، وأنه تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليها بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن وجزاء المسيء إليه، وأنه بكمال قيوميته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل لا تأخذه سنة ولانوم ولا يضل ولا ينسى، وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين وهو مشهد

الربوبية وأعلى منه مشهد الإلهية الذي هو مشهد الرسل واتباعهم الحنفاء، وهو شهادة لا إله إلا الله وأن إلهية ما سواه باطل ومحال كما أن ربوبية ما سواه كذلك فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد ويصلى له ويسجد ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده على الحقيقة والمألوه وحده وله الحكم، فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها وكل غنى بغيره فقر وفاقة، وكل عز بغيره ذل وصغار، وكل تكثر بغيره قلة وذلة، فكما استحال أن يكون للخلق رب غيره فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره، فهو الذي انتهت إليه الرغبات وتوجهت نحوه الطلبات ويستحيل أن يكون معه إله آخر، فإن الإله على الحقيقة هو الغنى الصمد الكامل في أسمائه وصفاته الذي حاجة كل أحد إليه ولا حاجة به إلى أحد، وقيام كل شيء به وليس قيامه بغيره.

ـ إلى أن قال ـ: فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء وهو مشهد جامع للأسماء والصفات وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات، ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله جلَّ جلاله، فإن هذا الاسم هو الجامع، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه فيقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (سورة الأعراف: ١٨٠)، فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها وكل مشهد سواه فإنما هو مشهد لصفة من صفاته، فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية وقام بحقه من التعبد الذي هو كمال الحب مع كمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية فقد تم له غناه بالإله الحق وصار من أغنى العباد. اهـ.

وينبغي على العبد العمل بما يصوغ له الاقتداء به مما تتضمنه هذه الأسماء كالرحمة والكرم وأفراد الله تعالى بالصفات التي يختص بها كالجبار والمتكبر والواحد.

(١) ساجيًا: لعلها ساجدًا.

الأخلاق في حياة ودعوة الأنبياء عليهم السلام

أمر النبي ﷺ بمتابعة منهج الأنبياء والمرسلين، فقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(سورة الأنعام: ٩٠)، وقد حباهم سبحانه كمال الخلق والخلق حتى لا ينصرف الناس عن دعوتهم بزعم دمامة الشكل أو الطبع فالأنبياء جميعًا ما يصدرون إلا عن أمر ربهم جلَّ وعلا وليست الرسالة نابعة من نفوسهم أو نتيجة عوامل اجتماعية تكون في زمانهم بل هي وحي الله إليهم فكل نبي من الأنبياء يقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾(سورة الأنعام: ٥٠)، ولا يملك النبي أن يغير ولا أن يبدل ولا أن يزيد أو ينقص من وحي الله شيئًا وقد قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾(سورة النجم: ٣-٤)، وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(سورة يونس: ١٥)، والأنبياء عليهم السلام في دعوتهم لا يطلبون أجرهم إلا من الله فهذا هود عليه السلام يخاطب قومه فيقول: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(سورة هود: ٥١)، ويقرر النبي ﷺ نفس الحقيقة فيقول: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾(سورة ص: ٨٦).

ولم يكن هدفهم عليهم السلام إلا إخلاص الدين لله وأن يصرفوا وجهة البشر من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(سورة البينة: ٥)، وما من نبي إلا وبعث بلسان قومه ليبين لهم، فهم يسيرون مع الفطرة ويخاطبون الناس على قدر عقولهم بلا تكلف ولا تقعر ولا تشدق ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾(سورة ص: ٨٦)، وقد أمر

النبي ﷺ بقوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة النحل: ١٢٥)، فطريقة الأنبياء واضحة ودعوتهم ظاهرة وأقرب الطرق في دعوة الخلق هي طريقة القرآن لا نحتاج معها لمناهج كلامية فلسفية والأنبياء جميعًا آثروا الباقية على الفانية وغلب عليهم الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة لأنهم أيقنوا أن: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (سورة القصص: ٦٠)، وأن: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ (سورة آل عمران: ١٩٨)، وقد خاطب سبحانه نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (سورة طه: ١٣١).

والأنبياء هم أكمل البشر خلقًا وأشرفهم نسبًا وأعظمهم أمانة، أصطفاهم سبحانه على علم على العالمين فهم أسوة وقدوة البشر أجمعين وأصدق الخلق لهجة قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ (سورة ص: ٤٥-٤٨)، وقال جلَّ وعلا عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٤٤)، والأنبياء في دعوتهم وتركيزهم على قضية العبودية وقولهم للناس: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (سورة الأعراف: ٧٣)، كانوا أيضًا يعالجون الآفات والعيوب التي شاعت في أممهم ويردونهم للأخلاق الفاضلة، فنبي الله شعيب عليه السلام كان يعالج تطفيف المكيال والميزان في قومه مدين، ونبي الله لوط عليه السلام قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (سورة الشعراء: ١٦٥-١٦٦)، وعاب عليهم قطع السبيل واتيانهم المنكر في ناديهم، وسيرة النبي ﷺ مع قومه دالة على ذلك كما سنبين فيما بعد ـ بإذن الله ـ.

الحيطة للتوحيد والتشريع سياج أمان للأخلاق

أولاً - الحيطة لجناب التوحيد

التوحيد طهارة لأنه اعـتراف بالحق، والشرك نجاسة ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (سورة التوبة:٢٨)، لأنه جحد للحق حتى وإن تجمل المشرك واغتسل وتطيب في ظاهره فلا تزول عنه نجاسة الباطن والمعاصي والذنوب كلها قاذورات وفي الحديث: «**من أتى شيئًا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله، فإن من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله**» (رواه مالك).

فإذا أردنا تكميل معاني الأخلاق حتى تؤتي ثمارها فعلينا بالحيطة لجناب التوحيد وجناب التشريع استنانًا بسنة رسول الله ﷺ فـقد غـرس صلوات الله وسلامه عليه في نفوس أصـحابه أصلـين عظيـمين: الأول - أن يعبدوا الله ولا يشـركوا به شيـئًا، الثاني - أن يـعبدوه بما شـرع وليس بشرع أحـد سواه، ولم يسـمح ﷺ لأحد من أصـحابه أن يخـدش أصـلاً من هذين الأصلين، ولذلك لما رأى يومًـا بيـد عمـر بن الخطاب رضي الله عنه ورقة من التـوراة، وكان عمر قـد أعجبه مـا فيها، فغـضب رسول الله ﷺ غضبًا شديدًا وقال لعمر: «**أهذا وأنا بين أظهركم، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والله لو كان موسى حيًا لما وسعه إلا أن يتبعني**» (رواه أحمد وحسنه الألباني)، وفي هذا الحديث بيان عالمية الدعوة، وأنه لا يجوز الاهتـداء بغير الكتاب والسنة، فكيف ينصرفون عن هذه الأصول المعصومة والمحـفوظة ويهتدون بما شابه التحريف والتغـيير والتبديل، ولما سمع النبي ﷺ خطيبًا يخطب على المنبر ويقول: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى»، فقال له النبي ﷺ: «**بئس خطيب القوم أنت قل: ومن يعص الله ورسوله فد غوى**» (رواه أحمد ومسلم)، وقد عاب النبي ﷺ تسويته بالله جلَّ وعلا، فالضـمير في «يعـصهما» يفـيد مسـاواة المشتركين في الحكم، ومـقام الخطبة يحـتمل

التفـصيل والتوضيـح والبيان، وأيضـًا لما مات عـثمان بن مظعـون رضي الله عنه، وقامت أم العلاء تقول: شهادتي عليك أبا السائب أن الله قـد أكرمك، اعترضها صلى الله عليه وسلم وقال: «وما يدريك أن الله قد أكرمه؟»، فقالت: سبحان الله، ومن يكرم إذا لم يكرمه الله؟!، فرد عليها صلى الله عليه وسلم بما هو أبلغ من ذلك، وقال: «والله إني لرسول الله ولا أدري ما يفعل بي غدًا»، فقـالت أم العلاء: والله لا أزكي بعـده أحدًا (رواه أحمد والبخاري)، فالأعـمال بالخواتيم، والخواتيم مطوية عن العباد وفي هذا رد على اليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ (سورة المائدة:١٨)، وقولهم: ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ (سورة البقرة:١١١)، فرد عليهم سبحانه بقوله: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة البقرة:١١١)، وهو رد أيضًا علي من زعم ولاية بعض المقـبورين، ولم يكتف بذلك بل يذهب يصرف لهم العبادة من دون الله!!

ومن صور الحيطة أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما شاء الله وشئت، فقال له صلى الله عليه وسلم: «اجعلتني لله ندًا، قل: ما شاء الله وحده» (رواه أحمد وحسنه الألباني)؛ فالحيطة لا تقتصر على الأفعال بل تتـعداها إلى الأقوال، ومن ذلك أن بعض الصحابة لما قالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط (أي شجـرة يعقلون بها أسلحتهم ويتبركون بهـا)، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «قلتم والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة» (رواه أحمـد والترمذي، وقـال: حسن صحيح)، ولما سئل صلى الله عليه وسلم عن العرافين، فقال: «ليسوا بشيء» (رواه مسلم)، فالكاهن والعراف إن صدق مرة كذب معهـا مائة مرة، وقد كثـر التحذير منه صلى الله عليه وسلم من اتخاذ القبـور مساجد ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (سورة الجن:١٨)، فعلى كل الناس أن ينيبوا إلى ربهم وأن يسلموا وجوههم له سبحانه وأن يتركوا الكفريات والشركيات وصرف العبادة لغير الله وأن يوحدوا ربـهم، ويعلموا أن التـوحيد أولاً فـإن تقديم الأهم على المـهم أمر واجب في العلم والعمل والدعوة إلى الله.

إن إدعاءات التأصيل للأخلاق عند الكفرة والمشركين والفلاسفة والزعم بصلاح أخلاقهم ما هي إلا دعوى عريضة وإلا فكل إناء ينضح بما فيه، وهؤلاء إن انتفعوا بخير عملوه فإنما يكون ذلك في الدنيا، أما في الآخرة فيصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ (سورة الفرقان: ٢٣)، وقوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (سورة النور: ٣٩).

ثانيًا ـ الحيطة لجناب التشريع

كل الطرق مسدودة إلا من طريقه صلوات الله وسلامه عليه ولا يجوز التأصيل للأخلاق وغيرها، ثم يلوى أعناق النصوص الشرعية لتوافق هذه الأصول ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (سورة الحجرات: ١)؛ فالواجب أن نستقي أصولنا ومناهجنا وأخلاقنا... من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ وأن لا نسمح لأنفسنا ولا لغيرنا بخدش النصوص الشرعية ولنا في نبينا أسوة حسنة وقدوة طيبة، والأدلة على ذلك كثيرة، ومنها أنه ﷺ لما رأى رجلاً يمشي في الحج بين رجلين يسندانه قال: «**ما هذا**»، فقالوا: يا رسول الله نذر أن يحج ماشيًا، فقال ﷺ: «**إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني مروه فليركب**» (متفق عليه)، ولما رأى أبا إسرائيل يقف في الشمس ولا يتكلم سأل عنه، فقالوا: يا رسول الله نذر أن يصوم ولا يتكلم ويجلس في الشمس، فقال ﷺ: «**ليتم صومه وليتكلم وليجلس في الظل**» (رواه البخاري)، فالجلوس في الشمس تكلف لا يقرب من الله والصوم عن الكلام شرع من قبلنا وليس من شرعنا، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن أدلة ذلك أيضًا أن النبي ﷺ لما علم أن عبد الله بن عمرو يصوم النهار ويقوم الليل مما جعله يفرط في حق امرأته قال له: «**صم صيام أخي داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا،**

ولا يفر إذا لاقى» (رواه مسلم)، وفي الحديث «إن لربك عليك حقًا ولزوجك عليك حقًا فأعط كل ذي حق حقه» (رواه البخاري)، فلابد من عدل واعتدال وحرص على الموازنة بين المصالح بلا إفراط ولا تفريط، ومراعاة لمتطلبات الروح والبدن بلا غلو ولا جفو، وشمولية نظرة في توفية الحقوق لأصحابها، ومن ذلك أيضًا لما ذهب ثلاثة إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته ﷺ فلما أُخبروا بها وكأنهم تقالوها، فقال أحدهم: وأين نحن من رسول الله ﷺ إن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أما أنا فأقوم ولا أنام، وقال الآخر: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء، فلما رجع رسول الله ﷺ وأُخبر خبرهم صعد المنبر وجمع الناس، ثم قال: «ما بال أقوام يقولون كذا أما إن أعلمكم بالله وأتقاكم لله أنا، أما إني لأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» (رواه البخاري ومسلم).

فالطريق الموصل إلى الله وإلى جنات النعيم هو طريق رسول الله ﷺ لا يجوز تخطيه ولا تعديه، بل لابد من اتباع لا ابتداع فيه ولا اختراع معه، إذ أكمل وأشرف الأحوال هو حال رسول الله ﷺ وسنته ﷺ هي طريقته المحمودة التي سلكها هو والصحابة من بعده، وهي كل ما ثبت عنه ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة يقصد بها التشريع للأمة، وكل من أعرض عن طريقته ﷺ يقال له: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»، وكان ﷺ دائمًا يقول: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» (رواه البخاري ومسلم)، وصح عنه أنه قال: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» (رواه النسائي)، والبدعة كما عرفها الشاطبي ـ رحمه الله ـ: «طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها مضاهاة التعبد لله تعالى»، والبدعة أحب إلى إبليس من المعصية وصاحبها ممن زين له سوء عمله فرآه حسنًا، ولا يرجى لصاحبها توبة، وكان عمر رضي الله عنه يقول: «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة»، وقال ابن

مسعود رضي الله عنه: «**اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم عليكم بالأمر العتيق**»، وعلى هذا المنهج الواضح سار صحابة النبي ﷺ فلم يسمحوا لأحد بخدش جناب التوحيد أو التشريع ومن أمثلة ذلك أن عمر رضي الله عنه كان يقبل الحجر الأسود ويقول: «**والله إني لأعلم أنك حجر ما تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك**»، وأخرج عليٌّ رضي الله عنه القُصَّاص من المساجد وهم الذين يروون القصص الخيالية والأكاذيب بزعم تذكير الناس وترقيق قلوبهم، ولما سمع ابن عمر رضي الله عنه رجلاً عطس فقال: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، قال له ابن عمر: «**ما هكذا علمنا رسول الله ﷺ، قال: «إذا عطس أحدكم فليحمد الله» ولم يقل وليصل على رسوله**»، ولما دخل ابن مسعود رضي الله عنه مسجد الكوفة فرأى حلقًا وفي وسط كل حلقة كومًا من الحصى ورجل قائم على كل حلقة يقول لهم: سبحوا مائة فيسبحون مائة، احمدوا مائة فيحمدون مائة، كبروا مائة فيكبرون مائة، فقال لهم ابن مسعود رضي الله عنه: «**يا قوم والله لأنتم على ملة هي أهدى من ملة رسول الله ﷺ، أو مفتتحموا باب ضلالة**»، فقالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا بهذا إلا خيراً، فقال: «**وكم من مريد للخير لم يبلغه**» (رواه الدارمي وصححه الألباني).

فكل زيادة أو نقص في العبادات أو السلوك يراد به التقرب إلى الله تعالى وإصلاح النفس إنما هو بدعة مرفوضة، حتى لو حسنت وصلحت النوايا طالما لم يوافق العمل شرع الله.

تطوير وتجديد الخطاب الديني
وعلاقة ذلك بالأخلاق

الأصالة ليست جموداً وتخلفًا والمعاصرة لا يصح أن تكون ميوعة في الأخلاق والمعتقدات ومع الأحداث الجارية صار التركيز في كل وسائل الإعلام على أهمية تطور وتجديد الخطاب الديني فإذا كان القائلون بذلك يقصدون مخاطبة الناس على قدر عقولهم، وتبسيط لغة الحديث بحيث تتناسب مع العصر، فلا بأس بذلك إذ ما من نبي إلا بعث بلسان قومه ليبين لهم، وقد أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم فما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة، وإذا كان المقصود أن يتعلم الدعاة إلى الله اللغات الأجنبية وأن يتعرفوا على وسائل العصر كالكمبيوتر والإنترنت، فهذا لا حرج فيه طالما سيعين ذلك على إبلاغ الحق للخلق، وهذه الوسائل لها حكم الغايات، والأجهزة العصرية لما استخدمت له فإن استخدمت في أمر مباح كانت مباحة، وإن استخدمت في أمر حرام كانت حرامًا، وقد أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم لغة يهود.

أما إن كان المقصود من تطوير وتجديد الخطاب الديني هو التغيير أو التبديل فهذا أمر مرفوض من كل من جاء به قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (سورة يونس: ١٥)، وقال: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (سورة المائدة: ٥٠)، جاء الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود ابن عبد المطلب وأمية بن خلف إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما

تعبد، وتعبد ما نعبد ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شاركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه، فأنزل الله: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ (سورة الكافرون: ١-٦)، وقيل إنهم قالوا له: لو استلمت بعض هذه الآلهة لصدقناك، فنزلت السورة فيئسوا منه وآذوه ﷺ وآذوا أصحابه، وقد عرضوا عليه وقالوا نحن نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجل بمكة ونزوجك من شئت ونطأ عقبك وتكف عن شتم آلهتنا، فإن لم تفعل فنحن نعرض عليك خصلة واحدة وهي لنا ولك صلاح: تعبد آلهتنا اللات والعزى سنة ونحن نعبد إلهك سنة فنزلت السورة، والتكرار الوارد في قوله تعالى: ﴿ **لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴾ لأن القوم كرروا عليه مقالهم مرة بعد أخرى أو هو بمعنى التغليط، وقد بلغ من حالهم أنهم كانوا يعبدون الصنم فإذا ملوه تركوه وعبدوا غيره، وإذا مروا بحجر يعجبهم تركوا الأول وعبدوا الثاني!!! وكان الواحد منهم يصنع صنم العجوة فإذا جاع أكله، والديمقراطية التي يطالب البعض بتطبيقها هي بمثابة دين عند أهلها، وهي أشبه بصنم العجوة فهم يلوحون بها وكأنها الجنة الموعودة!!! وكأنها سبيل الرخاء والأمن والأمان، ثم يعودون فيقولون: لا ديمقراطية لأعداء الديمقراطية!!!

ولا يجوز للمسلم أن يصبح حية تغير جلدها ولا حرباء تغير لونها بل لابد من ثبات على دين الله والواجب على أصحاب الأديان الفاسدة والفلسفات المظلمة أن يغيروا أنفسهم وأن يسلموا وجوههم لله، وأن يصبح خطابهم الديني موافقًا لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ لقد خرجت العلمانية ومعها ظلماتها تطالب بالعودة لمتابعة

الغرب دينيًا وسياسيًا، فإذا وجدت المصالح المزعومة عندهم فالفقه يتغير ولا داعي للأحكام الشرعية وهذا هو مذهب النفعية، التي تغير من أخلاق المسلم وتجعله تابعًا لمنافعه فقط!!! لقد جاء النص هاديًا للعقل وقائدًا له، فلابد من إخضاع العقل لنصوص الشريعة، وعدم الأغترار بكلمة التجديد والتطوير، فالمصالح التي تصطدم بالشريعة هي في الحقيقة مفاسد، فليس من المصلحة في شيء أن نغير مفهوم الولاء والبراء وقد قال تعالى: ﴿ لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة المائدة:٥١)، وقال تعالى: ﴿ لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ﴾ (سورة التوبة:٢٣)، وقال تعالى: ﴿ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (سورة الأنفال:٧٣). وأوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، قال البعض:

تحب أعداء الحبيب وتدعي ▫■▫ حبًا له؟ ما ذاك في إمكان

وهل الدين إلا الحب والبغض فلا يسعنا أن نغير ولا أن نبدل حكمًا واحدًا وإلا كانت فتنة في الأرض وفساد كبير، وقس على ذلك الجهاد في سبيل الله وغيره من أحكام الشريعة وقد أراد البعض بتطوير وتجديد الخطاب الديني إلغاء مادة الدين من الدراسة واستبدالها ببعض الأخلاق كالسماحة والحرية والإخاء والمساواة... ومعاني أقرب إلى الماسونية التي تفرغ الدين من محتواه فبزعم السماحة يتم إسقاط الحدود الشرعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومؤدى الإخاء عندهم أن يحب المسلم الكافر ويؤاخيه... نحن نرفض هذا التطور ولا نقبله وليس معنى فتح باب الاجتهاد لمواكبة المستجدات العصرية أن يصبح الحبل على الغارب فالباب مفتوح لمن تأهل وحصَّل أدوات النظر في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ، وليس معنى كوننا في

القرن الحادي والعشرون الميلادي أن ننسلخ من ديننا وأحكام شريعتنا، فالعقائد والعبادات والأخلاق توقيفية تؤخذ دون زيادة أو نقصان.

وإذا أردنا التدقيق في القول فلا نرى قيمة لكلمة الخطاب الديني، وينبغي علينا أن نستخدم المصطلحات الشرعية ككلمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعروف يشمل الواجب والمستحب وأعلاه الإيمان بالله، أما المنكر فيشمل المكروه والحرام، وأشنعه الكفر بخالق الأرض والسماء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتسع بإتساع دعوة الإسلام وهو يشمل النصيحة والجهاد في سبيل الله وإقامة المجتمع المسلم وكل ذلك يتم وفق الضوابط الشرعية بحيث تتحقق المصلحة وتندفع المضرة والمفسدة ويرجع في ذلك لعلماء الأمة المعتبرين.

القول بالتطور الخلقي!!!

لقد تعرضت نظرية النشوء والارتقاء لدارون لنقد عنيف، وذكر العلماء هنا وهناك لتفنيدها عشرات الأدلة، وهي حرية بهذا السقوط وبأن توضع في مزبلة التاريخ لمصادمتها للشرع والواقع فالبشرية بدأت بنبي مكلم هو نبي الله آدم عليه السلام أي بمرتبة هي من أعلى مراتب الهداية والتكريم، فقد خلقه سبحانه بيده وأسجد له ملائكته. . . ونشأت الذرية من آدم وحواء قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ**﴾ (سورة الإسراء: ٧٠)، وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها على التوحيد الخالص حتى ظهر الشرك في قوم نوح كما روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾ (سورة نوح: ٢٣)، وقد عكف الناس على قبور هؤلاء الصالحين يعبدونهم من دون الله وقد تتابع إرسال الرسل وإنزال الكتب لهداية الخلق ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ (سورة فاطر: ٢٤)، ﴿**رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ (سورة النساء: ١٦٥). وقد تشابه البعض مع دارون فذكر العقاد أن العقائد تدرجت وتطورت!!! من عبادة الوثن والطوطم والكواكب إلى عبادة الله الواحد، بل من عجيب الأمر ما ذكره البعض من أن أخناتون الوثني هو أول من نادى بالتوحيد!!! وهؤلاء بحاجة لمعرفة معاني التوحيد، وقراءة الواقع على أساس من دين الله وإعادة صياغة التاريخ وفق الحقائق التي جاءت في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يبعد على أمثال هؤلاء وعلى أصحاب المنهج الغربي الذي يعتبر الأخلاق عادات وتقاليد أن يقولوا بالتطور الخلقي، بل العقاد في رفضه للأخلاق الدينية يصرح بأنها سيطرة خارجة عن الإنسان تملى عليه ما يفعل وما يترك، وتجيز له أو تحرم عليه، ولا شأن له

هو في جميع ذلك غير الطاعة والإذعان!! هذه الصورة من صور التفلت الإيماني والخلقي لا نقبلها ونتمنى لأنفسنا ولجميع الخلق أن نذعن للوحي المنزل من خالقنا جلَّ وعلا فإن أُتهمنا بأننا أسلمنا وجوهنا لله فيما يتعلق بالأخلاق وغيرها من أحكام الشريعة قلنا: تهمة لا ننفيها وشرف لا ندعيه ولنعلم أن الأخلاق الفاضلة لا تتطور فمما اتفقت عليه الشرائع هذه الخمس المذكورة في سورة الأعراف ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ (سورة الأعراف: ٣٣). وقد ذكر البعض أن المراد بالفواحش جميع الكبائر، وبالإثم جميع الذنوب، قالوا: إن البغي والشرك لابد وأن يكونا داخلين تحت الفواحش وتحت الإثم، إلا أن الله تعالى خصهما بالذكر تنبيهًا على أنهما أقبح أنواع الذنوب، والجنايات محصورة في خمسة أنواع:

١ ـ الجنايات على الأنساب، وهي إنما تحصل بالزنا وهي داخلة في قوله ﴿ **إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ** ﴾.

٢ ـ الجنايات على العقول وتحصل بشرب الخمر وإليها الإشارة بقوله ﴿ **الإِثْمَ** ﴾.

٣ ـ الجنايات على الأعراض.

٤ ـ الجنايات على الدين وهي من وجهين؛ الأول ـ الطعن في توحيد الله تعالى وإليه الإشارة بقوله: ﴿ **وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ** ﴾. والثاني ـ القول في دين الله من غير معرفة وإليه الإشارة بقوله: ﴿ **وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾.

وعند مجيء الإسلام كانت شرائع الله التي عرفوها إما مبدلة وإما منسوخة، وكان بعضها مجهولاً وبعضها متروكًا كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: فرفض الإسلام الخطأ، وأقر الصواب وأكمل الناقص ونقى المحرف من شوائب التحريف، فعل الإسلام ذلك في العقائد والتشريع والأخلاق جميعًا، فأكد بقوة على عقيدة

التوحيد الخالص، وجعل العقل مناط التكليف ولذلك رفض محاكمة الحيوان كما كان معتمداً لدى اليونان والرومان واليهود وجعل «جناية العجماء جبار» أي هدر كما نبذ مبدأ العنصرية المتخلف المعمول به عند اليهود والنصارى فلا فرق بين عربي وأعجمي وأبيض وأسود إلا بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات:١٣)، ومبدأ الدية في القتل والجروح ولم يكن عند اليهود إلا العفو أو القصاص ورفض تقرير الرق كجزاء للسرقة، وقد كان ذلك في الشرائع السابقة وأصبحت المسئولية فردية بعد أن كانت جماعية عند العرب، وألغى فكرة الإدانة الشاملة للجنس البشري، وهي المعبر عنها بعقيدة الصلب والفداء عند النصارى قال تعالى: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (سورة النجم:٣٨).

وبذلك تم رفع الظلم الذي تعنيه المسئولية الجماعية، وهكذا تجد في كل ناحية نوع مغايرة يتميز بها دين الله المحكم عما قد نسخ أو بدل ذكره ابن تيمية ـ ولا يفوتك ما ذكرناه من أن الدين واحد هو دين الإسلام ـ من لدن آدم حتى قيام الساعة ـ وأن شريعة الإسلام حاكمة ومهيمنة على سائر الشرائع.

الوسط الأرسطي والوسطية الإسلامية

الإسلام سابق بعقيدته وأخلاقه على فلسفة أرسطو وأفلاطون وهو يفترق عن هذه الفلسفات في الغاية والطريق، ولا يمنع ذلك من الإتفاق في جزئية من الجزيئات فنقول الحكمة ضالة المؤمن والحق مقبول من كل من جاء به حتى وإن أتى من كافر، والباطل مردود على صاحبه حتى وإن أتى من مسلم، وميزاننا في القبول والرفض هو الوحي المنزل وهذا المنهج الرباني الذي ندين به، فالأخلاق الفلسفية هي من وضع أمثال أرسطو أما الأخلاق الإسلامية فهي من تشريع خالق البشر وإذا كان هدف المذاهب الوضعية والفلسفات الكفرية تحقيق المنفعة والسعادة الدنيوية وإقامة المدينة الفاضلة، فالسبيل والطريق لا يصح أن يكون بتشريع البشر للبشر مع إهمال دين الله، فالبشر فيهم من سمات النقص والقصور ما يتناسب مع بشريتهم ولا يجوز لهم أن يشرعوا مع الله ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (سورة الشورى: ٢١)، وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٨٥)، وقال: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢١٦).

لا بأس بوضع نظام إداري لا يصطدم بشرع الله، ولا مانع من المطالبة بالأخلاق الفاضلة ولكن لابد وأن تنبثق من دين الله حتى يتعرف على ماهيتها وحدودها، فلا يجوز أن يكون مردها العادات والأعراف ونحن كمسلمين نبتغي السعادة في العاجل والآجل لأننا نؤمن بالله واليوم الآخر، والمنفعة من وراء التزام الأخلاق وغيرها تتعدى الدنيا إلى الآخرة بلا معارضة والمدينة الفاضلة لا تقام على الوهم الفلسفي بل على أساس من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ، وقد أقيمت فعلاً على عهد النبي

ﷺ وصحابته الكرام وصح الخبر عن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»(متفق عليه)، ولكي يثاب العبد على أخلاقه في الآخرة فلابد من الإيمان بالله قال تعالى: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً** ﴾(سورة الفرقان:٢٣)، وقال سبحانه: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾(سورة النور:٣٩)، أين أرسطو والفلاسفة من ذلك كله؟!

لقد حدث التردد بين قطبين متطرفين: إما إلغاء معنى الحياة ووصفها بأنها مشروع شر يجب إيقافه، وهذا هو التطرف المتشائم وإما انغماس في الشهوات واللذات بحيث تصبح الدنيا هي كل شيء وهي كل هم الإنسان ومبلغ علمه ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾(سورة الروم:٧)، فأين العدل والاعتدال والتوازن والاتزان؟ وما الذي يمنع من أن يكون عملك هنا ونظرك في السماء، وأن يكون عملك هنا وحساباتك حسابات أخروية، ما الذي يمنع من أن نصل الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة؟! فلا معارضة ولا مناقضة عند المسلمين فالحياة ممتدة زمانًا ومكانًا، زمانًا لأبد الآبدين، ومكانًا إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقد يقول قائل: إن أرسطو ذكر عن الفضيلة أنها نوع وسط، ونقل عنه ذلك كثير من الفلاسفة والصوفية، ومن المعلوم أن خير الأمور أوسطها، وديننا هو دين الوسطية بين الإفراط والتفريط والغلو والجفو، والإسراف والتقصير، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾(سورة البقرة:١٤٣)، وكلمة أرسطو هذه لا تدعونا لأن نكون فلاسفة ولا أن ننادي بالمنهج الأرسطي فغاية ما فيها أن تكون كلمة حق لابد أن تفهم على ضوء ما قدمناه من معاني وأرسطو مسبوق في كلمته هذه فلا داعي للانبهار به وبلفسفته، وقد فُسر الوسط في قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ**

﴿شَهِيداً﴾ (سورة البقرة:١٤٣) بأنه: العدل والخيار الأجود من كل شيء، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: يقول تعالى إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم لأن الجميع معترفون لكم بالفضل والوسط ها هُنَا الخيار والأجود كما يقال قريش أوسط العرب نسبًا وداراً أي خيرها وكان رسول الله ﷺ وسطًا في قومه أي أشرفهم نسبًا ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطًا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب. اهـ

وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (سورة آل عمران: ١١٠)، وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (سورة البقرة:١٤٣) قال: «عدلاً»، ومن المعلوم أن الأطراف يتسارع إليها الخلل والفساد والأواسط محمية محوطة، فلما صح ذلك في الوسط صار كأنه عبارة عن المعتدل الذي لا يميل إلى جهة دون جهة والوسط يطلق على الأكثر فضلاً قال الرازي: «يجوز أن يكونوا وسطًا على معنى أنهم متوسطون في الدين بين المفرط والمفرِّط، والغالي والمقصر في الأشياء لأنهم لم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا ابنًا وإلهًا، ولا قصروا كتقصير اليهود في قتل الأنبياء وتبديل الكتب وغير ذلك مما قصروا فيه» اهـ.

وهذه الأقوال متقاربة غير متنافية وإذا كانت هذه الأمة وسط بين اليهود والنصارى فأهل السنة والجماعة أيضًا وسط بين الخوارج الذين يكفِّرون بالكبيرة، والمرجئة الذين يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب، وكذلك هم وسط بين من يكفرون عليًا رضي الله عنه كالخوارج، وبين الشيعة الروافض الذين يغالون فيه وقس على ذلك، قال الغزالي: «إن لكل فضيلة طرفين وواسطة، والإنسان مأمور بالتوسط والاستقامة بين طرفي

الإفراط والتفريط في جملة ذلك»؛ فالحكمة وسط بين الخب والبله، والشجاعة وسط بين التهور الجبن، والقول بالوسطية هنا لا يتعارض مع العمل بكل الفضائل والأخلاق الواردة في الكتاب والسنة، والانتهاء عن جميع الرذائل حتى وإن لم نعلم الحكمة من وراء الأمر والنهي وإن لم ندرك الوسطية في بعض الأخلاق قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ١-٣). إن الفضيلة لا يمكن أن تنقلب إلى رذيلة مهما استزاد المرء منها والواجب على المسلم أن يجمع بين الفرائض والنوافل وأن يدور مع إسلامه حيث دار، وهذا هو الذي تتحقق به المصالح وتندفع به المضار والمفاسد، وإذا كان معيار الفضيلة عند أرسطو هو القانون؛ فقانون المسلمين هو القرآن والسنة ومنها يجب أن نأخذ معيار الفضيلة الخلقية وكل مبدأ يحكم حياتنا.

كان خلقة القرآن ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأخلاقه ﷺ من أعظم دلائل نبوته إذا كان القرآن هو أعظم معجزات رسول الله ﷺ فإن أخلاقه الكريمة ﷺ هي من أعظم دلائل نبوته، إذ لما سئلت أم المومنين عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «**كان خلقه القرآن**» (رواه مسلم)، وهذا ما بينه العلماء.

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ في كتابه (شمائل الرسول ﷺ) ما نصه: «ومن الدلائل المعنوية أخلاقه ﷺ الطاهرة، وخلقه الكامل، وشجاعته وحلمه، وكرمه وزهده، وقناعته وإيثاره، وجميل صحبته، وصدقه وأمانته، وتقواه وعبادته، وكرم أصله، وطيب مولده، ومنشئته ومرباه، كما قدمناه مبسوطًا في مواضعه».

وما أحسن ما ذكره شيخنا العلامة أبو العباس ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في كتابه الذي رد فيه على فرق النصارى واليهود ومن شابههم من أهل الكتاب وغيرهم، فإنه ذكر في آخره دلائل النبوة، وسلك فيها مسالك حسنة صحيحة منتجة، بكلام بليغ يخضع له كل من تأمله وفهمه.

قال في آخر هذا الكتاب المذكور: وسيرة الرسول ﷺ وأخلاقه وأقواله وأفعاله من آياته، أي من دلائل نبوته. قال: وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعلم أمته من آياته، ودينهم من آياته، وكرامات صالحي أمته من آياته، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى بعث، ومن حين بعث إلى أن مات، وتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله.

فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسبًا من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من ذريته، وجعل الله له ابنين إسماعيل وإسحاق، وذكر في التوراة هذا وهذا، وبشر في التوراة بما يكون من ولد إسماعيل.

ولم يكن من ولد إسماعيل من ظهر فيه ما بشرت به النبوات غيره، ودعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث الله فيهم رسولاً منهم.

ثم الرسول ﷺ من قريش صفوة بني إبراهيم، ثم من بني هاشم صفوة قريش، ومن مكة أم القرى وبلد البيت الذي بناه إبراهيم ودعا الناس إلى حجة ولم يزل محجوجًا من عهد إبراهيم، مذكورًا في كتب الأنبياء بأحسن وصف.

وكان ﷺ من أكمل الناس تربية ونشأة، لم يزل معروفًا بالصدق والبر ومكارم الأخلاق والعدل، وترك الفواحش والظلم وكل وصف مذموم، مشهودًا له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة، ومن آمن به، ومن كفر بعد النبوة، ولا يعرف له شيء يعاب به ولا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه، ولا جرب عليه كذبة قط، ولا ظلم ولا فاحشة.

وقد كان ﷺ خَلقه وصورته من أحسن الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله، وكان أميًا من قوم أميين لا يعرف هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب من

التوراة والإنجيل، ولم يقرأ شيئًا من علوم الناس، ولا جالس أهلها، ولم يدع نبوة إلى أن أكمل الله له أربعين سنة، فأتى بأمر أعجب الأمور وأعظمها، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره، وأخبر بأمر لم يكن في بلده وقومه من يعرف مثله.

ثم تبعه أتباع الأنبياء وهم ضعفاء الناس، وكذبه أهل الرياسة وعادوه، وسعوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم.

والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة، فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم، ولا جهات يوليهم إياها، ولا كان له سيف، بل كان السيف والجاه والمال مع أعدائه، وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى، وهم صابرون محتسبون، لا يرتدون عن دينهم، لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة.

وكانت الكعبة يحجبها العرب من عهد إبراهيم، فيجتمع في الموسم قبائل العرب، فيخرج إليهم يبلغهم الرسالة ويدعوهم إلى الله صابرًا على ما يلقاه من تكذيب المكذب، وجفاء الجافي، وإعراض المعرض، إلى أن اجتمع بأهل يثرب وكانوا جيران اليهود، وقد سمعوا أخباره منهم وعرفوه، فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر الذي يخبرهم به اليهود، وكانوا سمعوا من أخباره أيضًا ما عرفوا به مكانته، فإن امره كان قد انتشر وظهر في بضع عشرة سنة فآمنوا به وبايعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم، وعلى الجهاد معه، فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة، وبها المهاجرون والأنصار ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية، ولا برهبة إلا قليلاً من الأنصار أسلموا في الظاهر ثم حسن إسلام بعضهم، ثم أذن له في الجهاد، ثم أمر به.

ولم يزل قائمًا بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها، من الصدق والعدل والوفاء لا يحفظ له كذبة واحدة، ولا ظلم لأحد، ولا غدر بأحد، بل كان أصدق الناس

وأعدلهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال، من حرب وسلم، (وأمن) وخوف، وغنى وفقر، وقدرة وعجز، وتمكن وضعف، وقلة وكثرة، وظهور على العدو تارة، وظهور العدو تارة.

وهو على ذلك كله لازم لأكمل الطرق وأتمها، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان، ومن أخبار الكهان، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق، وسفك الدماء المحرمة، وقطيعة الأرحام، لا يعرفون آخرةً ولا معادًا، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم، حتى إن النصارى لما رأوا حين قدموا الشام قالوا: ما كان الذين صحبوا المسيح أفضل من هؤلاء!.

وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

وهو ﷺ مع ظهور أمره، وطاعة الخلق له، وتقديمهم له على الأنفس والأموال، مات ولم يخلف درهمًا ولا دينارًا، ولا شاة ولا بعيرًا، إلا بلغته وسلاحه ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقا من شعير ابتاعها لأهله، وكان بيده عقار ينفق منه على أهله، والباقي يصرفه في مصالح المسلمين، فحكم بأنه لا يورث ولا يأخذ ورثته شيئًا من ذلك.

وهو في كل وقت يظهر من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه، وخبرهم بما كان وما يكون، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويشرع الشريعة شيئًا بعد شيء.

حتى أكمل الله دينه الذي بعثه به، وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه

لم يأمر بشيء فقيل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء، فقيل: ليته لم ينه عنه وأحل لهم الطيبات ولم يحرم منها شيئًا كما حرم في شريعة غيره، وحرم الخبائث ولم يحل منها شيئًا كما استحل غيره.

وجمع محاسن ما عليه الأمم، فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن الملائكة وعن اليوم الآخر وقد جاء به على أكمل وجه، وأخبر بأشياء ليست في الكتب، وليس في الكتب إيجاب وقضاء بفضل وندب إلى الفضائل وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به وبما هو أحسن منه.

وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر له فضلها ورجحانها، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع.

وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة، وإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم، وإن قيس دينهم وعباداتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم، وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله، ظهر أنهم أعظم جهادًا وأشجع قلوبًا.

وإذا قيس سخاؤهم وبرهم وسماحة أنفسهم بغيرهم، ظهر أنهم أسخى وأكرم من غيرهم.

وهذه الفضائل به نالوها، ومنه تعلموها، وهو الذي أمرهم بها، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله، كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة، فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة، وبعضها من الزبور، وبعضها من النبوات، وبعضها من المسيح، وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعد الحواريين، وقد

استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا ـ لما غيروا دين المسيح ـ في دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح ا.

وأما أمة محمد ﷺ فلم يكونوا قبله يقرءون كتابًا، بل عامتهم آمنوا بموسى وعيسى وداود والتوراة والإنجيل والزبور إلا من جهته، وهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء، ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله، ونهاهم عن أن يفرقوا بين أحد من الرسل، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة البقرة: ١٣٦-١٣٧)، وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٥).

وأمته ﷺ لا يستحلون أن يوجدوا شيئًا من الدين غير ما جاء به، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، ولا يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله، لكن ما قصه عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم اعتبروا به، وما حدثهم عن أهل الكتاب موافقًا لما عندهم صدقوه، وما لم يعلم صدقه ولا كذبه أمسكوا عنه، وما عرفوا بأنه باطل كذبوه، ومن أدخل في الدين ما ليس منه من أقوال متفلسفة الهند والفرس واليونان أو غيرهم، كان عندهم من أهل الإلحاد والابتداع.

وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وهو الذي عليه أئمة الدين الذين لهم في الأمة لسان صدق، وعليه جماعة المسلمين وعامتهم ومن خرج عن ذلك كان مذمومًا مدحوراً عند الجماعة، وهو مذهب أهل السنة

والجماعة الظاهرين إلى قيام الساعة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة**» .

وقد يتنازع بعض المسلمين مع اتفاقهم على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عمومًا ودين محمد ﷺ خصوصًا ومن خالف هذا الأصل كان عندهم ملحدًا مذمومًا .

ليسوا كالنصارى الذين ابتدعوا دينًا ما قام به إلا أكابر علمائهم وعبادهم، وقاتل عليه ملوكهم، ودان به جمهورهم، وهو دين مبتدع ليس هو دين المسيح ولا دين غيره من الأنبياء .

والله سبحانه أرسل رسله بالعلم النافع، والعمل الصالح، فمن اتبع الرسل حصل له سعادة الدنيا والآخرة، وإنما دخل في البدع من قصر في اتباع الأنبياء علمًا وعملاً .

ولما بعث الله محمد ﷺ بالهدى ودين الحق، تلقى ذلك عنه المسلمون (من أمته) فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمة محمد، أخذوه عن نبيهم، كما ظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية، ومعلوم أن كمال الفرع المتعلم عائد إلى الأصل المعلِم، وهذا يقتضي أنه ﷺ كان أكمل الناس علمًا ودينًا .

وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقًا في قوله: ﴿ **إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ (سورة الأعراف:١٥٨) لم يكن كاذبًا مفتريًا، فإن هذا القول لا يقوله إلا من هو خيار الناس وأكملهم، إن كان صادقًا، أو من هو من أشر الناس وأخبثهم إن كان كاذبًا، وما ذكر من كمال علمه ودينه يناقض الشر والخبث والجهل، فتعين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين، وهذا يستلزم أنه كان صادقًا في قوله: ﴿ **إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾

لأن الذي لم يكن صادقًا إما أن يكون متعمد للكذب أو مخطئًا، الأول يوجب أنه كان ظالمًا غاويًا، والثاني يقتضي أنه كان جاهلاً ضالاً، ومحمد ﷺ كان علمه ينافي جهله، وكمال دينه ينافي تعمد الكذب، فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن يتعمد الكذب ولم يكن جاهلاً يكذب بلا علم، وإذا انتفى هذا وذاك تعين أنه كان صادقًا عالمًا بأنه صادق، ولهذا نزهة الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى: ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ (سورة النجم: ١-٤)، وقال تعالى عن الملك الذي جاء به: ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ** ﴾ (سورة التكوير: ١٩-٢١)، ثم قال عنه: ﴿ **وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ (سورة التكوير: ٢٢-٢٧)، وقال تعالى: ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ (سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥)، إلى قوله: ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ** ﴾ (سورة الشعراء: ٢٢١-٢٢٣).

بين سبحانه أن الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصل به غرضه، فإن الشيطان يقصد الشر، وهو الكذب والفجور، ولا يقصد الصدق والعدل، فلا يقترن إلا بمن فيه كذب، إما عمدًا وإما خطأ، وفجور أيضًا، فإن الخطأ في الدين هو من الشيطان أيضًا، كما قال ابن مسعود لما سئل عن مسألة: أقول فيها برأي، فإن يكن صوابًا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه؛ فإن رسول الله ﷺ بريء من تنزل الشياطين عليه في العمد والخطأ.

بخلاف غير الرسول فإنه قد يخطىء ويكون خطؤه مغفوراً له، فإذا لم يعرف له خبر فأخبر به كان فيه مخطئًا ولا أمر أمر به كان فيه فاجراً، علم أن الشيطان لم ينزل عليه وإنما ينزل عليه ملك كريم، ولهذا قال في الآية الأخرى عن النبي: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الحاقة: ٤٠-٤٣)، وهذا عين ما أورده بحروفه.

الإيمان وأثره في التحلي بالأخلاق الفاضلة

المؤمن يفترق عن غيره، فهو موصول بربه لا يجزع من ذل الدنيا ولا ينافس في عزها، له شأن وللناس شأن والمجتمعات الإسلامية ـ التي تنهج منهج الكتاب والسنة، تفترق عن غيرها إن من شأن التوحيد أن يفرز طهارة في الخلق والسلوك والشرك بضد ذلك، وهذا واقع ملموس على مستوى الفرد والدولة والجماعة قديمًا وحديثًا ويكفي أن ننظر نظرة سريعة على واقع قرون الخيرية التي انصبغت بصبغة الإسلام ونقارن بينها وبين واقع المجتمعات المعاصرة التي انسلخت من دين الله لندرك مدى الهوى السحيقة ومدى التردي الذي آلت إليه البشرية بحيث أصبح الفارق بين ما كان عليه رسول الله ﷺ والصحابة وبين ما نحن عليه كالفارق ما بين السماء والأرض، إن المسلم يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره وسائر جوارحه ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (سورة الإسراء:٣٦)، يعلم رقابة الله عليه حتى في الخطرات التي تموج بنفسه والمشاعر والأحاسيس التي تعرض عليه ولإيمانه بأن الجنة والنار بيد الله، وأن الدنيا لا تصلح عوضًا عن معنى من معاني الآخرة، وأن السعادة في العاجل والآجل مرتهنة بالإستقامة على منهج الله، لهذا نجد المؤمن المحب لله يندفع دفعًا للتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل ويشهد لذلك المؤهلات التي أهلت الصحابة رضي الله عنهم لقيادة البشرية كتعظيمهم لأمر الله عزَّ وجلَّ وأمر رسوله ﷺ وصدقهم في إيمانهم وأقوالهم وأعمالهم وزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة وشجاعتهم النادرة واستهانتهم بالحياة الدنيا وبزخارفها وزينتها الجوفاء وإيثارهم ما عند الله وقطعهم حبال الجاهلية وموالاة الله عزَّ وجلَّ ورسوله ﷺ والمؤمنين وحرصهم على الاجتماع والوحدة ونبذ الخلاف ومسارعتهم رضي الله عنهم إلى التوبة إن بدت منهم

معصية وتكافلهم فيما بينهم ومواساتهم لإخوانهم واتهامهم أنفسهم دائمًا بالتقصير مع إيمانهم وعلو همتهم في الطاعات والقربات وحرصهم على تزكية النفوس بالعبادات والثبات أمام المطامع والشهوات وعلى الأخذ بأسباب القوة واستنصارهم بالله عزَّ وجلَّ وطلبهم العزة بما أعزهم الله عزَّ وجلَّ به وطمأنينتهم وثقتهم بنصر الله عزَّ وجلَّ وغير ذلك من المعاني التي افترق بها سلفنا الصالح عن غيرهم من الماديين وأصحاب المناهج الوضعية والأديان الفاسدة والفلسفات الضالة المتهالكة، لقد علمنا أوائلنا بالباب الذي منه يدخلون وكان منهم الأدب مع الله ومع رسول الله ﷺ فكانوا نجومًا يهتدى بها وكانت أخلاقهم وسلوكياتهم دالة على الله وعلى طريق الله حتى كانت المرأة الكتابية من أهل الشام تأمن على نفسها بحضرة الصحابة أكثر من أمنها على نفسها بحضرة أبيها وفي الحديث: «**النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**» (رواه أحمد ومسلم)، لقد جرت منهم مجرى الدم من العروق فأورثهم فضلاً وكرمًا وشجاعة وعفة وطهارة وبرًا وهدى وتعظيمًا لأوامر ربهم وخالقهم ومن ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه لما هم بقطع النفقة عن مسطح بن أثاثة وكان قد خاض وسقط مع من سقط في حادثة الإفك فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (سورة النور: ٢٢). وسمعها أبو بكر فقال: «**بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا، ودفع لمسطح نفقته**» (والحديث رواه البخاري)، وهذا عقبة بن الحارث يتزوج ابنة لأبي إهاب بن عزيز فتأتيه امرأة فتقول: إني قد أرضعت عقبة والتي تزوج، فيقول لها عقبة: ما أعلم أنك أرضعتني ولا أخبرتني، فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فسأله، فقال رسول الله: «**كيف وقد قيل**»، ففارقها عقبة ونكحت زوجًا غيره. (رواه البخاري).

ومن ذلك خروج الصحابة رضي الله عنهم إلى حمراء الأسد صبيحة يوم أحد على ما بهم من جراح وألم لما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم للخروج قال تعالى في شأنهم: ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾(سورة آل عمران: ١٧٢-١٧٤)، ومن ذلك ما كان من عمير بن الحمام رضي الله عنه يوم بدر فقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**»**فقال عمير: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ:** «**ما حملك على قول بخ بخ؟**»**قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال:** «**فإنك من أهلها**»**فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال:** «**لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة**»**، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل** (رواه مسلم)، وعن أنس رضي الله عنه قال: «**رأيت عمر وهو يومئذ أمير المؤمنين، وقد رقع بين كتفيه برقاع ثلاث لبد بعضها على بعض**». ومن ذلك اتيان ماعز والغامدية لإقامة حد الزنا عليهما، وربط أبو لبابة بن عبد المنذر نفسه في سارية من سواري المسجد لما أحس بأنه قد خان الله عزَّ وجلَّ ورسوله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت براءته، ومن ذلك تصدق أبي الدحداح ببستان له فيه ستمائة نخلة لما سمع قوله تعالى: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾ (سورة البقرة: ٢٤٥)، ولما علمت زوجته بذلك عمدت إلى صغارها تخرج ما بأيديهم وجيوبهم من تمر؛ لأن البستان صار صدقة لله تعالى، وهذا أبو الدرداء رضي الله عنه يصيبه المرض ويدخل عليه أصحابه ليعودوه ويقولوا له: أي شيء تشتكي؟ فيقول: «**ذنوبي**»، فيقولون: أي شيء تشتهي فيقول: «**الجنة**» (رواه ابن أبي شيبة)، ومن ذلك لما دخل الصحابة رضي الله عنهم على النجاشي، فابتدرهم من عنده من القسيسين والرهبان أن اسجدوا للملك، فقال جعفر رضي الله عنه: «**لا نسجد إلا لله**» . . . وهكذا فكل إناء بما فيه ينضح، والأخبار في هذا المعنى كثيرة ـ يطول الحديث بذكرها وكلها دالة على عظيم أثر الإيمان في التحلي بالأخلاق الفاضلة.

بعض سمات وملامح الأخلاق عند المسلمين

١ - الربانية

رأينا ارتباط الأخلاق بالعبادة والدين وبمفهوم الإيمان وبمعاني الأسماء والصفات، وبمنهج الأنبياء والمرسلين، وقد كان النبي ﷺ خلقه القرآن كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري عنها وروى الأئمة عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرءونها لو علينا أنزلت معشر اليهود لا تخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: «وأي آية؟»، قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة: ٣)، فقال عمر: «**إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه والمكان الذي أنزلت فيه، نزلت على رسول الله ﷺ بعرفة في يوم جمعة**» (رواه مسلم بلفظه)، وروي أنها لما نزلت في يوم الحج الأكبر وقرأها رسول الله ﷺ بكى عمر، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما يبكيك؟**»، فقال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، فقال له النبي ﷺ: «**صدقت**»، وكان الصحابة رضي الله عنهم قد تشهدوا وصلوا وزكوا وصاموا وجاهدوا واعتمروا ولم يكونوا حجوا فلما حجوا ذلك اليوم مع النبي ﷺ أنزل الله تعالى وهم بالموقف عشية عرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾، فإنما أراد أكمل وضعه لهم وفي ذلك دلالة على أن الطاعات كلها دين وإيمان وإسلام، ومعنى ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ أي بإكمال الشرائع والأحكام وإظهار دين الإسلام كما وعدتكم، وكان قد وعدهم سبحانه دخول مكة آمنين مطمئنين وغير ذلك مما انتظمته هذه الملة الحنيفية إلى دخول الجنة في رحمة الله تعالى، والدين عبارة عن الشرائع والشعائر، وهو شامل للأخلاق كما أوضحنا، وإكمال الدين هو من أعظم نعم الله تعالى علينا وعلى

الخلق، ويدخل في ذلك مناهج التربية والسلوك وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ (سورة آل عمران: ٧٩)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره**»، والربانية أو الصبغة الإلهية هي هذه الهداية الإلهية التي نحتاجها في كل ناحية من نواحي الحياة، ومع كل نفس من أنفسنا، في العقيدة والشريعة والأخلاق والحكم، وهي تؤخذ من الإسلام وحده، ولا يصح خلطها بالفلسفة ولا يمكن الحصول عليها من أديان منحرفة أو مبادىء ضالة ﴿ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ (سورة الأنعام: ٧١)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِينًا ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٦).

فليس لنا أن نختار مع الله أو مع رسول الله ﷺ، ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم، حكى الشافعي إجماع الصحابة فمن بعدهم على أنه من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها (يتركها) لقول أحد من الناس أيًا كان وقال تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (سورة النساء: ٦٥). فلابد من تحكيم أوامر الله ظاهرًا وباطنًا وبحيث لا نجد غضاضة من شرع ربنا وإلا لانتفى الإيمان وقال جلَّ وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (سورة النساء: ٥٩)، والرد إلى الله تعالى رد إلى كتابه الكريم والرد إلى النبي ﷺ رد لسنته الشريفة ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (سورة النجم: ٣-٤)، ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (سورة النحل: ٤٤)، فإذا حدث التنازع وجب علينا رد حكم ما تنازعنا فيه للكتاب والسنة من الأخلاق وغيرها ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (سورة النساء: ٥٩)، وهو مقتضى الإيمان أيضًا وهذا يقودنا إلى ذكر مسائل منهجية وواقعية تتعلق بسمة الربانية.

لا يقال تطرف وهوس ديني لمن تابع الوحي:

ينبغي الحذر من إطلاق المصطلحات المستوردة بصفة عامة، ومن بينها مصطلح التطرف الذي ذاع وشاع في الآونة الأخيرة، والتي أصبحت تستخدم في الصد عن سبيل الله والتنفير من طاعة الله والتخويف من السير في ركب الإيمان، والتخلق بأخلاق المؤمنين، ولذلك امتنع البعض من إطلاق لحيته، وتقصير ثوبه، والتكلم باللغة العربية، والاستنان بسنة رسول الله ﷺ حتى لا يُوصف بوصف التطرف، وفي المقابل اجترأ الفسقة والفجرة على المتدينين، وشاع التبرج والفجور استجابةً لهذه الصيحات.

إن هذا المصطلح الوافد لو جاز إطلاقه فأولى الناس به الذين انحرفوا عن منهج الله فكانوا بين الغلو والجفو والإفراط والتفريط، وإذا قلنا تطرف وهوس ديني... إلى آخر نعوت التنفير لمن التزم بالوحي المنزل فما الذي نقوله لمن قال إن عزيرًا أو المسيح ابن الله!؟ ولمن أنكر وجود الله من الملاحدة والشيوعيين، ماذا نقول لمن جعل من نفسه ندًا وذهب يشرع مع الله؟ وماذا نقول لمن صرف العبادة للسيد البدوي وأبي العباس المرسي؟، ماذا نقول لمن حياته في الخمَّارة وفي الرقص والغناء وسائر فنون الانحلال؟

إن الميزان الذي يجب على البشر أن يحتكموا إليه هو ميزان الكتاب والسنة لا العرف ولا الكثرة، ولا الواقع المنسلخ المتفلت من دين الله﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ (سورة النساء: ٦٥)، احملونا وإياكم على شرع خالق الخلق ومالك الملك أحكم الحاكمين وحينئذ سنستبين من المحق ومن المبطل، من البر ومن الفاجر، فإن أبيتم ذلك فلسان حالنا ينطق﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ**

عمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ (سورة سبأ: ٢٤-٢٦)، وسنردد قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة هود: ١٢١-١٢٣)، لقد عرف البعض التطرف بقوله: توهم احتكار الحقيقة ورفض الاختلاف والتعددية واستخدام الألفاظ الغليظة كالخيانة والكفر والفسوق، وقالوا: هو عبارة عن فكر ضيق يجعل صاحبه لا يرضى عن أي فرد إلا إذا شاركه في عقيدته، والتطرف كما عبروا يدفع إلى القيام بأعمال لا تعتمد على العقل وإنما تعتمد على العاطفة، وإلى هؤلاء جميعًا نقول: اتقوا الله وكفاكم انبهارًا بالنظم الغربية، عودوا إلى إسلامكم واحتكموا إليه، فما الحق إلا واحد كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ والخلاف منه ما هو سائغ معتبر لا يفسد للود قضية كخلاف أهل الإسلام في قصر الصلاة مثلاً، خلاف غير معتبر وغير سائغ كالخلاف مع أهل الملل والنحل والفلسفات المارقة والأفكار المستوردة كالديموقراطية مثلاً، كان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: نعم من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة خلافًا لا يعذر فيه فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع، فحرية الرأي والفكر والتعبير والحرية الشخصية وحرية التملك عند الديموقراطيين تنطوي على مخالفات كثيرة لا يقبلها دين الله، وتكفير المخالف يتطلب إقامة الحجة الرسالية على يد عالم أو ذي سلطان مطاع بحيث تنتفي الشبهات وتدرأ المعاذير ويحي من حيى عن بينة ويهلك من هلك أيضًا عن بينة، وعلى كل حال ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه، والنصيحة والأمر بالمعروف يكون بالواجب والمستحب، والنهي عن المنكر يشمل المحرمات والمكروهات، ولا يسعنا إلا أن نحب من أطاع الله ونواليه على ذلك، ونبغض من كفر بالله وحسن طريق المعاصي والفجور لخلق الله ونعاديه على ذلك، ثم الهفوات التي تبدر ممن يحرص على الاستقامة إما أن نعالجها بروح الأبوة الحانية أو الأخوة الشفوقة، ونعين صاحبها على طاعة الله، وإما أن نقف على منصة

القضـاء العادل الذي يحكم بما أنزل الله ولا ندين إلا ببينة أوضح من شـمس النهار، ولنعلم أن الخطأ مرفوض، والباطل مردود على صاحبه كائنًا من كان، وفي هذه الحالة فليس لنا أن نشهر أو أن نعمم التهمة على كل من سلك طريق الله واستقام على شرع الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ (سورة النور: ١٩).

٢ ـ ابن بيئته أم أسير الوحي المنزل؟

طباع وأخلاق أهل المشرق تفتـرق عن طباع وأخلاق أهل المغرب، وقد يكون في البعض حـدة وشدة فيقـولون عنه هو ابن بيئتـه، كما وصفـوا ابن حزم الأندلسي في تعامله مع العلمـاء، وهذا الأمر لا يقبل على إطلاقـه وحتى وإن كان واقعًـا؛ فالقلم مرفوع عن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حـتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وليس من الأعذار التـعلل بالنشأة والبـيئة، فـالعرف والعادة والبـيئة لا تصلح مـيزانًا ومقيـاسًا ومبررًا لأخـلاق الإنسان، بل لابد من ضبطها بكتـاب الله وبسنة رسول الله ﷺ والقول بأن الإنسان ابن بيئته، يقترب من الفلسفة اليونانية ونسبية الأخلاق عند العرب والتي أرجعوها إلى العادات والتقاليد، لقد كانت الآيات تتنزل على رسول الله ﷺ تعلم الأمة في شـخصه الكريم ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة الأنعام: ١٥)، ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ (سورة سبأ: ٥٠)، وكل إنسان يؤخـذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وقـال الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ «ما منا إلا ورُدَّ عليـه»، وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «إذا رأيتم قولي يخـالف قول رسول الله ﷺ فـخذوا بقول رسـول الله ﷺ واضربوا بقولي عُرض الحـائط»، والحذر كل الحذر من التبريرات الساقطة والتـأويلات الفاسدة التي لا تصلح عذرًا للعبد بين يدي الله تعالى وقديمًا قالوا: ما عُصي الله إلا بالتأويل.

٣ ـ لماذا لا نستطيع إدانة الآخرين؟!

يقول سير توماس براون: «لا يوجد إنسان واحد يستطيع أن يدين الآخر لأنه في الحقيقة لا يوجد إنسان واحد يعرف الآخر» اهـ. هذه الكلمات الفلسفية وأشباهها كثير لاقت رواجًا وقبولاً في الآونة الأخيرة وصار من جملة المسَلَّمَات عند الكثيرين أنك لا تستطيع الحكم على أحد!!! وهذه المقولة الشائعة ذائعة الصيت، لابد من عرضها على سمة الربانية، وعلى الميزان والمقياس الذي نؤمن به، فنحن نقبل من الناس علانيتهم ونكل (ونترك) سريرتهم إلى الله أي لنا الظاهر والله يتولى السرائر، ونحسن الظن بالمسلمين ونسيء الظن بأنفسنا وهذا معتقد أهل السنة والجماعة، والمؤمن يتلمس للناس المعاذير، أما المنافق فهو الذي يتلمس للناس الزلات، وفي قصة ذي الخويصرة لما قال الصحابي: دعني اضرب عنق هذا الرجل، قال له ﷺ: **«ربما يكون يصلي»**، ردَّ عليه الصحابي: رب مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فقال له النبي ﷺ: **«إني لم أؤمر أن أشق عن الصدور، ولا أن أنقب عن القلوب»**، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: **«أيها الناس إن الوحي قد انقطع فمن أظهر لنا خيرًا أمنّاه وقربناه ليس لنا في سريرته الله يتولاه في سريرته، ومن أظهر لنا شرًا لم نؤمنه ولم نقربه وإن قال إن نيته حسنة»**، ومما رُوي عن المسيح عليه السلام أنه قال: **«لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن القلب القاسي بعيد عن الله، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ولكن انظروا فيها كأنكم عبيد، فإن الناس رجلان مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية»**.

ونحن وإن كنا بشرًا نجهل أكثر مما نعلم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة:٢١٦)، فقد أعلمنا سبحانه أن العباد منهم البر والفاجر، والمطيع والعاصي، وبين لنا الأخلاق الطيبة حتى نتحلى بها، والأخلاق السيئة حتى نجتنبها، وشرع لنا الحدود

كحد السرقة والزنا والخمر والقذف، ونصب الموازين وجعل الجنة والنار وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (سورة القلم: ٣٥-٣٦)، وقسَّم العباد إلى مؤمن وكافر ومنافق، والمنافق أخطر من الكافر وهو الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر وقال سبحانه فيهم: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ (سورة محمد: ٣٠)، فما أسر عبد سريرة إلا وأظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وكان النبي ﷺ قد استودع أسماء المنافقين عند حذيفة رضي الله عنه، فكان عمر رضي الله عنه يقول له: «**ناشدتك الله يا حذيفة أسماني لك رسول الله ﷺ؟** (أي من المنافقين)»، فيقول له حذيفة: «**لا، ولا أزكي بعدك أحدًا**».

فلماذا إذًا لا نستطيع إدانة الآخرين؟ وإذا كان أصحاب الأعراف والعادات والتقاليد يُخَطِّئونَ ويُصَوِبُون فكيف يكون الحال مع أصحاب المنهج الرباني، وإذا كانت الحكومات تعلق المشانق لمن خرج عن دستورها، فهلا نستطيع إدانة من خالف الكتاب والسنة؟! نعم قد يقال: الوقت وقت غربة وجهالة، والناس جهلوا السنن وغابت عندهم معالم الشريعة الغراء، ولابد من الرفق بالخلق، والتفريق بين الحكم والفتوى وأن الفتوى تقدر زمانًا ومكانًا وشخصًا، كل ذلك صحيح وهو لا يتعارض مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وإن الحق ما وافق الكتاب والسنة حتى وإن عملت به القلة، والباطل ما خالف دين الله حتى وإن عملت به الكثرة ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (سورة الأنعام: ١١٦)، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يوسف: ١٠١)، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (سورة يوسف: ١٠٦)، فلا داعي بالإنبهار بالفلسفة، ولا يصح أن تردد كالببغاوات، حتى لا يكون الإنسان أشبه بحاطب بليل فقد يحمل حية تلدغه.

٤ - لا يجوز خلط الشريعة بغيرها ولا التقاء في منتصف الطريق

الفارق بين المنهج الرباني، والمناهج الوضعية والفلسفية كالفارق بين السماء والأرض، فالمخلوق الذي لا يدري من خلقه، ولماذا خلقه، وإلى أين المصير، لا يصلح أن يضع لنفسه فضلاً عن أن يضع المناهج الخلقية وغيرها للبشر ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾ (سورة الشورى: ٢١)، وإذا كان الخلق خلقه والعبد عبده فالأمر أيضًا أمره، والحلال ما أحل والحرام ما حرم، والدين ما شرع ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ (سورة الملك: ١٤).

لقد دخل البعض في بحار الفلسفة وأراد مزجها بدين الله وهذا مبدأ مرفوض مردود على صاحبه كأحمد بن مسكويه، ومن جرى في إثره كالكندي والفارابي وإخوان الصفا وابن سينا وابن باجه وابن طفيل وابن عربي، اللذين أقاموا مذاهبهم في الأخلاق على أساس من الفلسفة التي ثقفوها عن اليونان معلنين ذلك غير مستخفين، فمسكويه مثلاً يصف أفلاطون بأنه ذلك الحكيم المحسن إلينا المنعم علينا، فهل يجوز بعد ذلك أن يقال عن تهذيب الأخلاق لمسكويه: أنه المرجع الوحيد للأخلاق عند العرب؟!!، وقد صرح الكندي بأنه أخذ نظرية النفس عن أرسطو وأفلاطون وسائر الفلاسفة، والفارابي كما يقول دي بور: يوافق أفلاطون تارة وأرسطو تارة أخرى وقد يتجاوز أراءهما أحيانًا نازعًا منزع التصوف والزهد، ولذلك وصف شيخ الإسلام ابن تيمية الفارابي وتلامذته بأنهم (فراخ اليونان) وذلك لأن معظم جهود الفارابي كانت متجهة إلى تجديد بحوث الفلسفة اليونانية، وقد وصف إخوان الصفا الإنسان الكامل الخلق بأنه: (فارسي النسب، عربي الدين، عراقي الآداب، عبراني المخبر، مسيحي المنهج)، وعلى الرغم من هذا الشذوذ وهذه المناقص

والمتناقضات اعتبرهم المستشرق كارادي فو (من أهم الأخلاقيين العرب)، ويقال أن ابن رشد لخص كتاب الأخلاق لأرسطو وألف الرازي (السيرة الفلسفية)، وأبرز أهل التصوف هو الغزالي ولم تخل جهوده من شوائب الفلسفة والاعتماد على نظريات أفلاطون وأرسطو، ولذلك وصفه ابن تيمية بأنه «برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة، ففيه فلسفة مشوبة بإسلام، وإسلام مشوب بفلسفة».

وهذه اللوثة قد انتقلت إلى كثير من المعاصرين، ومن عجيب الأمر أن يتخذ الدكتور محمد بيصار من (تهذيب الأخلاق) لمسكويه مصدرًا أساسيًا لبعض فصول كتابه (العقيدة والأخلاق)، وعلى الرغم من جزمه بأنه ترديد لنظريات أفلاطون وأرسطو لقد أخطأ من خلط الأخلاق الإسلامية بالفلسفة اليونانية، فأخلاقنا ليست كأخلاقهم، نعم الحكمة ضالة المؤمن، والحق مقبول من كل من جاء به حتى وإن أتى من ملحد زنديق، والعلوم الدنيوية تؤخذ من كل من أفلح فيها كالزراعة والهندسة والطب، أما علوم الهداية فلا تؤخذ إلا من الكتاب والسنة، وما يقال عن التأثر الضار بالفسلفة يقال مثله عن التلفيق الممقوت مع الأديان المحرفة المبدلة، فالمسيحية وهي في الأصل عقيدة توحيد أصبحت عبارة عن التثليث وتجسيد تناقض الدين الذي بعث به عيسى عليه السلام، وفي هذا يقول ج. سال: «إن المسيحيين انتهوا إلى طرد المسيحية ذاتها من الوجود، وإن ما قابله محمد واتباعه في كل اتجاه لم يكن إلا خرافات منفرة ووثنية منحطة ومخجلة...»، ولم يكن حظ دين الله عند العرب قبل الإسلام أوفر منه لدى اليهود والنصارى، فعند مجيء الإسلام كانت شرائع الله التي عرفوها إما مبدلة وإما منسوخة، وكان بعضها مجهولاً وبعضها متروكًا، كما يقول ابن تيمية، فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة والحمد لله الذي جعلنا مسلمين، لقد أكمل الله لنا الدين وأتم علينا النعمة، فلا يجوز أن نخلط الماء بالخمر، ولا أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا.

الأخلاق بين الطبع والتطبع

الناس يتفاوتون فيما يجبلون عليه من الأخلاق كما يتفاوتون فيما يجبلون عليه من قوة الإدراك والذكاء فالأخلاق منها الجبلي الطبعي، ومنها المكتسب، وفي ذلك يقول ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: وكما يكون الخلق طبيعة، فإنه قد يكون كسبًا، بمعنى أن الإنسان كما يكون مطبوعًا على الخلق الحسن الجميل، فإنه أيضًا يمكن أن يتخلق بالأخلاق الحسنة عن طريق الكسب والمرونة.

ولذلك قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس: **«إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم والأناة»**، قال: يا رسول الله، أهمها خلقان تخلقت بهما، أم جبلني الله عليهما؟ قال: **«بل جبلك الله عليهما»**، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله. (رواه أحمد وأبو داود).

فهذا دليل على أن الأخلاق الحميدة الفاضلة تكون طبعًا وتكون تطبعًا، ولكن الطبع ـ بلاشك ـ أحسن من التطبع، لأن الخلق الحسن إذا كان طبيعيًا صار سجية للإنسان وطبيعة له، لا يحتاج في ممارسته إلى التكلف، ولا يحتاج في استدعائه إلى عناء ومشقة ولكن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ومن حرم هذا ـ أي من حرم الخلق عن سبيل الطبع ـ فإنه يمكن أن يناله عن سبيل التطبع، وذلك بالمرونة والممارسة كما سنذكر ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ فيما بعد.

من الأفضل؟

وهنا مسألة وهي: أيهما أفضل؟؟

رجل جُبِلَ على خلق حميد، ورجل يجاهد نفسه على التخلق به فأيهما أعلى منزلة من الآخر؟ ونقول جوابًا على هذه المسألة: إنه لاشك أن الرجل الذي جبل على الخلق الحسن أكمل من حيث تخلقه بذلك، أو من حيث وجود هذا الخلق الحسن فيه، لأنه لا يحتاج إلى عناء ولا إلى مشقة في استدعائه، ولا يفوته في بعض الأماكن والمواطن، إذ أن حسن الخلق فيه سجية وطبع، ففي أي وقت تلقاه تجده حسن الخلق، وفي أي مكان تلقاه تجده حسن الخلق، وعلى أي حال تلقاه تجده حسن الخلق، فهو من هذه الناحية أكمل بلاشك.

وأما الآخر الذي يجاهد نفسه ويروضها على حسن الخلق، فلاشك أنه يؤجر على ذلك من جهة مجاهدة نفسه وهو أفضل من هذه الجهة، لكنه من حيث كمال الخلق أنقص بكثير من الرجل الأول.

فإذا رزق الإنسان الخلقين جميعًا، طبعًا وتطبعًا، كان ذلك أكمل، والأقسام أربعة:

١ ـ من حرم حسن الخلق طبعًا وتطبعًا.

٢ ـ من حرمه طبعًا لا تطبعًا.

٣ ـ من رزقه طبعًا وتطبعًا.

٤ ـ من رزقه طبعًا لا تطبعًا.

ولاشك أن القسم الثالث هو أفضل الأقسام لأنه جمع بين الطبع والتطبع في حسن الخلق.

الافتقار إلى الله عزَّ وجلَّ:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (سورة فاطر: ١٥-١٧).

يخبر تعالى بكمال غناه عن خلقه أنه لا يزيد في غناه طاعة من أطاع ولا ينقصه معصية من عصى، وأنه لم يخلق الخلق لحاجة إليهم وأنه لو شاء لم يخلقهم ولو شاء لذهب بهم وجاء بغيرهم، ويخبر أنهم كلهم فقراء إليه لا غنى لهم عنه في نفس من الأنفاس، وهم يعلمون ذلك من أنفسهم، وأنهم لم يكونوا موجودين حتى أوجدهم، ولا قدرة لهم على شيء من أنفسهم ولا غيرها إلا بما أقدرهم عليه الغنى الحميد الفعال لما يريد.

وقال تعالى فيما رواه عنه رسوله محمد ﷺ: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادي ما زاد ذلك في**

ملكي جناح بعوضة، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (رواه مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه).

وفي رواية الترمذي: «يقول الله عزَّ وجلَّ: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديت فسلوني الهدى أهدكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت فسلوني أرزقكم، وكلكم مذنب إلا من عافيت، فمن علم منكم أني ذو قدرة على المغفرة فاستغفرني غفرت له ولا أبالي، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أشقى قلب عبد من عبادي ما نقص ذلك من ملكي جناح بعوضة، ولو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيد واحد فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من ملكي إلا كما لو أن أحدكم بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه، ذلك بأني جواد واجد ماجد أفعل ما أريد، عطائي كلام وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يد الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أفرأيتم ما أنفق ربكم منذ خلق السموات والأرض؛ فإنه لم يغض ما في يمينه».

وروى أبو داود بإسناد جيد من حديث عائشة رضي الله عنها في الاستسقاء وفيه قول رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغاً إلى حين».

وفي بعض الإسرائيليات يقول الله عزَّ وجلَّ: «أيؤمل غيري للشدائد والشدائد بيدي وأنا الحي القيوم، ويرجى غيري ويطرق بابه بالبكرات وبيدي مفاتيح الخزائن

وبابي مفتوح لمن دعاني، من ذا الذي أملني لنائبه فقطعت به، أو من ذا الذي رجاني لعظيم فقطعت به، أو من ذا الذي طرق بابي فلم افتحه له، أنا غاية الآمال فكيف فتنقطع الآمال دوني، أبخيل أنا فيبخلني عبدي أليس الدنيا والآخرة والكرم والفضل كله لي فما يمنع المؤملين أن يؤملوني، لو جمعت أهل السموات والأرض ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع وبلغت كل واحد منهم أمله لم ينقص ذلك من ملكي عضو ذرة، كيف ينقص ملك أنا قيمه، فيا بؤسًا للقانطين من رحمتي، ويا بؤسًا لمن عصاني وتوثب على محارمي».

جوامع من أدعية النبي ﷺ وتعوذاته لا غنى للمرء عنها:

قالت عائشة: **«كان النبي ﷺ يحب الجوامع من الدعاء ويدع ما بين ذلك»**.

وفي المسند وسنن النسائي وغيرهما: أن سعدًا سمع أبنًا له يقول: اللهم إني أسألك الجنة وغرفها، وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار وأغلالها وسلاسلها، فقال سعد رضي الله عنه: لقد سألت الله خيرًا كثيرًا وتعوذت به من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«سيكون قوم يعتدون في الدعاء»**، وبحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم».

وفي مسند الإمام أحمد وسنن النسائي عن ابن عباس قال: كان من دعاء النبي ﷺ: **«رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكارًا، لك ذكارًا لك رهابًا لك مخبتًا إليك أواهًا منيبًا، رب تقبل توبتي واغسل حوبتي** - بفتح الحاء وتضم أي إثمي -، **وأجب دعوتي وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي»** (هذا حديث صحيح، وراه الترمذي وحسنه وصححه).

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك قال: كنت أخدم النبي ﷺ فكنت أسمعه يكثر أن يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضَلَع الدَّين، وغلبة الرجال**» (الضلع: ـ بفتح الضاد واللام ـ الثقل، والدين: بفتح الدال).

وفي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، زكها أنت خير من زكاها، إنك وليها ومولاها اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ونفس لا تشبع، وعلم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها**»

وفي صحيح مسلم: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**»

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم**»، فقال قائل: ما أكثر ما نستعيذ به من المغرم؟ قال: «**إن الرجل إذا غرم فكذب، ووعد فأخلف**»

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك، ومن فجاءة نقمتك، ومن جميع سخطك**»

وفي الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر ما أسأل؟ قال قولي: «**اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني**» (قال الترمذي: صحيح).

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي بكر الصديق عن النبي ﷺ أنه قال: «**عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار، وسلوا الله المعافاة فإنه لم يؤت رجل بعد اليقين خيراً من المعافاة**»

وفي صحيح الحاكم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**ما سئل الله عزَّوجلَّ شيئًا أحب إليه من أن يسأل العافية**».

وذكر الفريابي في كتاب الذكر من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أي الدعاء أفضل؟ قال: «**تسأل الله العفو والعافية؛ فإذا أعطيت فقد أفلحت**».

وفي الدعوات للبيهقي عن معاذ بن جبل قال: مر رسول الله ﷺ برجل يقول: اللهم إني أسألك الصبر قال: «**سألت الله البلاء فسل العافية**»... ومر برجل يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال: «**وما تمام النعمة؟**» قال: سألت وأنا أرجو الخير، قال له: «**تمام النعمة الفوز من النار ودخول الجنة**».

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلم من أسلم أن يقول: «**اللهم اهدني وارزقني وعافني وارحمني**».

وفي المسند عن بشر بن ارطاه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة**»

وفي المسند وصحيح الحاكم عن ربيعة بن عامر عن النبي ﷺ: «**أَلِظُّوا بيا ذا الجلالِ والإكرام**» أي: الزموها وداوموا عليها.

وفي صحيح الحاكم أيضًا عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لهم: «**أتحبون أيها الناس أن تجتهدوا في الدعاء؟**»، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «**قولوا: اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

وفي الترمذي وغيره: أن النبي ﷺ في حلقة ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد تشهد ودعا، فقال في دعائه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت بديع**

السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»، فقال النبي ﷺ: «لقد سأل الله باسمه العظيم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى».

وفي المسند وصحيح الحاكم أيضًا عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا شداد، إذا رأيت الناس يكنزون الذهب والفضة فاكنز هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، واستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب».

وفي الترمذي أن حصين بن المنذر الخزامي رضي الله عنه قال له النبي ﷺ: «كم تعبد إلهًا؟»، قال: سبعة؛ ستة في الأرض وواحد في السماء، قال: «فأيُّهم تعد لرغبتك ورهبتك؟» قال: الذي في السماء، قال: «أما لو أسلمت لعلمتك كلمتين تنفعانك»، قال: فلما أسلم حصين، قال: يا رسول الله علمني الكلمتين، قال: «قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني شر نفسي» (حديث صحيح)، وزاد الحاكم في صحيحه: «اللهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد أمري، اللهم اغفر لي ما أسررت وما أعلنت، وما أخطأت وما تعمدت، ما علمت وما جهلت» (وإسناده على شرط الصحيحين).

وفي صحيح الحاكم عن عائشة قال: دخل عليَّ أبو بكر رضي الله عنهما فقال: هل سمعت من رسول الله ﷺ دعاء علَّمنيه؟ قلت: ما هو؟ قال: كان عيسى بن مريم يعلمه أصحابه قال: لو كان على أحدكم جبل ذهب دينًا فدعا الله بذلك لقضاه الله عنه: «اللهم فارج الهم، كاشف الغم، مجيب دعوة المضطرين، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، أنت ترحمني فارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك».

وفي صحيحه أيضًا عن أم سلمة عن النبي ﷺ هذا ما سأل محمد ربه: «اللهم إني أسألك خير المسألة، وخير الدعاء، وخير النجاح، وخير العمل، وخير الثواب، وخير

الحياة، وخير الممات، وثبتني عند الممات، وثقل موازيني، وحقق إيماني، وارفع درجتي، وتقبل الخير وخواتمه وأوله وآخره وظاهره وباطنه، والدرجات العلى من الجنة آمين، اللهم إني أسألك أن ترفع ذكري، وتضع وزري وتصلح أمري وتطهر قلبي وتحصن فرجي وتنور لي قلبي وتغفر لي ذنبي، وأسألك أن تبارك لي في نفسي وفي سمعي، وفي بصري وفي روحي، وفي خلقي وفي أهلي، وفي محياي وفي مماتي، وفي عملي، وتقبل حسناتي، وأسألك الدرجات العلى من الجنة آمين».

وفي صحيحه أيضًا من حديث معاذ قال: أبطأ عنا رسول الله ﷺ بصلاة الفجر حتى كانت أن تدركنا الشمس، ثم خرج فصلى بنا فخفف، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «على مكانكم ما بطأني عنكم اليوم، إني صليت في ليلتي هذه ما شاء الله ثم ملكتني عيني فنمت فرأيت ربي تبارك وتعالى فألهمني أن قلت: اللهم إني أسألك الطيبات، وفعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تتوب عليَّ وتغفر لي وترحمني، وإذا أردت في خلقك فتنةً فتجني إليك منها غير مفتون، اللهم وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يبلغني إلى حبك»، ثم أقبل رسول الله ﷺ فقال: «تعلموهن وادرسوهن فإنهن حق» (ورواه الترمذي والطبراني وابن خزيمة وغيرهم بألفاظ أخر).

وفي صحيح الحاكم أيضًا عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يدعو: «اللهم متعني بما رزقتني وبارك لي فيه، واخلف لي على كل غائبة لي بخير»، وفيه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني، وارزقني علمًا ينفعني»، وفيه أيضًا عن عائشة أن رسول الله ﷺ أمرها أن تدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لا أعلم، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار ما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك من خير ما سألك عبدك ورسولك محمد وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدًا».

وفيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أوصى سلمان الخير، فقال له: «إني أريد أن أمنحك كلمات تسألهن الرحمن وترغب إليه فيهن وتدعو بهن في الليل والنهار، قل: اللهم إني أسألك صحة في إيمان، وإيمان في حسن خلق، ونجاحًا يتبعه صلاح، ورحمة منك وعافية ومغفرة منك ورضوانًا».

وفيه عن أم سلمة عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهؤلاء الدعوات: «اللهم أنت الأول لا شيء قبلك، وأنت الآخر لا شيء بعدك، أعوذ بك من شر كل دابة ناصيتها بيدك، وأعوذ بك من الإثم والكسل، ومن عذاب القبر، ومن فتنة الغنى ومن فتنة الفقر، وأعوذ بك من المأثم والمغرم، اللهم نق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، اللهم بعِّد بيني وبين خطيئتي كما بعَّدت بين المشرق والمغرب».

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح الحاكم أيضًا عن عمار بن ياسر رضي الله عنه صلى صلاة أَوْجَزَ فيها، فقيل له في ذلك، قال: لقد دعوت الله فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله ﷺ: «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، واللهم أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين»

وفي صحيح الحاكم أيضًا عن ابن مسعود قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار».

وفيه أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «**اللهم احفظني بالإسلام قائمًا، واحفظني بالإسلام قاعدًا، واحفظني بالإسلام راقدًا، ولا تشمت بي عدوًا حاسدًا، اللهم إني أسألك من خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من شر خزائنه بيدك**».

وعن النواس بن سمعان سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه**».

وكان رسول الله ﷺ يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، والميزان بيد الرحمن عزَّ وجلَّ يرفع أقوامًا ويخفض آخرين إلى يوم القيامة**» (حديث صحيح رواه الإمام أحمد والحاكم في صحيحه).

وفي صحيح الحاكم أيضًا عن ابن عمر أنه لم يكن يجلس مجلسًا كان عنده أحد أو لم يكن إلا قال: «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وأعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، اللهم ارزقني من طاعتك ما تحول به بيني وبين معصيتك، وارزقني من خشيتك ما تبلغني به رحمتك، وارزقني من اليقين ما تهون به عليَّ مصائب الدنيا، وبارك لي في سمعي وبصري وأجعلها الوارث مني، اللهم اجعل ثأري على من ظلمني، وانصرني على من عاداني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولامبلغ علمي، اللهم لا تسلط عليَّ من لا يرحمني**»؛ فسئل عنهن ابن عمر، فقال: «**كان رسول الله ﷺ يختم بهن مجلسه**».

الأصالة والمعاصرة

الأصالة والمعاصرة من الكلمات التي كثر الحديث عنها والدعوة إليها في العصر الحاضر، وما من شيء أخطر على الدعوة من أن تلتبس سماتها الأساسية أو يلابس خصائصها غموض أو اضطراب، ويقصد **بالأصالة**: «المحافظة على جوهر الدعوة باستنادها إلى الأصول والأدلة الشرعية والتمسك بمبادئها الأساسية».

والمعاصرة هي: «تكافؤ الدعوة مع العصر الذي تعيش فيه بحيث تعالج واقعه وتلبي متطلباته»، ومن هذا التعريف يتضح أن وصف الدعوة بالأصالة وصف صالح لكل زمان ومكان، ووصف الدعوة بالمعاصرة أيضًا صالح لكل زمان ومكان، وليس وصفًا خاصًا بالعصر الحديث كما قد يتوهم، فدعوة الناس بلسانهم ولغتهم معاصرة، واختيار الأسلوب الدعوي المناسب لموقف من المواقف معاصرة، واستخدام الوسائل المتوفرة في عصر من العصور لنشر الدعوة معاصرة، وسيرته ﷺ في تمسكه بأصالة دعوته لا يحيد عنها، ولا يقبل مساومة فيها وفي ذات الوقت معالجته واقع عصره، وتخيره الأساليب النافعة لدعوته، واستخدام جميع أنواع الوسائل المشروعة المتوفرة في عصره غير زاهد بشيء منها أمر لا يخفى على من أطلع على سنته ﷺ، وقد سار الصحابة والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم على نهجه كما في جمع أبي بكر الصديق رضي الله عنه للقرآن، يقول الحافظ ابن حجر: وليس ذلك من الزيادة على احتياط الرسول ﷺ، بل هو مستمد من القواعد التي مهدها الرسول ﷺ، وكذلك موقفهم رضي الله عنهم من انفاذ جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه بعد موت رسول الله ﷺ وهو موقف تتجلى لنا دقة الموازنة فيه بين الأصالة والمعاصرة فما أشار الصحابة رضي الله عنهم، وفيهم عمر بن الخطاب

بعدم إنفاذه إلا خوفًا منهم على مصلحة الدعوة ورأيًا منهم بأن الظروف قد تغيرت، والمصلحة تقتضي بقاء هذا الجيش العظيم في عاصمة الدولة وحول الخليفة، وقد هددها ما هددها من عدو ماكر لدود ولم يجدوا في ذلك معارضة لأمر رسول الله ﷺ في إنفاذ الجيش وإنما هي مصلحة قد طرأت، وظروف قد تغيرت يمكنها أن تقيد ذلك الأمر. وما أَبَى أبو بكر رضي الله عنه ـ وهو الإمام ـ ذلك الإباء الشديد وحزم ذلك الحزم إلا وهو يرى المصلحة في إنفاذ ذلك الجيش، وأنه أمر منه ﷺ يلزمه ويلزم المسلمين وقال قولته المشهورة: «**والذي لا إله غيره، لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ﷺ، ما رددت جيشًا وجهه رسول الله ﷺ ولا حللت لواء عقده رسول الله ﷺ**»، وكان الخير والصواب في تصرف أبي بكر رضي الله عنه.

ضوابط الأصالة والمعاصرة

لابد من التعرف على ضوابط الكلمتين حتى لا يساء فهمهما فتصاب الدعوة بالجمود أو تقع في التنازلات والتجاوزات، فليست الأصالة تحجرًا في العقول، وليست المعاصرة أيضًا ميوعة في المواقف ولا ذوبانًا في الشخصية وليست الغاية من الدعوة إرضاء الناس وتحقيق رغباتهم، وإنما هي هدايتهم ودلالتهم على الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (سورة البقرة: ١٢٠).

ومن أهم هذه الضوابط:

١ ـ المحافظة على الأصول الشرعية محافظة تامة، والتمسك بالسنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين والعض عليها بالنواجذ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ

فَانتَهُوا﴾ (سورة الحشر:٧)، وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: **«أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»** (رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح)، والاتباع والتأسي بسنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين رضي الله عنهم، يشمل أقوالهم وأفعالهم، كما يشمل سيرتهم العملية ومناهجهم التطبيقية، والاتباع في المناهج والأساليب مقدم في الأهمية على الاتباع في الأقوال والأحكام.

٢ - اجتناب البدع اجتنابًا كاملاً، والحذر منها كل الحذر: ففي الحديث: **«وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»** (متفق عليه)، وفي الحديث أيضًا: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»** (متفق عليه)، ولابد هنا من حمل الأحاديث المطلقة على المقيدة وذلك ليصح فهمها، والعمل بالمنطوق والمفهوم خير من العمل بأحدهما، كما في جمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس في صلاة التراويح ثم قوله بعد ذلك: **«نعم البدعة هذه»**، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم، وأخرج البيهقي عن الشافعي أنه قال: المحدثات ضربان: ما أحدث يخالف كتابًا، أو سنة، أو أثرًا، أو إجماعًا، فهذا بدعة الضلال وما أحدث من الخير لا يخالف شيئًا من ذلك، فهذه محدثة غير مذمومة.

٣ - التمييز بين المناهج الدعوية الثابتة وبين الأساليب والوسائل المتطورة: فمن المناهج ما هو رباني ثابت لا يجوز أن يطرأ عليه تحويل أو تغيير، قال تعالى: **﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾** (سورة فاطر:٤٣)، ومنها ما هو بشري متطور،

يضعه الدعاة بما يتناسب مع المدعوين، مجتهدين في ذلك مقتبسين له من منهج الله تعالى، وهذا النوع من المناهج يتطور بحسب المدعوين، وتبعًا لظروفهم وأحوالهم ومستوياتهم، وإذا كان الأصل في المناهج الربانية الثبوت والاستمرار وعدم التحول، فإن الأصل في الأساليب والوسائل والمناهج البشرية التطور والتحول إلى ما يناسب كل عصر بيئة.

٤ - المحافظة على شرعية المناهج والأساليب والوسائل، وتجنب مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»: فعلى المسلم أن يتجنب الحرام، ولو توهم أن فعله قد يوصله إلى خير، كما عليه أن يفعل الواجب، وإن توهم أن تركه يدفع عنه شرًا، فإن الشر لا يأتي إلا بشر، وفي الحديث: **«تحروا الصدق، وإن رأيتم أن الهلكة فيه فإن فيه النجاة»**، وفي رواية أخرى بزيادة: **«واجتنبوا الكذب، وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة»**، ولا يتعارض هذا مع ما ورد من ترخيص بالكذب في بعض المواطن ـ كاستثناء من حكم عام ـ كما في الحديث: **«ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرًا أو يقول خيرًا»** (متفق عليه)، وفي رواية لمسلم بزيادة: قالت أم كلثوم: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث، تعني الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته حديث المرأة زوجها.

٥ - مراعاة الاختلاف في الأحكام الشرعية: فلا ينزل الأمر المختلف فيه، منزله الأمر المتفق عليه، يقول سفيان الثوري: إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختلف فيه، وأنت ترى غيره، فلا تنهه، ويقول: ما اختلف فيه الفقهاء فلا أنهى أحدًا من إخواني أن يأخذ به وقديمًا قالوا: وما كل خلاف جاء معتبرًا، وعلى الإنسان أن يفرق بين الأحكام الشرعية القطعية التي لا يختلف فيها، وبين الأحكام الاجتهادية المختلف فيها، فيعمل بما ترجح لديه فيها ـ إن كان أهلاً للترجيح ـ ثم السلامة والحيطة لا

يعدلها شيء، يقول ابن تيمية: . . . نعم من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة خلافًا لا يعذر فيه فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع.

٦ ـ البعد عن الغلو والتشدد، وتجنب التقصير والتساهل والتوسط والاعتدال في التمسك بالدين: وفي الحديث: «**هلك المتنطعون، قالها ثلاثًا**» (رواه مسلم)، قال النووي: «المتنطعون المتعمقون المتشددون في غير موضع التشديد»، وفي الحديث أيضًا: «**إن الدين يسر فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**» (رواه البخاري)، قال ابن المنير: في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منه طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه: «**يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين؛ فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**».

٧ ـ الرجوع في حكم المسائل المستجدة، وتحقيق التوازن بين الأصالة والمعاصرة إلى أهل العلم والاختصاص: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (سورة النحل:١١٦)، وفي الحديث: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**» (متفق عليه).

وبعد هذا العرض السريع نذكر أنفسنا والمسلمين جميعًا بأن الأصل في العبادات التوقيف ـ أي أنها تؤخذ دون زيادة ودون نقصان ـ ومن سمات هذه الدعوة التطور لا الرجوع إلى الوراء ولكن هذا فيما يقبل التطور والتحضر والتقدم، والمعاملات عمومًا الأصل فيها الإباحة إذا روعيت ضوابطها الكلية وطالما أنها لم تصطدم بنصوص الشريعة، وأن الخير كله في الاتباع لا في الابتداع ثم الحكم على الأمور بحق أو

باطل، وحسن أو قبيح لا يعتبر فيه القدم لذاته ولا الحداثة لذاتها وإنما هو في موافقة الحق، والتمسك بالأصول من جهة وفي مراعاة الظروف والأحوال، وتغير الأزمنة والأمكنة في ضوء تلك الأصول من جهة أخرى، ولا يجوز إنزال بعض الدعاة لأقوال وسلوك أصحاب دعوتهم، ومؤسس جماعتهم ورؤساء تنظيماتهم منزلة الأصول الثابتة والحجة القاطعة على الرغم من ثبوت خطئها أحيانًا أو ظهور عدم صلاحيتها في حال من الأحوال أو ظرف من الظروف، ولا يجور أن نركن إلى أصحاب المنكرات فليست هذه معاصرة، كما لا يصلح أن نعتزل ونهجر العصاة في مثل ظروفنا هذه فليست هذه أصالة وما شرع الهجر إلا لجلب مصلحة ولدفع مفسدة وهو أسلوب للعلاج لا للبتر ولا للإهلاك، وما نفع الهجر في الماضي إلا يوم أن غلب على المجتمعات الصلاح، وقد كان من مذهب عمر وأبي الدرداء وإبراهيم النخعي أنك لا تهجر أخاك عند المعصية؛ فإن الأخ يعوج مرة ويستقيم أخرى وفي الحديث: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» (رواه أحمد والترمذي).

وعلى الدعاة ألا يكتفوا بالوسائل المتوارثة ويهملوا وسائل حديثة متطورة تمكنهم من الوصول لأهدافهم وتعينهم على تحقيق غاياتهم فكلما وجد الداعية وسيلة شرعية أجدى وسبيلاً أقصر كان لزامًا عليه أن يستفيد منها وأن يستخدمها في سبيل الوصول إلى هدفه، والكل مطالب أن ينتبه للأخطاء التي تحدث باسم الأصالة والمعاصرة فكم من شباب الدعوة اليوم من لا يتميز سلوكه عن سلوك عامة الناس فيقع في المحرمات والمخالفات في طريق الدعوة متوهمًا أنه يحقق بذلك نوعًا من المعاصرة اللازمة كحالة من يصافح النساء، أو يحلق لحيته، أو يتساهل في حجاب زوجته أو بنته، أو يألف أنغام الموسيقى المحرمة، وفي الوقت ذاته كم من شباب الدعوة من يصاب بنوع من

التحجر والجمود فيتشدد في أمورٍ فينفر الناس من حوله، متوهمًا أنه يحقق نوعًا من الأصالة المطلوبة وهو يقع في الإفراط والتفريط، ومن هذه الصور: أن يحجر على المرأة في بيتها وتمنع من الخروج والزيارات المباحة مع تأدبها بالآداب الشرعية ومع وجود الحاجة لذلك، أو يمنع من لباس دون لباس مع انطباق المواصفات الشرعية على هذا وذاك وليس هو شعارًا لغير المسلمين ولاسيما إذا دعت إلى استعماله مصلحة زمنية أو حاجة علمية.

ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يهتدون بهدي كتابه ويقتدون بسنة نبيه ﷺ ومن الذين قال في حقهم: ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** ﴾ (سورة الأحزاب: ٢٣).

كمال الشريعة الإسلامية من ناحية الأخلاق

التزام الأخلاق الإسلامية تتحقق به المصالح في العاجل والآجل، بل كل خلق فاضل لا يسعنا التخلي عنه على مستوى الفرد والدولة، فالبعد عن هذه الأخلاق هلكه ومضره ومفسده تلحق بالبلاد والعباد.

قال ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ والنبي ﷺ أخبر أن من مقاصد بعثته تمام محاسن الأخلاق، فقال عنه ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» (رواه أحمد وغيره، وصححه الألباني).

فالشرائع السابقة التي شرعها الله لعباده كلها تحث على الأخلاق الفاضلة، ولهذا ذكر أهل العلم أن الأخلاق الفاضلة مما أطبقت الشرائع على طلبه، ولكن هذه الشريعة الكاملة جاء النبي ﷺ فيها بتمام مكارم الأخلاق ومحاسن الخصال، ولنضرب لذلك مثلاً:

مسألة القصاص:

ذكر أهل العلم في مسألة القصاص، أي لو أن أحداً جنى على أحد فهل يقتص منه أم لا؟، ذكروا أن القصاص في شريعة اليهود حتمي ولابد منه، ولا خيار للمجني عليهم فيه، وأن الأمر في شريعة النصارى بالعكس وهو وجوب العفو، لكن شريعتنا جاءت كاملة من الوجهين، ففيها القصاص وفيها العفو، لأن في أخذ الجاني بجنايته حزمًا وكفًا للشر، وفي العفو عنه إحسانًا وجميلاً وبذل معروف فيمن عفوت عنه، فجاءت شريعتنا والحمد لله مكمله، خيرت من له الحق بين العفو والأخذ، لأجل أن يعفو في مقام العفو، وأن يأخذ في مقام الأخذ.

وهذا بلاشك أفضل من شريعة اليهود التي ضيعت حق المجني عليهم العفو الذي قد يكون فيه مصلحة لهم، وأفضل من شريعة النصارى التي ضيعت حق المجني عليهم أيضًا، فأوجبت عليهم العفو وقد تكون المصلحة في الأخذ وإنزال العقوبة. اهـ.

تحقيقها المصلحة في العاجل والآجل:

الواقع أن الشريعة الإسلامية ما شرعت إلا لتوفيق مصالح العباد في العاجل والآجل، أي في الدنيا والآخرة، ودرء المفاسد والأضرار عنهم في العاجل والآجل أيضًا حتى قال البعض: أن الشريعة كلها مصالح إما درء مفاسد أو جلب مصالح، يقول ابن القيم عن الشريعة: مبناها وأساسها الحكم ومصالح العباد في المعاشرة والعبادة، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه.

وقال الشاطبي في (الموافقات): «فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه»، وقال الشاطبي أيضًا في (الموافقات): «والمعتمد أنا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد استقراءً لا ينازع فيه أحد، فإن الله تعالى يقول في بعثة الرسل وهو الأصل: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (سورة النساء: ١٦٥)، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٧)، وقال في أصل الخلقة: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (سورة هود: ٧)، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦)، ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (سورة الملك: ٢)، وأما

التعاليل لتفاصيل الأحكام في الكتاب والسنة فأكثر من أن تحصى، كقوله بعد آية الوضوء: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (سورة المائدة:٦)، وقال في الصوم: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة:١٨٣)، وفي الصلاة: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (سورة العنكبوت:٤٥)، وفي القبلة: ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ (سورة البقرة:١٥٠)، وفي الجهاد: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ (سورة الحج:٣٩)، وفي القصاص: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (سورة البقرة:١٧٩)، وفي التقرير على التوحيد: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (سورة الأعراف:١٧٢).، والمقصود التنبيه، وإذا الاستقراء على هذا وكان في مثل هذه القضية مفيدًا فنحن نقطع بأن الأمر مستمر في جميع تفاصيل الشريعة». اهـ.

وأما تشريع هذا الدين لما فيه مصالح العباد وما يدرأ عنه الشر والفساد فإنه يرتبط برحمة الله ولا ينفك عنها قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء:١٠٧)، ومن رحمة الله تشريع الرخص عند وجود المشقات في تطبيق الأحكام إذا كانت هذه المشقات فوق طاقة البشر المعتادة، مثل: إباحة النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها بالتهديد بالقتل ونحوه، وإباحة المحرم عند الضرورة مثل أكل الميتة ولحم الخنزير عند التعرض للهلاك جوعًا، وإباحة الفطر في رمضان للمريض والمسافر، ولاشك أن دفع المشقة ضرب من ضروب رعاية المصلحة ودرء المفسدة عن الناس، وقد عرف بالاستقراء والتأمل أن مصالح العباد تتعلق بأمور ضرورية أو حاجية أو تحسينية، فالأولى هي التي لا قيام لحياة الناس بدونها وإذا فاتت حل الفساد وعمت الفوضى، واختل نظام الحياة، وهذه الضروريات هي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، أما الحاجيات فهي التي يحتاجها الناس لتحقيق اليسر ولذلك شرع للدين مثلاً: العبادات، وشرع لحفظه: الجهاد، وعقوبة المرتد، وزجر من يفسد على

الناس عقيدتهم والسعة في عيشهم، وإذا فاتتهم لم يختل نظام الحياة ولكن يصيب الناس ضيق وحرج ولذلك لها الرخص عند المشقة وشرعت الدية في القتل الخطأ على عاقلة القاتل، وأما التحسينات فهي التي ترجع إلى محاسن العادات ومكارم الأخلاق، وإذا فاتت خرجت حياة الناس عن النهج القويم السليم الذي تقضي به الفطر السليمة والعادات الكريمة، ولذلك شرعت: الطهارة للبدن والثوب، وستر العورة، وأخذ الزينة عند كل مسجد، والنهي: عن قتل الأطفال والنساء في الحروب، والنهي عن بيع الإنسان على بيع أخيه.

ونختم هذا الكلام بما ذكره العز بن عبد السلام في كتاب (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) وقد اتجه به إلى أن تشريع الأحكام إنما هو لمصالح البشر حيث قال ـ رحمه الله ـ: «ومن أراد أن يعرف المناسبات والمصالح والمفاسد راجحها ومرجوحها فليعرض ذلك على عقله بتقدير أن الشرع لم يرد به ثم يبني عليه الأحكام فلا يكاد يخرج حكم منها عن ذلك إلا ما تعبد الله به عباده ولم يقفهم على مصلحته أو مفسدته ـ إلى أن قال ـ: وإنما يجلب سبحانه مصالح الحسن ويدرء مفاسد القبيح طولاً منه على عبادة وتفضلاً». اهـ.

ضوابط المصلحة:

استخلص العلماء القواعد التي تحقق المصلحة وتدفع المضرة والمفسدة من عشرات النصوص مثل: «درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة»، «تحصيل أعظم المصلحتين بدفع أدناهما عند المعارضة وعدم إمكان الجمع»، «التزام أخف المفسدين بتفويت أعظمهما في حالة عدم الاستطاعة على دفع كليهما»، «الضرر يزال»، «الضرورات تبيح المحظورات»، «الضرورة تقدر بقدرها»، ولو تأملنا لوجدنا نصوص الشريعة قد أتت على نحو يحقق للعباد المصالح ويستدفع عنهم المضار والمفاسد، فالمصلحة تقتضي منا أن نلتزم بنصوص الكتاب والسنة إذ ترك هذه النصوص هو المفسدة بعينها

ومما يجب التنبيه والحذر منه، هذه التساهلات والتنازلات التي يفعلها البعض في طريق الدعوة باسم مصلحة الدعوة.

وإذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله، فلم يمكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم، فغير المعصومين في حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية، والتحرج البالغ، خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة الرغبة في نصرة الدعوة، والحرص على ما يسمونه «مصلحة الدعوة» فلابد من الدقة واليقظة والحذر، وإلا ضاعت الدعوة الإسلامية بين أبنائها، وتشوهت صورتها بين الناس جمودًا أو انحرافًا، وما ضاع هذا الدين إلا بين الغالي فيه والمقصر... وينبغي أن تعلم أن المصالح المرسلة هي التي لم يرد في الشرع دليل على اعتبارها أو إلغائها وبالتالي فلا يجوز تقديم الآراء أو الاجتهادات على نصوص الشريعة، ونخشى أن ينحرف أصحاب المصالح المتوهمة والمزعومة بالدعوة شيئًا فشيئًا حتى يخرجون بها عن الجادة، ومما يجدر التنبيه عليه أهمية إنزال النصوص منازلها الصحيحة أو عدم العمل بالبعض وإغفال وإهدار البعض الآخر من النصوص المتعلقة بنفس القضية والمسألة، فهذا من شأنه أن يحدث المضرة والمفسدة في حالة الإخلال به، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما يحدث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فلا يجوز للإنسان أن ينكر منكرًا بمنكر أعظم أو أن يثبت المنكر ويستجلب منكرًا آخر بإنكاره، ولا يجور له أن يتلف نفسه في غير مصلحة شرعية أو أن يستلحق المضرة والأذى الشديد بالآخرين من الأهل والأصدقاء والأخوان إذا أنكر المنكر ولا يشفع له في ذلك كله حسن نيته أو اكتفاؤه بمعرفة أن هذا منكر ثم ينكره بأسلوب لا يجيزه الشرع.

مجالات حسن الخلق

إن كثيرًا من الناس يذهب فهمه إلى أن أحسن الخلق خاص بمعاملة الخلق دون معاملة الخالق، ولكن هذا الفهم قاصر. فإن حسن الخلق كما يكون في معاملة الخلق، يكون أيضًا في معاملة الخالق، فموضوع حسن الخلق إذن: معاملة الخالق جلَّ وعلا، ومعاملة الخلق أيضًا، وهذه المسألة ينبغي أن يتنبه لها الجميع.

أولاً ـ حسن الخلق في معاملة الخالق

حسن الخلق في معاملة الخالق يجمع ثلاثة أمور:

١ ـ تلقي أخبار الله بالتصديق.

٢ ـ تلقي أحكامه بالتنفيذ والتطبيق.

٣ ـ تلقي أقداره بالصبر والرضا.

▪ وهذه ثلاثة أشياء عليها مدار حسن الخلق مع الله تعالى:

أولاً ـ تلقي أخباره بالتصديق:

بحيث لا يقع عند الإنسان شك أو تردد في تصديق خبر الله تبارك وتعالى لأن خبر الله تعالى صادر عن علم وهو سبحانه أصدق القائمين، كما قال الله تعالى عن نفسه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (سورة النساء: ٨٧)، ولازم تصديق أخبار الله أن يكون الإنسان واثقًا بها، مدافعًا عنها، مجاهدًا بها وفي سبيلها، بحيث لا يداخله شك أو شبهة في أخبار الله عزَّ وجلَّ وأخبار رسوله ﷺ.

وإذا تخلق العبد بهذا الخلق أمكنه أن يدفع أي شبهة يوردها المغرضون على أخبار الله ورسوله ﷺ سواء أكانوا من المسلمين الذين ابتدعوا في دين الله ما ليس منه، أم كانوا من غير المسلمين، الذين يلقون الشبه في قلوب المسلمين بقصد فتنتهم وإضلاله.

ولنضرب لذلك مثلاً: «حديث الذباب»:

ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم ليطرحه، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء**» (رواه البخاري وغيره).

هذا خبر صادر عن الرسول ﷺ، وهو ﷺ في أمور الغيب لا ينطق عن الهوى، لا ينطق إلا بما أوحى الله تعالى إليه، لأنه بشر والبشر لا يعلم الغيب بل قد قال الله له: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (سورة الأنعام: ٥٠).

هذا الخبر يجب علينا أن نقابله بحسن الخلق، وحسن الخلق نحو هذا الخبر يكون بأن نتلقاه بالقبول والانقياد، فنجزم بأن ما قاله النبي ﷺ في هذا الحديث فهو حق وصدق، وإن اعترض عليه من اعترض، ونعلم علم اليقين: أن كل ما خالف ما صح عن رسول الله ﷺ فإنه باطل، لأن الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ (سورة يونس: ٣٢).

ومثال آخر: «من أخبار يوم القيامة»:

أخبر النبي ﷺ: «**أن الشمس تدنو من الخلائق يوم القيامة بقدر ميل**» (أخرجه مسلم)، وسواء كان هذا الميل ميل المكحلة، أم كان ميل المسافة، فإن هذه المسافة بين

الشمس ورؤوس الخلائق قليلة، ومع هذا فإن الناس لا يحترقون بحرها، مع أن الشمس لو تدنو الآن في الدنيا مقدار أنملة لاحترقت الأرض ومن عليها.

قد يقول قائل: كيف تدنو الشمس من رؤوس الخلائق يوم القيامة بهذه المسافة، ثم يبقى الناس لحظة واحدة دون أن يحترقوا؟!!، نقول لهذا القائل: عليك أن تكون حسن الخلق نحو هذا الحديث.

وحسن الخلق نحو هذا الحديث يكون بأن نقبله ونصدق به، وأن لا يكون في صدورنا حرج منه ولا ضيق ولا تردد، وأن تعلم أن ما أخبر به النبي ﷺ في هذا فهو حق، ولكن هناك فارقًا عظيمًا بين أحوال الناس في الدنيا وأحوالهم في الآخرة، بحيث لا يمكن أن نقيس أحوال الدنيا بأحوال الآخرة، لوجود هذا الفارق العظيم، فنحن نعلم أن الناس يقفون يوم القيامة خمسين ألف سنة!! وعلى مقياس ما في الدنيا، فهل يمكن أن يقف أحد من الناس خمسين ألف ساعة؟، بل هل يمكن أن يقف أحد من الناس خمسين ألف دقيقة؟.

الجواب: لا يمكن ذلك، إذن فالفارق عظيم، فإذا كان كذلك، فإن المؤمن يقبل مثل هذا الخبر بانشراح صدر وطمأنينة، ويتسع فهمه له ويتفتح قلبه لما دل عليه.

ثانيًا ـ تلقي أحكام الله بالتنفيذ والتطبيق:

من حسن الخلق مع الله عزَّ وجلَّ أن يتلقى الإنسان أحكام الله بالقبول والتنفيذ والتطبيق فلا يرد شيئًا من أحكام الله، فإذا رد شيئًا من أحكام الله فهذا سوء خلق مع الله عزَّ وجلَّ سواء ردها منكرًا حكمها، أو ردها مستكبرًا عن العمل بها، أو ردها متهاونًا بالعمل بها، فإن ذلك كله مناف لحسن الخلق مع الله عزَّ وجلَّ.

مثال على ذلك: «الصوم»:

الصوم لاشك أنه شاق على النفوس، لأن الإنسان يترك فيه المألوف، من طعام وشراب ونكاح، وهذا أمر شاق على الإنسان، ولكن المؤمن حسن الخلق مع الله عزَّ وجلَّ، يقبل هذا التكليف أو بعبارة أخرى: يقبل هذا التشريف، فهذه نعمة من الله عزَّ وجلَّ في الحقيقة، فالمؤمن يقبل هذه النعمة التي في صورة تكليف بانشراح صدر وطمأنينة، وتتسع لها نفسه، فتجده يصوم الأيام الطويلة في زمن الحر الشديد، وهو بذلك راض منشرح الصدر، لأنه يحسن الخلق مع ربه، لكن سيء الخلق مع الله يقابل مثل هذه العبادة بالضجر والكراهية، ولولا أنه يخشى من أمر لا تحمد عقباه لكان لا يلتزم بالصيام.

مثال آخر: «الصلاة»:

فالصلاة لاشك أنها ثقيلة على بعض الناس، وهي ثقيلة على المنافقين كما قال النبي ﷺ: «**أثقل الصلاة على المنافقين: صلاة العشاء، وصلاة الفجر**» (رواه البخاري ومسلم).

لكن الصلاة بالنسبة للمؤمن ليست ثقيلة، قال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ (سورة البقرة: ٤٥-٤٦)، فهي على هؤلاء غير كبيرة وإنما سهلة يسيرة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**» (أخرجه النسائي وهو في صحيح الجامع).

فالصلاة هي قرة عين المؤمن، وزاده اليومي الذي يتزود به للقاء الله تعالى، ولذلك فهو يعظم قدرها ويهتم لها أعظم الاهتمام، لأنها عماد الدين، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة.

فحسن الخلق مع الله عزَّ وجلَّ بالنسبة للصلاة أن تؤديها وقلبك منشرح مطمئن، وعينك قريرة، تفرح إذا كنت متلبسًا بها، وتنتظرها إذا فات وقتها، فإذا صليت الظهر، كنت في شوق إلى صلاة العصر، وإذا صليت العصر، كنت في شوق إلى صلاة المغرب، وإذا صليت المغرب، كنت في شوق إلى صلاة العشاء، وإذا صليت العشاء، كنت في شوق إلى صلاة الفجر، ولهذا كان النبي ﷺ يقول لبلال رضي الله عنه: «يا بلال أرحنا بالصلاة» (أخرجه أبو داود وهو في صحيح الجامع)، يقول: أرحنا بها، فإن فيها الراحة والطمأنينة والسكينة، لا كما يقول البعض: أرحنا منها، لأنها ثقيلة عليهم، وشاقة على نفوسهم.

وهكذا دائمًا تجعل قلبك معلقًا بهذه الصلوات، فهذه لاشك أنه من حسن الخلق مع الله تعالى.

مثال ثالث: *«تحريم الربا»:*

وهذا في المعاملات، فقد حرم الله علينا الربا تحريمًا أكيدًا، وأحل لنا البيع، وقال في ذلك: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٥).

فتوعد من عاد إلى الربا بعد أن جاءته الموعظة وعلم الحكم، توعده بالخلود في النار ـ والعياذ بالله ـ بل إنه توعده في الدنيا أيضًا بالحرب، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٨-٢٧٩)، هذا يدل على عظم هذه الجريمة وأنها من كبائر الذنوب والموبقات.

فالمؤمن يقبل هذا الحكم بانشراح ورضا وتسليم، وأما غير المؤمن فإنه لا يقبله، ويضيق صدره به، وربما يتحيل عليه بأنواع الحيل، لأننا نعلم أن في الربا كسبًا متيقنًا وليس فيه أي مخاطرة، لكنه في الحقيقة كسب لشخص وظلم لآخر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٩).

ثالثًا ـ تلقي أقدار الله تعالى بالرضا والصبر:

وكلنا يعلم أن أقدار الله عزَّ وجلَّ التي يجريها على خلقه ليست كلها ملائمة للخلق، بمعنى أن منها ما يوافق رغبات الخلق ومنها ما لا يوافقهم فالمرض مثلاً لا يلائم الإنسان، فكل إنسان يحب أن يكون صحيحًا معافى.

وكذلك الفقر لا يلائم الإنسان، فالإنسان يحب أن يكون غنيًا، وكذلك الجهل لا يلائم الإنسان، فالإنسان يحب أن يكون عالمًا، لكن أقدار الله عزَّ وجلَّ تتنوع لحكمة يعلمها الله عزَّ وجلَّ، منها ما يلائم الإنسان ويستريح له بمقتضى طبيعته، ومنها مالا يكون كذلك، فما هو حسن الخلق مع الله عزَّ وجلَّ نحو أقدار الله؟

حسن الخلق مع الله نحو أقداره:

وحسن الخلق مع الله نحو أقداره أن ترضى بما قدر الله لك، وأن تطمئن إليه وأن تعلم أنه سبحانه وتعالى ما قدره إلا لحكمة عظيمة وغاية محمودة يستحق عليها الحمد والشكر.

وعلى هذا فإن حسن الخلق مع الله نحو أقداره هو أن يرضى الإنسان ويستسلم ويطمئن، ولهذا امتدح الله الصابرين فقال: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٥٥-١٥٦).

ثانيًا ـ حسن الخُلق في معاملة الخَلق

أمـا حسن الخلق مع المخـلوق فعـرفه بـعضـهم بأنه: «**كف الأذى، وبذل الندى وطلاقة الوجه**»، ويذكر ذلك عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ.

أولاً ـ معنى: «كف الأذى»:

معنى كف الأذى أن يكف الإنسان أذاه عن غـيره سواء كان هذا الأذى بالمال، أو يتعلق بالنفس، أو يتعلق بالعرض، فمن لم يكف أذاه عن الخلق فليس بحسن الخلق، بل هو سيء الخلق.

وقـد أعلن الرسـول ﷺ حرمـة أذية المسلـم بأي نوع من الإيذاء، وذلك في أعظم مجمع اجـتمع فيه بأمتـه حيث قال: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**» (رواه البخاري ومسلم).

إذا كان رجل يعـتدي على الناس بأخذ المال، أو يعـتدي على الناس بالغش، أو يعتدي على الناس بالخـيانة، أو يعتدي على الناس بالضـرب والجناية، أو يعتدي على الناس بالسب والغيـبة والنميمة، لا يـكون هذا حسن الخلق مع الناس، لأنه لم يكف أذاه، ويعظم إثم ذلك كلما كان موجهًا إلى من له حق عليك أكبر.

فالإساءة إلى الوالدين مثلاً أعظم من الإسـاءة إلى غيرهما والإساءة إلى الأقارب أعظم من الإساءة إلى الأباعد، والإساءة إلى الجيـران أعظم من الإساءة إلى من ليسوا جيرانًا لك، ولهذا قال النبي ﷺ: «**والله لا يؤمن، والله لايؤمن، والله لا يؤمن**»، قالوا: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «**من لا يأمن جاره بوائقه**» (رواه البخاري ومسلم، والبوائق: هي الداهية).

ثانيًا ـ معنى: «بذل الندى»:

الندى هو الكرم والجود، يعني أن تبذل الكرم والجود، والكرم ليس كما يظنه بعض الناس أنه بذل المال فقط، بل الكرم يكون في بذل النفس، وفي بذل الجاه، وفي بذل المال، وفي بذل العلم.

إذا رأينا شخصًا يقضي حوائج الناس ويساعدهم، يتوجه في شئونهم إلى من لا يستطيعون الوصول إليهم، ينشر علمه بين الناس، يبذل ماله بين الناس، هل نصف هذا بحسن الخلق؟ نعم نصفه بحسن الخلق، لأنه بذل الندى، ولهذا قال النبي ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**» (رواه أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح).

ومن مخالقة الناس بخلق حسن: أنك إذا ظلمت أو أسيء إليك، فإنك تعفو وتصفح، وقد امتدح الله العافين عن الناس، فقال في أهل الجنة: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٤).

وقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (سورة البقرة: ٢٣٧).

وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ (سورة النور: ٢٢).

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (سورة الشورى: ٤٠).

وكل إنسان يتصل بالناس فلابد أن يجد من الناس شيئًا من الإساءة فموقفه من هذه الإساءة أن يعفو ويصفح، وليعلم علم اليقين أنه بعفوه وصفحه ومجازاته، سوف تنقلب العداوة بينه وبين أخيه إلى ولاية ومحبة وصداقة، قال تعالى: ﴿وَلَا

تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (سورة فصلت: ٣٤).

وتأملوا أيها العارفون باللغة العربية كيف جاءت النتيجة بـ (إذا) الفجائية لأن (إذا) الفجائية تدل على الحدوث الفوري في نتيجتها؛ ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، ولكن ليس كل أحد يوفق لذلك قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (سورة فصلت: ٣٥).

وهل نفهم من هذا أن العفو عن الجاني محمود مطلقًا ومأمور به؟ قد يفهم البعض من الآية هذا الكلام، ولكن ليكن معلومًا أن العفو إنما يحمد إذا كان العفو أحمد، فإن كان الأخذ أحمد فالأخذ أفضل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الشورى: ٤٠)، فجعل العفو مقرونًا بالإصلاح فالعفو قد يمكن أن يكون غير إصلاح، فقد يكون هذا الذي جنى عليك واجترأ عليك رجلاً شريرًا معروفًا بالشر والفساد، فلو عفوت عنه لتمادى في شره وفساده، فالأفضل في هذا المقام أن تأخذ هذا الرجل بجريرته لأن في ذلك إصلاحًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والإصلاح واجب والعفو مندوب، فإذا كان في العفو فوات الإصلاح فمعنى ذلك أننا قدمنا مندوبًا على واجب، وهذا لا تأتي به الشريعة»، وصدق رحمه الله.

▪ تنبيه مهم:

وإنني بهذه المناسبة أود أن أنبه على مسألة يفعلها كثير من الناس بقصد الإحسان، وهي أن تقع حادثة من شخص، فيهلك بسببها شخص آخر، فيأتي أولياء

المقتول فيسقطون الدية عن هذا الجاني الذي فعل الحادث، فهل اسقاطهم للدية محمود ويعتبر من حسن الخلق؟ أم في ذلك تفصيل؟

وذلك فيه تفصيل: فلابد أن نتأمل ونفكر في حال هذا الجاني الذي وقع منه الحادث، هل من الناس المعروفين بالتهور وعدم المبالاه؟ هل هو من الطراز الذي يقول: أنا لا أبالي أن أدهس شخصًا ديته في الدرج، والعياذ بالله؟

أم أنه رجل حصلت منه هذه الحادثة مع كمال التعقل وكمال الاتزان ولكن الله تعالى قد جعل لكل شيء مقدارًا؟

إن كان من هذا الطراز الأخير فالعفو في حقه أولى، ولكن حتى وإن كان من هذا الطراز المتعقل المتزن، يجب قبل أن نعفو عنه أن ننظر: هل على الميت دين؟ فإذا كان على الميت دين، فإنه لا يمكن أن نعفو، ولو عفونا فإن عفونا لا يعتبر، وهذه مسألة ربما يغفل عنها كثير من الناس، ونحن نقول ذلك لأن الورثة يتلقون الاستحقاق لهذه الدية من الميت الذي أصيب بالحادث، ولا يرد استحقاقهم إلا بعد قضاء الدين إن كان الميت مدينًا.

ولهذا لما ذكر الله الميراث قال: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ (سورة النساء: ١١).

والحاصل أن من حسن الخلق: العفو عن الناس وهذا من باب بذل الندى، لأن الندى، إما إعطاء وإما إسقاط، والعفو من الإسقاط.

ثالثًا - معنى: «طلاقة الوجه»:

وطلاقة الوجه هو إشراقه حين مقابلة الخلق، وضد ذلك عبوس الوجه ولهذا قال النبي ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**» (رواه مسلم)، وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن البر، فقال: «**وجه طلق ولسان لين**».

وقد نظمه بعض الشعراء فقال:

بني إن البر شيء هين ... وجه طليق ولسان لين

فطلاقة الوجه تدخل السرور على الناس وتجذب المودة والمحبة وتوجب انشراح الصدر منك وممن يقابلك.

ولكن إذا كنت عبوسًا، فإن الناس ينفرون منك، ولا ينشرحون بالجلوس إليك، ولا بالتحدث معك، وربما تصاب بعقد نفسية، وربما تصاب بالمرض الخطير وهو ما يسمى بالضغط، فإن انشراح الصدر وطلاقة الوجه من أنجح العقاقير المانعة من هذا الداء، ولهذا ينصح الأطباء من ابتلي بهذا الداء أن يبتعد عما يثيره ويغضبه، لأن ذلك يزيد في مرضه، فانشراح الصدر وطلاقة الوجه تقضي على هذا المرض، ويكون بذلك الإحسان محبوبًا إلى الخلق، كريمًا عليهم.

هذه هي الأصول الثلاثة التي يدور عليها حسن الخلق في معاملة الخلق.

ومن علامات حسن الخُلق مع الخَلق:

أن يكون الإنسان حسن المعاشرة مع من يعاشره من أصدقاء وأقارب، لا يضيق بهم ولا يضيِّق عليهم، بل يدخل السرور على قلوبهم بقدر ما يمكنه في حدود شريعة الله، وهذا القيد لابد منه، لأن من الناس من لا يسير إلا بمعصية الله والعياذ بالله، فهذا لا ينبغي أن نوافقه عليه، لكن إدخال السرور على من يعاشرك من أهل وأصدقاء وأقارب في حدود الشرع من حسن الخلق، ولهذا قال النبي ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**» (أخرجه الترمذي، وهو في صحيح الجامع).

وكثير من الناس - مع الأسف الشديد - يحسن الخلق مع الناس، ولكنه لا يحسن الخلق مع أهله، وهذا خطأ عظيم وقلب للحقائق، إذ كيف تحسن الخلق مع الأباعد

وتسيء مع الأقارب؟ قد يقول: لأن الأقارب أمون عليهم، (أمون عليهم: أي أقوم بكفايتهم من النفقة وغيرها)، فنقول: هذا ليس بسبب يجعلك تسيء الخلق معهم، فالأقارب أحق الناس بأن تحسن إليهم في الصحبة والعشرة، ولهذا قال رجل: يا رسول الله؟ من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**» (أخرجه البخاري ومسلم).

والأمر عند بعض الناس على العكس، تجده يسيء العشرة مع أمه، ويحسن العشرة مع زوجته، فيكون مقدمًا إحسان العشرة مع زوجته التي هي عنده بمنزلة الأسير، كما قال النبي ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيرًا، فإنهم عوان عندكم**» (أخرجه الترمذي، حديث حسن صحيح)، يعني بمنزلة الأسرى والحاصل أن إحسان العشرة مع الأهل والأصحاب والأقارب كل ذلك من مكارم الأخلاق.

الإخـــلاص

فلمعرفة الناس بقيمة وأهمية الإخلاص، صارت الكلمة متداولة على الألسنة، فالمرأة تقول لزوجها: أنا أخلصت لك، ترى أنها أصيلة، لم تخن، قامت على خدمة البيت ولم تقصر في حق الزوج أو الولد.

ويقولون: فلان مخلص، إذا اجتهد وبذل وسعه في العمل أو الصحبة، وكان وفيًا في معاملته.

معنى الإخلاص لغة وشرعًا:

الإخلاص في الطاعة، بمعنى ترك الرياء، وكلمة الإخلاص وهي كلمة التوحيد، وسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هي سورة الإخلاص، لأنه خالصة في صفة الله تعالى، والمخلَصون أي المختارون، والمخلِصون: الموحدون الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، قال تعالى: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة ص: ٨٣).

والخالص: هو الصافي عن الشوائب، فالإخلاص تجريد قصد التقرب إلى الله عزَّ وجلَّ عن جميع الشوائب، وقيل: هو إفراد الله عزَّ وجلَّ بالقصد في الطاعات، وقيل: هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، وقيل: الإخلاص هو فقد رؤية الإخلاص، ومن أحس في نفسه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص، قيل للإمام سهل: أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب، وقال الفضيل بن عياض: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجلهم شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما، وكأنه قصد أن يكون الفعل والترك لله جلَّ وعلا، وأن تكون الحركات والسكنات والأقوال والأفعال خالصة لوجهه سبحانه.

قيل: طوبى لمن صحت له خطوة لم يرد بها إلا وجه الله، ويروى أن أحد الصالحين كان يقول لنفسه: أخلصي تتخلصي، لأن العبد لا يتخلص من الشيطان إلا بالإخلاص، لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة الحجر: ٤٠).

وحقيقة الإخلاص: التبري عن كل ما دون الله تعالى، قال تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (سورة الأعراف: ٢٩)، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ (سورة النساء: ١٤٦).

أمر الله عزَّ وجلَّ عباده بالإخلاص وحثهم عليه:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الزمر: ١١-١٢)، وقال: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ (سورة الزمر: ١٤)، وقال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (سورة غافر: ٦٥).

وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (سورة البينة: ٥)، وقال: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٢٩)، وبين سبحانه أن الإخلاص نعمة يمن بها على من يشاء من عباده، قال سبحانه عن نبيه يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة يوسف: ٢٤)، وقال عن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ (سورة مريم: ٥١)، وذكر جماعة من أنبيائه، ثم قال: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (سورة ص: ٤٦)، والمخصلون هم الناجون من عذاب الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة الصافات: ٧٣-٧٤)، وقال: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة الصافات: ٣٩-٤٠)، وهم أيضًا الناجون من تلبيس إبليس، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة ص: ٨٢-٨٣).

السنة الشريفة تحض على الإخلاص:

ورد في الحديث: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه» (رواه البخاري).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا صليتم على الميت، فأخلصوا له الدعاء» (رواه أبو داود، وحسنه الألباني)، وفي الحديث: «... ولكن غفر لك بإخلاصك قول لا إله إلا الله» (رواه أحمد، وصحح أحمد شاكر إسناده).

وقال ﷺ: «لم تؤتوا شيئاً بعد كلمة الإخلاص مثل العافية، فاسألوا الله العافية» (رواه النسائي وأبو يعلي، وصحح أحمد شاكر إسناده).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش، ما اجتنب الكبائر» (رواه الترمذي وحسنه)، وعن عبد الله بن الزبير ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، أهل النعمة الفضل والثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» (رواه مسلم).

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه» (رواه البخاري ومسلم).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفية من أهل الدنيا، ثم احتسبه جزاء إلا الجنة» (رواه البخاري ومسلم).

بعض الآثار الواردة في الإخلاص:

جاء في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «..وأما عكرمة فركب البحر، فأصابتهم عاصفة، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئًا ها هنا»، فقال عكرمة: «والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص، لا ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عليَّ عهدًا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا ﷺ حتى أضع يدي في يديه فلأجدنه عفوًا كريمًا، فجاء فأسلم» (رواه النسائي، وصححه الألباني).

وقال أبو سليمان الداراني: «إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء».

وقال مكحول: «ما أخلص عبد قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه».

وقال شهر بن حوشب: «جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال: أنبئني عما أسأل عنه، أرأيت رجلاً يصلي يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد؟ فقال عبادة: «ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: أنا خير شريك فمن كان له معي شريك فهو له كله،

لا حاجة لي فيه».

وقال يوسف بن الحسين: «أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت على لون آخر».

وقال الجنيد: «الإخلاص سرٌ بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله».

قبول العمل بنية وصحة وإخلاص ومتابعة:

قال الفضيل بن عياض في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (سورة الملك:٢)، هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا عليّ ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، الخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (سورة الكهف:١١٠). قال ابن كثير في تفسيرها: وهذان ركنا العمل المتقبل، لابد أن يكون خالصًا لله صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ.

وقال ابن القيم: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً، يثقله ولا ينفعه».

قال بعض السلف: ما من فعلة ـ وإن صغرت ـ إلا ينشر لها ديوانان: لم؟ وكيف؛ أي لِمَ فعلت؟ وكيف فعلت؟ فالأول: سؤال عن علة الفعل وباعثه، وداعيه هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل وغرضه من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس، أو خوف ذمهم أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل، أم

الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى، وابتغاء الوسيلة إليه؟

فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة، فإن الله سبحانه لا يقبل عملاً إلابهما.

الإخلاص يعبر عنه البعض بالضمير والنية والقلب الأبيض:

فلان عنده ضمير، أي أنه يخلص عمله وينقيه من شوائبه، وأحيانًا يقال للإنسان مثلاً: صلِّ أو أطلق لحيتك، فيصادم الأمر الشرعي بقوله: ربك رب قلوب، والمهم القلب الأبيض وسلامة النفس من الغش والغيبة...!!

وأحيانًا يعبر عن الإخلاص بالنية، والنية ليست قول القائل في صلاته مثلاً: «نويت»، فهذه بدعة، وإنما النية محلها القلب، وقد تتيسر النوايا الطيبة في بعض الأوقات بفضل الله، وقد تتعذر في بعضها، وخصوصًا مع ميول القلب إلى الدنيا، وقد وردت النصوص والآثار بفضل النوايا الطيبة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (سورة الكهف:٢٨)، والمراد بتلك الإرادة النية، وفي حديث أنس بن مالك ﷺ لما خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك؟ قال: «إن بالمدينة أقوامًا ما قطعنا واديًا، ولا وطئنا موطئًا يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة إلا شاركونا في ذلك وهم بالمدينة»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟! قال: «حبسهم العذر» (رواه أحمد والبخاري ومسلم)، والمشاركة في الأجر كانت بحسن النية.

وقال البعض: «رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية».

وقالوا: «تجارة النيات تجارة العلماء»، وقال يحيى بن كثير: «تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل».

والطاعات مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها، فالطاعة تنقلب معصية بالقصد، فقد ينتوي بجهاده وصلاته وصدقته الرياء، فيأثم بفعله، وقد يدخل المسجد بنية الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكف سمعه وبصره وجوارحه عما يُغضب...، فيصير مأجوراً بحسب نواياه الطيبة، أما بالنسبة للمعصية، فإذا انضاف لها قصود ونوايا خبيثة تضاعف وزرها، وعظم وبالها، كمن يزني وفي نيته أن يشتت شمل هذه الأسرة، ويلوث سمعتهم، ويلحق بهم المضرة والأذى، وقد ورد في الحديث: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**» (رواه البخاري ومسلم)، وهذا الحديث ثلث العلم كما قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ.

شمول الإخلاص وفوائده:

الإخلاص مطلوب في الأقوال والأعمال، وحال الحياة وعند الممات، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣)، فالإخلاص مطلوب في التوحيد والنية والقصد، وفي العبادات كالصلاة والصيام والقيام والحج والجهاد والتوبة والذكر والدعاء والصدق والتواضع والتوكل على الله...

مطلوب في تربية الأولاد، وفي التعامل مع الزوجات، في السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق، سواء كان الإنسان في المسجد أو في السوق ولو استطاع مع كل نفس يتردد؛ إذ بالإخلاص تنفرج الشدائد وتتحقق الطمأنينة والسعادة، وتقوى العزيمة ومعاني الإيمان في النفس، وبه يتحرر العبد من عبودية غير الله، وينصر الله به الأمة، ويحصل كمال الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة، وهو أساس قبول الدعاء والأعمال والأقوال، وسبيل البعد عن الوسواس والأوهام، وبه ترتفع منزلة الإنسان في الدنيا والآخرة.

أسباب تعينك على الإخلاص:

معرفة قيمة الإخلاص وفضله، والعلم بشموله ومعناه من أعظم الأسباب المعينة على الإخلاص؛ إذ السلوك مرآة الفكر، كما أن الدعاء من شأنه أن يستمطر رحمة ويستدفع نقمة ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (سورة غافر: ٦٠).

اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل، واجعل عملنا لك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «**إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن أحمل هم الدعاء، وذلك لأن العبد إذا أُلْهِمَ الدعاء فإن الإجابة معه**»، وعلى العبد أن يكثر من ذكر الموت والقبور والآخرة، وأن يتفكر في خطورة الرياء وسوء عاقبته، وأن الله أحق أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وأن يكثر القراءة في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ، وأن يطالع تراجم العلماء وسِيَرِ الصالحين، وأحوال المخلصين، وأن يسعى في تقوية معاني الإيمان في نفسه، وذلك بالعلم النافع والعمل الصالح، حتى ينبعث دافع الخشية والمراقبة في الأقوال والأفعال، ثم مجاهدة النفس وأن يكون الأمر منك على بال دون ملل أو ضجر، من شأنه أن تتحقق منه الخيرات والبركات ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٩).

العـــدل

العدل في اللغة والشرع:

العدل خـلاف الجور، وهو ما قام في النفـوس أنه مستقـيم، ورجل عدل أي أنه رضًا في الشـهادة، والعَدل والعِدل والعـديل سواء، أي النظير والمثيل، قـال تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ (سورة المائدة: ٩٥). وقيل: العَدل يسـتعمل فيما يدرك بالبـصيرة كـالأحكام، والعِـدل والعديـل فيـمـا يدرك بالحـاسة، كـالموزونات، والمعـدودات، والمكيلات.

وقـال سيـبويه: «العـديل من عـادلك من الناس، والعِـدل لا يكون إلا للمتـاع خاصة، والعَدل أيضًا هو الحكم بالحق».

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (سورة الطلاق: ٢)، قال سعـيد بن المسيب: ذوي عقل، وقال إبراهيم النخعي: العدل الذي لم تظهر منه ريبة، وعدل في الحكم: أي لم يَجُـر فـيه، وعدل عـن الحق: جار، وفي قوله تـعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (سورة النمل: ٦٠)، على تقدير يعدلون بـه، أي يشركون، ويصح أن يكون من قولهم: عدل عن الحق: جـار.

والعدالة في الشـريعة عبـارة عن الاستقـامة على طريق الحق، واجـتناب ما هو محـظور دينًا، أو هو فصل الحكومـة على ما في كـتاب الله وسنة رسـوله ﷺ لا الحكم بالرأي المجرد، أو هو الأمـر المتوسط بين الإفراط والتـفريط، أو هو بذل الحق في مقابلة استيفاء الواجب.

العدل من أسماء الله تعالى:

من نظر في أفعال الله تعالى في ملكوت السموات والأرض لم يَرَ في خلق الرحمن من تفاوت، وقد رتب سبحانه مخلوقاته في مواضعها اللائقة بها، وهو بذلك عدل، ولو تأمل العبد في حِكَمِهِ وأقواله وسائر أسماءه ـ سبحانه ـ وصفاته لتحقق وتيقن عظيم عدله جلَّ وعلا.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الواجب على العبد أن لا يعترض عليه في تدبيره وحكمه وسائر أفعاله، وافق مراده أم لم يوافق، لأن كل ذلك عدل، وتيقنه أنه لو لم يفعل ـ سبحانه وتعالى ـ ما فعله لحصل في الوجود أمر آخر هو أعظم ضررًا مما حصل، كما أن المريض لو لم يحتجم لتضرر ضررًا يزيد على ألم الحجامة.

بين العدل والمساواة:

اقترن الأمران وارتبطا ارتباطًا وثيقًا، فالمساواة هي الغاية التي تسعى العدالة إلى تحقيقها، وإذا كانت العدالة خلقًا، فإن المساواة قيمة وهدف، ومن صوَرِهَا: المساواة بين الرجل والمرأة في أداء الواجبات الشرعية، والإثابة عليها ـ المساواة بين الزوجات في حقوق الزوجة ـ المساواة بين الأبناء في الهبة والوصية ونحوهما ـ المساواة بين الأجناس والأعراق في التمتع بالحقوق المشروعة لكل منهم ـ المساواة بين الخصوم في مجالس القضاء ـ المساواة في حرمة الدماء والأموال والأعراض، وإعمال ميزان التقوى، فلا يصح تفريق الناس على أساس اللون أو الجنس أو اللسان ـ المساواة في إيقاع الجزاء بكل من ينتهك حدًا من حدود الله ـ المساواة بين المسلمين في الحضور لأماكن العبادة كالمسجد الحرام وغيره ـ المساواة في نيل الجزاء في الدنيا والثواب في الآخرة لكل من يعمل عملاً صالحًا.

بعض الآيات الواردة في العدل والحث عليه:

قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة الأنعام:١١٥)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ (سورة النحل: ٩٠)، وقال: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ (سورة الشورى:١٥)، وقال: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ (سورة الطلاق:٢)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (سورة النساء:٥٨)، وقال: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الحجرات:٩)، وقال: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (سورة النساء:٣)، وهو العدل المستطاع في النفقة والسكن والمبيت، أما قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (سورة النساء:١٢٩)، فالعدل المنفي هنا ما يتعلق بالميل القلبي، فهذا لا يستطيع الإنسان أن يعدل فيه.

الأحاديث التي تأمر بالعدل وتحض عليه:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قلتم فأحسنوا، فإن الله عزَّ وجلَّ محسن يحب المحسنين» (رواه الطبراني في «الأوسط»، وحسنه الألباني).

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عزَّ وجلَّ وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» (رواه مسلم).

ولما وهب بشير ابنه النعمان عبداً قالت له أمه عمرة: لا أرضى حتى يشهد رسول الله ﷺ فذهب، فقال له النبي ﷺ: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟»، قال: لا، قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»، قال: فرجع فرد عطيته. (رواه البخاري).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً: إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً: إمام جائر» (رواه الترمذي وهو حسن).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (رواه أبو داود، وابن ماجه والترمذي، وقال: حسن غريب).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرها، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالعدل أين كنا، لا نخاف في الله لومة لائم. (رواه النسائي، وصححه الألباني).

ولما قال رجل للنبي ﷺ: اعدل، قال: «لقد شقيت إن لم أعدل» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية...» الحديث، (رواه البخاري ومسلم).

وفي الحديث: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» (رواه البيهقي وهو مرسل).

وقال ﷺ: «أيها الناس، إنما أضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمدٌ يدها» (رواه البخاري ومسلم).

وقال ﷺ : «المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يدٌ على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويُرَدُّ على أقصاهم» (رواه ابن ماجه).

وكان النبي ﷺ إذا خرج في سفر أقرع بين نسائه، وكان يعدل في النفقة والسكن والمبيت، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني القلب، (حديث صحيح: رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه).

بعض الآثار الواردة في العدل:

قال ربْعيٌّ بن عامر رضي الله عنه لرستم قائد الفرس لما سأله ما جاء بكم؟: «والله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن يضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لكعب الأحبار: «أخبرني عن جنة عدن، قال: يا أمير المؤمنين لا يسكنها إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عادل، فقال عمر: والله ما أنا نبي، وقد صدقت رسول الله ﷺ، وأما الإمام العادل فإني أرجو أن لا أجور، وأما الشهادة فأنَّى لي بها؟»، قال الحسن: فجعله الله صديقًا شهيدًا، حكمًا عدلاً.

وعمر هو الفاروق رضي الله عنه، قيل فيه: عدلت فأمنت فنمت يا عمر، وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته، ويسأله مالاً يرممها به، فكتب إليه عمر: «قد فهمت كتابك، فإذا قرأت كتابي، فحصن مدينتك بالعدل، ونقِّ طرقها من الظلم، فإنها مَرَمَّتُهَا .. والسلام».

ويقال: إن الحاصل من خراج سواد العراق في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعمة وثلاثين ألف ألف، فلم يزل يتناقص، حتى صار

في زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف، فلما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ارتفع في السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف، وفي الثانية إلى ستين ألف ألف، وقيل أكثر، وقال: إن عشت لأبلغته إلى ما كان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فمات في تلك السنة.

قال سعيد بن جبير ـ في جواب لعبد الملك عن العدل ـ: «العدل على أربعة أنحاء: العدل في الحكم لقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ (سورة المائدة:٤)، والعدل في القول، لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ (سورة الأنعام:١٥٢)، والعدل في الفدية، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ (سورة البقرة:١٢٣)، والعدل في الإشراك، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (سورة الأنعام:١).

وقال طاوس وإبراهيم وشريح: «البينة العادلة أحق من اليمين الفاجرة»، قال ابن تيمية: «إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يُروى: الله ينصر الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة، وإن كانت مؤمنة».

وقال ابن حزم: «أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره».

وسأل الإسكندر حكماء أهل بابل: أيما أبلغ عندكم في الشجاعة أو العدل؟ قالوا: إذا استعملنا العدل استغنينا عن الشجاعة.

ويقال: عَدْل السلطان أنفع من خصب الزمان، وقيل: إذا رغب السلطان عن العدل، رغبت الرعية عن طاعته.

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس، ولأمير المؤمنين المنصور، فكتب المنصور لعامله: استوف لأمير المؤمنين حقه، وفرق ما بقي بين الغرماء، فلم يلتفت إلى كتابه، وضرب للمنصور بسهم من المال كما ضرب لأحد الغرماء، ثم كتب إلى المنصور: إني رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء، فكتب إليه المنصور: مُلِئَتْ الأرض بك عدلاً.

ووقف يهودي لعبد الملك بن مروان، فقال: يا أمير المؤمنين، إن بعض خاصتك ظلمني فأنصفني منه، وأذقني حلاوة العدل، فأعرض عنه، فلما كانت الثالثة قال: يا أمير المؤمنين، إنا نجد في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام أن الإمام لا يكون شريكًا في ظلم أحد حتى يرفع إليه، فإذا رفع إليه ذلك ولم يُزِلْهُ، فقد شاركه في الظلم والجور، فلما سمع عبد الملك كلامه فزع، وبعث في الحال إلى من ظلمه، فعزله، وأخذ لليهودي حقه منه.

وقال المنصور: «وددت لو أني رأيت يوم عدل ثم مت».

ويقال: إذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان.

قال ابن تيمية: «أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق»، ويقال: «الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام»، وقال أيضًا: «العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة».

وقال ابن القيم: «التوحيد والعدل جماع صفات الكمال».

قال ابن كثير: «جميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ ولهذا قال سبحانه بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضًا، منبهًا على تساويهم في البشرية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (سورة الحجرات: ١٣).

بعض فوائد العدل وآثاره:

العدل طريق موصل إلى الجنة، وبه يدوم الملك، ويتحقق الأمن لصاحبه في الدنيا والآخرة، وينال به رضا الرب قبل رضا الخلق، وأصحابه أهل للولاية والحكم، والتقدم والرفعة.

والعدل في الإسلام يشمل البعيدَ والقريبَ، والمسلمَ والكافرَ، فالعدل أساس الملك، وبه قامت السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (سورة المائدة: ٨)، وبالعدل والمساواة تشعر المرأة بقيمتها الحقيقية، فالمرأة شقيقة الرجل في الأحكام، وبه يستشعر أهل الذمة أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ويعلم كل فرد أنه ليس أقل من غيره، وأنه سيحصل على حقه، وأنه لا تفرقه بين الناس تبعًا لأعراقهم ووضعهم الاجتماعي، أو موقعهم من السلطة، فيتحقق الاستقرار، وتسود الطمأنينة في أرجاء المجتمع.

تحقيق العدل على مستوى الفرد والمجتمع:

إذا علم الحاكم والمحكوم قيمة العدل، وما ورد فيه من النصوص والآثار، وكان معظمًا لحرمات الله وشعائره، يدعوه سبحانه أن يرزقه العدل في الغضب والرضا، فلا يُستبعد ـ مع إحسان المسير إلى الله ـ أن نكون على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ

والصحابة الكرام في إقامة معاني الحق والعدل، بل الخلافة ستعود على منهاج النبوة، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ.

والأخلاق تقبل الاكتساب، ولذلك قال سبحانه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (سورة الشمس:٩-١٠)، وعلى العبد أن ينظر إلى العدل وغيره من الأخلاق الطيبة على أنه أغلى وأقيم من الجواهر الثمينة، وأن الجور أضر في العاجل والآجل من اقتناء الحيات والعقارب، ثم مع ملازمة المجاهدة والاستعانة بخالق الأرض والسماوات تتحقق الخيرات والبركات، ويعم العدل البلاد والعباد.

الإنصـاف

معنى الإنصاف لغة واصطلاحًا:

أنصف النهار: أي انتصف، وأنصف الشخص: إذا عدل، وتناصف القوم: أي أنصف بعضهم بعضًا من نفسه، وقيل: إذا تعاطوا الحق بينهم، ومنتصف الشيء وسطه، وانتصفت من فلان، أي أخذت حقي كاملاً، والنِصف بالكسر: الانتصاف، ومنه قول علي رضي الله عنه: ولا جعلوا بيني وبينهم نصفًا» أي إنصافًا.

ويمكن تعريف الإنصاف بأنه إعطاء غيرك من الحق مثل الذي تحب أن تأخذه منه لو كنت مكانه، ويكون ذلك بالأقوال والأفعال، في الرضا والغضب، مع من تحب ومن تكره، وقال المناوي: الإنصاف والعدل تؤمان، نتيجتهما علو الهمة وبراءة الذمة واكتساب الفضائل وتجنب الرذائل.

أنواع الإنصاف:

للإنصاف أنواع عديدة، نذكرها بإجمال واختصار:

أولاً - إنصاف المرء نفسه من نفسه:

وذلك لأن من لم يفعل ذلك لا يستطيع إنصاف غيره، ولأن فاقد الشيء لا يعطيه، وهذا يوجب عليه معرفة ربه وحقه عليه، ومعرفة نفسه، وما خُلقت له، فلا يدعي لها ما ليس لها، ولا يُخبِّثها بتدنيسه لها وتصغيره إياها وتحقيرها بمعاصي الله عزَّ وجلَّ وأقبح ذلك الشرك بالله تعالى، وعلى العبد أن يرفع نفسه بطاعة الله وتوحيده وحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه وإيثار مرضاته سبحانه.

ثانيًا ـ إنصاف الله عزَّ وجلَّ:

وذلك بأن يعطي العبودية حقها، وأن لا ينازع ربه صفات إلهيته، وأن لا يشكر على نعمه سواه، ولا يستعين بها على معاصيه، ولا يحمد غيره، ولا يعبد سواه، ولا يرى نفسه إلا مسيئًا ومقصراً مع عدل الله فيه وإحسانه إليه.

ثالثًا ـ إنصاف النبي ﷺ:

وذلك بالقيام بحقوقه ﷺ من الإيمان به ومحبته، وطاعته وتوقيره وتبجيله، وتقديم أمره وقوله ومحبته على أمر غيره وقوله وعلى محبة من سواه.

رابعًا ـ إنصاف العباد:

ويكون ذلك بأن تؤدي حقوقهم، وألا تطالبهم بما ليس لك، وألا تحملهم فوق وسعهم، وأن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، وأن تحكم لهم بما تحكم به لنفسك أو عليها.

والإنصاف مع الغير مطلوب حتى لو كان الغير مخالفًا له في الرأي أو في الدين أو في المذهب، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (سورة النساء: ١٠٥)، وسبب نزولها يتلخص في: أن طعمة ابن أبيرق سرق درعًا في جراب فيه دقيق لقتادة بن النعمان، وخبأها عند يهودي، فحلف طعمة ما لي بها علم، فاتبعوا أثر الدقيق إلى دار اليهودي، فقال اليهودي: دفعها إليَّ طعمة، وهمَّ الرسول ﷺ أن يتهم اليهودي، وأن يقضي عليه للمنافق الذي يتظاهر بالإسلام، فنزلت الآيات مُبرِّءةً ساحة هذا اليهودي ومنصفه له، على الرغم من عداوة اليهود للإسلام وأهله، وكيدهم لرسول الله ﷺ ومحاولتهم قتله والإيقاع به، والصد عن سبيله، والتنفير من دعوته، قال تعالى فيهم: ﴿لَتَجِدَنَّ

أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (سورة المائدة: ٨٢)، وهذا لم يمنع من الإنصاف معهم، بل أثنى القرآن على من أحسن منهم، قال تعالى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٩)، وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (سورة السجدة: ٢٤)، وقال: ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ (سورة المائدة: ١٣).

ومن صور الإنصاف لأهل الذمة، ما ورد في الحديث: «من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة» (رواه أبو داود).

وقال ﷺ: «من قتل معاهداً لم يَرِحْ رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا» (رواه البخاري)، ولما أراد اليهود رشوة عبد الله بن رواحة رضي الله عنه قال: يا معشر يهود، أنتم أبغض الخلق إليَّ، قتلتم أنبياء الله عزَّ وجلَّ وكذبتم على الله، وليس يحملني بغض إياكم أن أحيف عليكم، فقال اليهود: بهذا قامت السموات والأرض» (رواه أحمد وله شواهد يتقوى بها).

وإذا كنا مأمورين بالإنصاف مع غير المسلمين، فلأن نكون منصفين لأهل البدعة ممن لم يخرجوا عن الإسلام أولى، ومن طالع كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وكلامه على الفرق الضالة، علم نموذجًا ومثالاً لأهل العدل والإنصاف، الذي يعطون كل ذي حق حقه، لم يحكموا للصحيح بحكم السقيم، ولا للسقيم بحكم الصحيح، ولكن قبلوا ما يقبل، وردوا ما يُرَدُّ.

آداب أهل الإنصاف:

▪ **التزم أهل السنة والجماعة بآداب منها:**

١ ـ التجرد وتحري القصد عند الكلام على المخالفين، فالغرض بيان ما في البدعة والمعصية من إفساد ليحذر العباد، والقصد ردع المخالف للرحمة والإحسان، لا للتفشي والانتقام.

٢ ـ أهمية التبين والتثبت قبل إصدار الأحكام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (سورة الحجرات:٦)، قال الحسن البصري: «المؤمن وقاف حتى يتبين».

٣ ـ حمل الكلام على أحسن الوجوه، وإحسان الظن بالمسلمين، ومن أدلة ذلك قوله ﷺ وهو يطوف بالكعبة: «**ما أطيبك وأطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحُرْمة المؤمن أعظم عند الله حرمةً منك، ماله ودمه، وأن لا يظن به إلا خيراً**» (رواه ابن ماجه).

وكتب بعض أصحاب النبي ﷺ إلى سعيد بن المسيب: «أن ضع أمر أخيك على أحسنه، ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير مَحْمَلاً».

٤ ـ ألا ينشر سيئات المخالف ويدفن حسناته، ومن ذلك قول النبي ﷺ لعمر عن حاطب بن بلتعة رضي الله عنهما: «**وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» (متفق عليه)، وكان حاطب قد همَّ بإخبار أهل قريش عن غزو النبي ﷺ لهم.

٥ ـ النقد يكون للرأي وليس لصاحب الرأي، فقد كان النبي ﷺ إذا أراد أن ينصح يقول: «ما بال أقوام ....»، «ما بال رجال ....»، دون أن يسميهم غالبًا، وفي هذا إعانة على الارتداع والرجوع عن الخطأ.

٦ ـ الامتناع عن المجادلة المفضية إلى النزاع، ففي الحديث: «إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِمُ» (متفق عليه)، وقال مالك عن أنس: «المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن».

٧ ـ حمل الكلام المخالف على ظاهره، وعدم التعرض للنوايا والبواطن، فقد أنكر النبي ﷺ على أسامة بن زيد عندما قتل من قال: «لا إله إلا الله»، وظن أنه إنما قالها تعوذًا، فقال له ﷺ: «هلا شققت عن قلبه»، وكان عمر ﷺ يقول: **«أيها الناس إن الوحي قد انقطع، فمن أظهر لنا خيراً أمنّاه وقرّبناه، ليس لنا في سريرته ، الله يتولاه في سريرته، ومن أظهر لنا شراً لم نؤمّنه ولم نقربه، وإن قال: إن نيته حسنه»**.

بعض النصوص الواردة في قيمة الإنصاف:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (سورة المائدة:٨)، وقال: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة الأنعام:١٥٢)، وقال: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (سورة ص:٢٦)، وقال جلَّ وعلا: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ

فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (سورة الممتحنة: ٨-٩).

وفي الحديث عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» (رواه البخاري ومسلم).

وجاء في حديث الإفك قول عائشة رضي الله عنها: «وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: «**يا زينب ماذا علمت - أو رأيت -؟**»، فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة، وهي (أي زينب) التي كانت تساميني (تضاهيني) من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع» (رواه البخاري ومسلم).

فالغيرة لم تمنع زينب من قول الحق في عائشة رضي الله عنها، وانظر لقول أم سُليم لأبي طلحة لما مات ابنه - وقد خرج إلى المسجد - قالت: «يا أبا طلحة، ألم تر إلى آل فلان، استعاروا عارية فتمتعوا بها، فلما طُلبت كأنهم كرهوا ذاك، قالوا ما أنصفوا، قالت: فإن ابنك كان عارية من الله تبارك وتعالى، وإن الله قبضه، فاسترجع وحمد الله» (رواه أحمد).

ولما قتل السبعة من الأنصار يوم أحد قال ﷺ: «**ما أنْصَفْنَا أصحابنا**» (رواه مسلم).

بعض الآثار الواردة في الإنصاف:

قال عمار بن ياسر رضي الله عنهما: «**ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار**».

قال ابن القيم: «كيف ينصف الخلق، من لم يُنصف الخالق؟ جاء في أثر إلهي يقول الله عزَّ وجلَّ: «ابن آدم ما أنصفتني، خيري إليك نازل، وشرك إليَّ صاعد، كم

أتحبب إليك بالنعم، وأنا غني عنك، وكم تتبغض إليَّ بالمعاصي وأنت فقير إليَّ، ولا يزال الملك الكريم يعرج إليَّ منك بعمل قبيح».

قال أيضًا: وجاء في أثر آخر: «ابن آدم ما أنصفتني، خلقتك وتعبد غيري، وأرزقك وتشكر سواي»، وسمعت عائشة ﵂ عروة بن الزبير يسب حسان بن ثابت، وكان ممن خاض في حديث الإفك، فقالت: «**يا ابن أختي، دَعْهُ، فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن سالم بن أبي حفصة: «سألت أبا جعفر (أي الباقر) وابنه جعفر عن أبي بكر وعمر، فقالا لي: يا سالم، تولهما وابرأ من عدوهما، فإنهما كانا إمامي هدى، وكان سالم فيه تشيُّع ظاهر، ومع هذا فيبث هذا القول الحق، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذو الفضل، وكذلك ناقلها ابن فضيل شيعيٌّ ثقة، قال الإمام الشافعي في الإمام أحمد ـ رحمهما الله ـ: «خرجت من بغداد، وما خلَّفت بها أحدًا أورع ولا أتقى ولا أفقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل»، وقال محمد بن سيرين: «ظلمٌ لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما رأيت، وتكتم خيره».

وقال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، ومن لم يحفظ من أخبارهم إلا ما بَدَرَ من بعضهم في بعض على الحسد والهفوات والتعصب والشهوات دون أن يعي بفضائلهم حُرِم التوفيق، ودخل في الغيبة، وحاد عن الطريق».

قال ابن تيمية في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾، قال: فنهى أن يحمل المؤمنين بُغْضُهم للكفار على ألا يعدلوا، فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع أو متأول من أهل الإيمان؟! فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن وإن كان ظالمًا له».

فوائد الإنصاف والاتصاف به:

الإنصاف دليل على كمال الإيمان وصحة الإسلام، به تسود المحبة، ويشعر كل امرىء بالطمأنينة ويأمن على نفسه وماله وعرضه، فهو عامل أساسي في استقرار المجتمعات وشيوع المحبة بين الناس، وانتزاع صفات الحقد والكراهية والحسد، وسلامة المجتمعات من المكائد والمؤامرات التي لا يلجأ إليها في العادة سوى المقهورين، ومن شأنه أن يفسد على شياطين الإنس والجن خططهم الخسيسة لزعزعة الأمن والأمان، ويصبح المجتمع خلية متآلفة تعمها روح الإخاء والتسامح، حيث يشعر الفقير والضعيف واليتيم بما يطمئنه، دون خوف من ظلم أو جور، ثم إنصاف العبد من نفسه دليل على التجرد من الأنانية وسبيل موصل إلى الله وجنات النعيم، ولذا حَرِيٌّ بالحاكم والمحكوم والرجل والمرأة والقوي والضعيف أن يعمل على الاتصاف بهذا الخُلُق الفاضل، وعلى إشاعته في البلاد والعباد، وأن نحمد الله الذي هدانا سبلنا، وأكمل لنا ديننا، وأتم علينا نعمته ورضي لنا الإسلام دينًا.

أخلاق مذمومة وسلوكيات مرذولة

يجب على المسلم الحذر منها

إن التخلي عن الرذائل أهم وآكد من التحلي بالفضائل، وهذه وتلك مطلوبة، وأنا أذكر لك ـ بعون الله وتوفيقه ـ بعض الرذائل، التي لا ينفك عنها سوء الخُلق، حتى تكون منها على حذر.

١ ـ السحر

أصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، والعرب إنما سمت السحر سحرًا لأنه يزيل الصحة إلى المرض، والسحر: البيان في فطنة، وقد جاء في الحديث: «إن من البيان لسحرًا»(متفق عليه)، فمنه ما يصرف قلوب السامعين، وإن كان غير حق، ومن البيان ما يُكسب من الإثم، والسحر هو الخديعة، وهو إخراج الباطل في صورة الحق، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾(سورة الشعراء: ١٥٣).

المُسَحَّرُ: الذي خُلِقَ ذا سحر، قال ابن قدامة عن السحر: «هو عَقْدٌ ورُقى يتكلم به، أو يكتبه الساحر، أو يعمل شيئًا يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له» اهـ.

والسحر لا يقتصر على التخييل فقط، قال النووي: «والصحيح أن له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة» اهـ.

والسحر يفترق عن المعجزة والكرامة، فقد نقل إمام الحرمين الإجماع على أن السحر لا يظهر إلا من فاسق، وأن الكرامة لا تظهر على فاسق».

والسحر يكون بمعاناة، أما الكرامة فلا تحتاج إلى ذلك، وتمتاز عليها المعجزة بالتحدي، والكرامة ضابطها الاستقامة، وبهذا تفترق عن الخارقة الشيطانية، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٢١-٢٢٣)، ولا يجوز تعلم السحر ولا تعليمه، قال الذهبي: «الساحر لابد وأن يكفر، إذ ليس للشيطان الملعون غرض في تعليمه الإنسان السحر إلا ليشرك بالله، وترى خلقًا كثيرًا من الضُّلاَّل يدخلون في السحر ويظنونه حرامًا فقط، وما يشعرون أنه الكفر.

وحد الساحر: القتل لأنه كفر بالله أو مضارع له، وهو من السبع الموبقات، وقد جُعل من الشرك لاعتقاد الجُهَّال أن ذلك يؤثر بخلاف ما قدر الله تعالى، وقد عده الإمام ابن حجر من الكبائر، وحده عنده: كل كلام يغير الإنسان أو شيئًا من أعضائه، وهو من كبائر اللسان، وقد ورد السحر ومشتقاته في كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (سورة طه: ٦٩)، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (سورة يونس: ٧٦-٧٧)، وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾ (سورة الإسراء: ٤٧)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٣٢)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (سورة المدثر: ٢٣-٢٤).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: يا رسول الله وما هي؟، قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقتل المحصنات الغافلات المؤمنات» (رواه البخاري ومسلم).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: **«من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا يؤمن بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»** (رواه المنذري، والطبراني، ورواته ثقات).

وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»** (رواه أبو داود وصححه الألباني).

والنشرة من عمل الشيطان، وهي حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر، فلا يجوز حل السحر بالسحر، وإنما يتم ذلك بالرقى الشرعية، وقد نزلت المعوذتان بشأن ذلك، قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (سورة الفلق:٤)، وهذا الشر هو شر السحر، فإن النفاثات في العقد هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر، كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن أعظم الطرق الشرعية في الوقاية من السحر والسحرة بالاستعاذة بالله، وتقوى الله تعالى وحفظ أوامره، والتوكل عليه سبحانه، والتوبة من جميع الذنوب والمعاصي، والصدقة والإحسان، والإكثار من تلاوة القرآن، والمحافظة على الأدعية المأثورة، واستخراج السحر وإبطاله، واستعمال الأدوية المباحة شرعًا، ولنعلم أن الأمور تجري بقدر، ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (سورة البقرة:١٠٢).

وما ورد عن عمر وغيره رضي الله عنه من قتل الساحر، يحتاج إلى تثبت وحيطة، ونظر عواقب الأمور، ويقوم به الحاكم أو من ينوب عنه، بحيث تتحقق المصلحة، وتندفع المضرة والمفسدة، ففي الكتاب الذي كتبه عمر قبل موته بسنة: «**اقتلوا كل ساحر، وفرقوا بين كل ذي محرم من المجوس، وانهوهم عن الزمزمة، فقتلنا في يوم ثلاث سواحر، وفرقنا بين كل رجل من المجوس وحريمه في كتاب الله**» (رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني).

قال ابن تيمية: «أرباب السحر والنيرنجيات وعمل الكيمياء، وأمثالهم ممن يدخل في الباطل الخفي الدقيق يحتاج إلى أعمال عظيمة، وأفكار عميقة، وأنواع من العبادات والزهادات والرياضات ومفارقة الشهوات والعادات، ثم آخر أمرهم الشك بالرحمن، وعبادة الطاغوت والشيطان، وعملُ الذهب المغشوش، والفساد في الأرض، والقليل منهم ينال بعض غرضه الذي لا يزيده من الله إلا بعدًا، وغالبهم محروم مأثوم، يتمنى الكفر والفسوق والعصيان، ولا يحصل إلا على نقل الأكاذيب وتمني الطغيان، سماعون للكذب أكالون للسحت عليهم ذلة المفترين» اهـ.

فإياك والسحر واستلحاق الأذى والمضرة بالآخرين، وإن دعتك نفسك للانتقام فتذكر أن السحر شرك بالله وكفر به، وهو عمل بغيض وخلق ذميم، يورث خسران الدنيا والآخرة، ويغضب الرب، وهو بمثابة معول هدم في المجتمع، وفيه هلاك الساحر ومذلته في الدنيا قبل الآخرة.

٢- الابتداع

فالبدعة تذكر في مقابل السنة، وهي أحب إلى إبليس من المعصية، وصاحبها لا ترجى له توبة، فهو ممن زُيِّنَ له سوء عمله فرآه حسنًا، والمبتدع وكأنه يثبت لعقله صفة الكمال، ويتهم الشرع بالنقصان، والله يقول: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (سورة المائدة: ٣)، ولو أبصر لما خالف ما كان عليه رسول الله ﷺ، والصحابة الكرام، فهم عن علمه وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وكانوا أبَرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، والمبتدع يستحسن ما لم يستحسنه الشرع.

وكان الإمام الشافعي ـ رحمة الله عليه ـ يقول: «من استحسن فقد شرع»، ولو أعطى المبتدع هذا الحق لغيره لوجدنا بعدد الخلق أديانًا وشرائع، وكل واحد يستحسن ما يستقبحه الآخر.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: «نعم، من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة خلافًا لا يعذر فيه، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع».

والأصل في العبادات التوقيف والحظر والمنع، أي تؤخذ من الشرع دون زيادة أو نقصان، أما المعاملات فالأصل فيها الإباحة، إذا روعيت ضوابطها الكلية، وهذه كلمات عامة مجملة تنتقل منها إلى شيء من التفصيل والبيان.

تعريف البدعة لغة واصطلاحًا:

البدعة في اللغة:

الابتداء لا عن سابق مثال، والله سبحانه وتعالى بديع السموات والأرض، أي مبدعها، والبدعة: الحدث في الدين بعد الإكمال، وقيل: هي كل محدثة، ومعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ (سورة الأحقاف:٩)، أي: ما كنت أول من أرسل، وقد كان قبلي رسل، أما قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الحديد:٢٧)، ما أحدثه النصارى من تلقاء أنفسهم من رفض النساء والمطعم والمشرب، واتخاذ الصوامع.

والبدعة في اللغة قد تكون محمودة، وقد تكون مذمومة، والمحمودة منها ما أحدث من الخير ولم يخالف الشرع، كبناء المستشفيات والمدارس والملاجئ، ومن ذلك أيضًا ما روي عن عمر ﷺ في قيام رمضان: **«نعمت البدعة هذه»**، فإن النبي ﷺ صلى بهم القيام لبضع ليالٍ، ولكن خشية أن تفرض على الأمة امتنع من الصلاة بهم، فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى وخرج عمر ﷺ ووجد الرجل يصلي لنفسه والرجل يصلي بصلاته الرجل أو الرهطُ، جمعهم على أُبيٍّ بن كعب، وقال مقولته هذه، فقد وُجد المقتضي لفعله وانتفى المانع، فلم يعد بالإمكان أن تفرض عليهم لوفاة النبي ﷺ وانقطاع الوحي.

فالبدعة هنا بمعناها اللغوي، بالإضافة إلى أن عمر ﷺ هو أحد الخلفاء الراشدين، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي»**، فعمر ﷺ لم يبتدع في دين الله ما ليس منه.

البدعة في الاصطلاح:

قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ: «البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه، وقيل: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها، ما يقصد بالطريقة الشرعية».

فالبدعة هي الفعلة المخالفة للسنة، والمبتدعون يسمون بأهل البدع والأهواء، واعتقادهم المخالف للشرع يكون بنوع شبهة، لا بمعاندة.

بعض النصوص الواردة في ذم البدع:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله احتجز التوبة عن كل بدعة**» (رواه الترمذي والطبراني وحسنه الألباني)، وعن جابر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب أحمرت عيناه، وعلا صوته، . . .» الحديث، وفيه يقول: «**أما بعد... فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة...**» الحديث (راوه مسلم).

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذا موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين الراشدين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ ـ أقصى الأضراس ـ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**» (رواه أبو داود والترمذي، وقال: حسن صحيح).

وصح عنه ﷺ أنه قال: «**فإن لكل عبد شِرَّة ـ نشاط ورغبة ـ ولكل شرة فتره ـ ضعف وانكسار ـ فإما إلى سنة، وإما إلى بدعة، فمن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك**».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**» (رواه البخاري ومسلم)، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غُفر له ما تقدم وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «**هذه سبل متفرقة، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ (سورة الأنعام: ١٥٣). (رواه أحمد والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا فرطكم على الحوض، وليُرفعَنَّ معي رجال منكم، ثم ليُختلجن دوني، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**» (رواه البخاري ومسلم).

بعض الآثار الواردة في ذم الابتداع:

قال عمر رضي الله عنه: «إياكم وأصحاب الرأي، فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرأى، فضلوا وأضلوا».

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «**عليكم بالسبيل والسنة.. وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فانظروا أن يكون عملكم، إن كان اجتهاداً واقتصاداً أن يكون ذلك على منهاج الأنبياء وسنتهم**».

وقال حذيفة رضي الله عنه: «**يا معشر القراء، استقيموا فقد سبقتم سبقاً بعيداً، فإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً**»، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**قد أصبحتتم على الفطرة، وإنكم ستحدثون ويُحْدَثُ لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالهُدى الأول**».

وقال رضي الله عنه: «**الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة**».

وقال: «**تعلموا العلم قبل أن يُقبض، وقبضه أن يذهب أهله، ألا وإياكم والتنطع والتعمق والبدع، وعليكم بالعتيق**».

وقال: «**إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر**»، وقال: «**إن أصدق القول قول الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، والشقي من شقى في بطن أمه، وإن شر الروايا روايا الكذب، وشر الأمور محدثاتها، وكل ما هو آت قريب**».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «**كل بدعة ضلالة، وإن رآها الناس حسنة**».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «**إن أبغض الأمور إلى الله تعالى البدع**»، وقال: «**عليكم بالاستقامة والأثر، وإياكم والبدع**»، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٦-١٠٧)، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: «**فأهل السنة والجماعة وأهل العلم**»، و﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: «**فأهل البدع والضلالة**»، وقال لعثمان الأزدي: «**عليك بتقوى الله والاستقامة، اتبع ولا تبتدع**».

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «**لو خرج رسول الله ﷺ عليكم ما عرف شيئاً مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة**»، قال الأوزاعي: فكيف لو كان اليوم؟! قال عيسى بن يونس: فكيف لو أدرك الأوزاعيُّ هذا الزمان؟!

وقال أبو إدريس الخولاني: «لأن أرى في المسجد نارًا لا أستطيع إطفاءها أحب إليَّ من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها».

قالت أم الدرداء رضي الله عنها: «**دخل أبو الدرداء وهو غضبان، فقلت: ما أغضبك، قال: والله ما أعرف فيهم شيئًا من أمر محمد إلا أنهم يصلون جمعًا**».

قال ابن سيرين: «ما أخذ رجل ببدعة فراجع سنة»، وقال: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم».

وقد فرق بعض العلماء بين المتكلم ببدعته والساكت عليها، فلم يجيزوا الرواية عن الأول، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ** ﴾ (سورة الأنعام:١٥٣)، قال مجاهد: «البدع والشبهات»، وقال الحسن ـ رحمه الله ـ: «إنما هلك من كان قبلكم حين تشعبت بهم السبل، وحادوا عن الطريق، فتركوا الآثار، وقالوا في الدين برأيهم، فضلوا وأضلوا»، وسئل عن الصلاة خلف صاحب البدعة، فقال: «صل خلفه، وعليه بدعته»، وهذا إذا لم تكن البدعة مكفرة، وإلا فلا يجوز قياسه على من بصق في القبلة، فعزله النبي صلى الله عليه وسلم من الإمامة.

وقال الحسن: «لا يقبل الله لصاحب بدعة صومًا ولا صلاة ولا حجًا ولا عمرة حتى يدعها»، وقال: «صاحب البدعة لا يزداد اجتهادًا صيامًا وصلاة إلا ازداد من الله بعدًا»، وقال: «لا تجالس صاحب بدعة، فإنه يمرض قلبك».

وقال حسان بن عطية: «ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سُنتهم مثلها، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة».

وقال أيوب: «ما ازداد صاحب بدعة، اجتهادًا إلا ازداد من الله بعدًا».

قال يحيى بن كثير: «إذا لقيت صاحب بدعة في طريق فخذ في طريق آخر».

وقال الأوزاعي: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم».

وقال سفيان الثوري: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، والمعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها»، وقال مالك: «بئس القوم، هؤلاء أهل الأهواء، لا يُسلَّم عليهم»، وقال مالك ـ رحمه الله ـ: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (سورة المائدة: ٣)، فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا».

وقال الفضيل ـ رحمه الله ـ: «من جلس إلى صاحب بدعة فاحذروه»، وقال: «من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه»، وقال: «إذا رأيت مبتدعًا في طريق فخذ في طريق آخر، ولا يُرفع لصاحب البدعة إلى الله عزَّ وجلَّ عملٌ، ومن أعان صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام»، وقال: «من زوَّج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها»، وقال: «اتبع طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطريق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين»، وقال: من جلس مع صاحب بدعة لم يُعْطَ الحكمة»، وقال: «من علامة البلاء أن يكون الرجل صاحب بدعة»، وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «لأن يلقى الله العبدُ بكل ذنب ـ ما خلا الشرك ـ خيرٌ له من أن يلقاه بشيء من الأهواء ـ يعني البدع ـ».

كل بدعة ضلالة:

دل على ذلك النصوص والآثار التي أوردناها، فلا يلتفت لمن خالف ذلك وقال بوجوب أو استحباب بعض البدع!! والواجب التفريق بين العبادات ـ وهي توقيفية ـ والمعاملات ـ والأصل فيها الإباحة ـ.

قال ابن تيمية: العبادات مبناها على الشرع والاتباع، لا على الهوى والابتداع، فإن الإسلام مبني على أصلين:

أحدها ـ أن نعبد الله وحده لا شريك له.

والثاني - أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا نعبده بالأهواء والبدع؛ فليس لأحد أن يعبد الله إلا بما شرعه رسوله ﷺ من واجب ومستحب، لا أن نعبده بالأمور المبتدعة.

البدعة المذمومة شيء، والمصلحة المرسلة والاستحسان شيء آخر:

المصالح منها ما شهد الشرع لها بالاعتبار، ومنها ما شهد لها بالإلغاء، ومنها ما سكت عنها، فالأولى هي المصلحة المعتبرة، والثانية هي المصالح الملغاة، والثالثة هي المصالح المرسلة، مثل المصلحة التي اقتضت جمع القرآن وتدوين الدواوين، وتضمين الصناع، وقتل الجماعة بالواحد.

ولا خلاف بين العلماء في أن العبادات لا يجرى فيها العمل بالمصالح المرسلة، لأن أمور العبادة سبيلها التوقيف، فلا مجال فيها للاجتهاد والرأي، والزيادة عليها ابتداع في الدين، والابتداع مذموم، فكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وأشهر من عُرِفَ عنه الأخذُ بالمصالح المرسلة الإمام مالك ثم الإمام أحمد، والبعض أخذ بها في أحوال الاضطرار، أما الاستحسان فهو العدول عن قياس جلي إلى قياس خفي، أو استثناء مسألة جزئية من أصل كلي لدليل تطمئن إليه نفس المجتهد، ويقتضي هذا الاجتهاد أو ذاك العدولَ، فهو عند القائلين به ترجيح لدليل على دليل، أما الاستحسان بالهوى وبلا دليل فلا يجوز بلا خلاف بين العلماء.

البدعة الحقيقية والبدعة الإضافية:

البدعة الحقيقية بدعة محضة خارجة عن السنة من كل وجه، وإن كان لفاعلها شبهاتٌ يزعمها أدلة شرعية، مثل: الطواف بالقبور، والوقوف بغير عرفة، أما البدعة الإضافية فهي موافقة للشرع من جهة، ومفارقة له من جهة أخرى، فيكون دليلها مثلاً

من جهة أصل العبادة، أما جهة الكيفية وتفاصيلها على ما يؤديها به المبتدع، فلم يقم عليها دليل، من أمثلة ذلك الصلاة، فصلوات التطوع مندوبة، ولكن تخصيص أوقات معينة وكيفية معنية لصلوات لم يثبت في الشرع هذا التخصيص لها تعد بدعة، كصلاة الرغائب في رجب، وصلاة ليلة النصف من شعبان، وصلاة مؤنس القبر، وحسبنا أن ننكر كل البدع، سواء كانت حقيقية أو إضافية.

قال النووي ـ رحمه الله ـ في شرح حديث «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌ**»: هذا الحديث مما ينبغي أن يُعتني بحفظه واستعماله في إبطال المنكرات، وإشاعة الاستدلال به كذلك.

قاعدة أهل السنة والجماعة في رحمة أهل البدع والمعاصي:

البدعة سواء كانت مكفرة: كاعتقاد أن المخلوق بيده النفع والضر، أو أن له حق التشريع مع الله، أو غير مكفرة: كالتلحين في الآذان، وقراءة القرآن بصوت جهري قبل الجمعة وعلى المقابر والموتى ـ تستوجب تفنيد الشبهات وتوضيح المفاهيم، وإقامة الحجة الرسالية برفق ولين، إذ الوقت وقت غربة وجهالة، ولابد من إعانة العباد على طاعة ربهم لا إعانة الشياطين على نفوسهم، وتوضيح خطورة ومضار الابتداع، وأنه سبب في حبوط الأعمال، وأن صاحبه من أعوان الشيطان، وأن كل البدع ضلال، سواء تعلقت بالعقيدة أو العبادة، وسواء كانت فعلية أوتركية، وكلها مذمومة، وليس فيها شيء أحسن، وأن إثمها متجدد لا ينقطع.

٣ـ شهادة الزور

الزور: هو الميل عن الحق، وقيل: الكذب زور، لكونه مائلاً عن جهته، قال تعالى: ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (سورة الفرقان: ٤)، والزور أيضًا كل شيء يُتَّخذُ ربًّا، ويعبد من دون الله، وزوَّر الشهادة: أبطلها، والزور: مجالس اللهو، وشهادة الباطل، وقول الكذب، وقد يطلق بمعنى التزويق والتحسين.

وشهادة الزور من الكبائر، وقد عدلت شهادة الزور الشرك بالله، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ (سورة الفرقان: ٦٨)، ثم قال بعدها: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ (سورة الفرقان: ٧٢)، وقد ذكر البخاري ـ رحمه الله ـ هذه الآية تحت باب ما قيل في شهادة الزور، قال القرطبي: «شهادة الزور هي الشهادة بالكذب ليُتَوصل بها إلى الباطل من إتلاف نفس، أو أخذ مال، أو تحليل حرام، أو تحريم حلال» اهـ.

وشهادة الزور تحمل في طياتها جريمتين: الأولى ـ عدم تأديتها وظيفتها الصحيحة، والثانية ـ هضم الحقوق وظلم البرآء، والاستعانة بها على الإثم والبغي والعدوان.

وقال الذهبي: بعد أن عدها من الكبائر، «إن شاهد الزور قد ارتكب عظائم: أحدها ـ الكذب والإفتراء، ثانيها ـ أنه ظلم الذي شهد عليه، حتى أخذ بشهادته ماله وعرضه وروحه (أحيانًا)، ثالثًا ـ أنه ظلم الذي شهد له، بأن ساق إليه المال الحرام، فأخذه بشهادته، فوجبت له النار مصداقًا لقوله ﷺ: «**من قَضَيتُ له من مال أخيه بغير حق، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار**» (رواه البخاري)، رابعها ـ أنه أباح ما حرم الله تعالى وعصمه من المال الدم والعرض» اهـ.

وحكى بعضهم الإجماع على أن شهادة الزور كبيرة، ولا فرق بين أن يكون المشهود به قليلاً أو كثيراً، وقد ورد في ذم الزور قوله تعالى: ﴿ **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ** ﴾ (سورة الحج: ٣٠)، وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** ﴾ (سورة الفرقان: ٧٢)، وسمى سبحانه الظِّهار زوراً، وهو قول الرجل لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمي، فقال جلَّ وعلا: ﴿ **وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا** ﴾ (سورة المجادلة: ٢)، وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثًا)؟**»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الشرك بالله، وعقوق الوالدين**»، **وجلس وكان متكئًا، فقال: «ألا وقول الزور»؛ فمازال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.** (رواه البخاري).

ويفيد ذلك تأكيد تحريم الزور، وعظم قبحه، وسبب الاهتمام بذلك كون الزور، أو شهادة الزور أسهل وقوعًا على الناس، والتهاون بها أكثر، فإن الإشراك ينبو عنه قلب المسلم، والعقوق يصرف عنه الطبع، وأما الزور فالحوامل عليه كثيرة، كالعداوة والحسد، وغيرها، فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه، وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها من الإشراك قطعًا، بل لكون مفسدة الزور متعدية إلى غير الشاهد، بخلاف الشرك، فإن مفسدته قاصرة غالبًا.

وعن عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت: يا رسول الله أقول: إن زوجي أعطاني ما لم يعطني؟ فقال رسول الله ﷺ: «**المُتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبي زور**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» (رواه البخاري).

وعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: «قدم رجل من العراق على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: جئتك لأمر ما له رأسٌ ولا ذَنَبٌ، فقال عمر: **«وما ذاك؟»**، قال: شهادة الزور ظهرت بأرضنا، قال: **«وقد كان ذلك؟»**، قال: نعم، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **«والله لا يؤسر (لا يحبس) رجل في الإسلام بغير العدول»** (أخرجه مالك في «الموطأ»).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (سورة الحج: ٣٠): **«يعني الافتراء على الله والتكذيب»**.

وقال ابن كثير: «من» ها هنا لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وقرن الشرك بالله بقول الزور كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٣٣)، ومنه: شهادة الزور» اهـ.

إن شهادة الزور تطمس معالم العدل، وفيها ضياع الحقوق، وهي سبب لسخط الجبار، ودخول النار، وهي تقصف بالمجتمع وتدمره، وتقوض أركان الأمن، وتزعزع الاستقرار، وفيها إعانة للظالم على ظلمه، بالإضافة لزرع الأحقاد والضغائن في القلوب.

٤- الظلم

حد الظلم في اللغة والاصطلاح:

الظلم في اللغة: عبارة عن مجاوزة الحد، وفي الشرع: وضع الشيء في غير موضعه، وهو أيضًا عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وفيه نوع من الجور، إذ هو انحراف عن العدل، ويطلق على الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة لقمان:١٣)، وقال جلَّ وعلا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (سورة الأنعام:٨٢)، أي بشرك، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ (سورة طه:١١٢).

قال ابن رجب: «الهضم: أن ينقص من جزاء حسناته، والظلم: أن يعاقب بذنوب غيره، ومثل هذا كثير في القرآن، وهو ما يدل على أن الله قادر على الظلم، ولكن لا يفعله فضلاً منه وجودًا وكرمًا وإحسانًا إلى عباده، وأما من فسره بالتصرف في ملك الغير بغير إذنه، وقد نقل نحوه عن إياس بن معاوية وغيره، فإنهم يقولون: إن الظلم مستحيل عليه وغير متصور في حقه لأن كل ما يفعله فهو تصرف في ملكه، وبنحو ذلك أجاب أبو الأسود الدؤلي لعمران بن حصين حين سأله عن القدر».

وقال النووي في شرحه لصحيح لمسلم: «قال العلماء: معناه تقدست عنه وتعاليت، والظلم مستحيل في حق الله سبحانه وتعالى، أي لأن الظلم تجاوز الحد والتصرف في ملك الغير، وكيف يتجاوز سبحانه حدًا وليس فوقه من يطيعه؟ وكيف يتصرف في غير ملكه والعالم كله ملكه وسلطانه؟» اهـ.

أنواع الظلم:

قال البعض: الظلم ثلاثة:

الأول ـ ظلم بين الناس وبين الله تعالى:

وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة لقمان:١٣)، وإياه قصد بقوله: ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (سورة هود:١٨).

الثاني ـ ظلم بينه وبين الناس:

وإياه قصد بقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (سورة الشورى: ٤٠)، إلى قوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، وبقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ (سورة الشورى:٤٢).

الثالث ـ ظلم بين العبد وبين نفسه:

وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ (سورة فاطر:٣٢)، وقوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ (سورة القصص:١٦)، وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس، فإن الإنسان في أول ما يهمُّ بالظلم فقد ظلم نفسه.

قال الذهبي: «الظلم يكون بأكل أموال الناس وأخذها ظلمًا، وظلم الناس بالضرب والشتم والتعدي والاستطالة على الضعفاء»، وقد عده الكبيرة السادسة والعشرين، وبعد أن ذكر الآيات والأحاديث التي تتوعد الظالمين، نقل عن بعض السلف قوله: «لا تظلم الضعفاء فتكون من شرار الأقوياء»، ثم عدد صوراً من الظلم منها: أخذ مال اليتيم ـ المماطلة بحق الإنسان مع القدرة على الوفاء ـ ظلم المرأة حقها من صداق ونفقة وكسوة ـ ظلم الأجير بعدم إعطاءه الأجر. ومن الظلم البيِّن الجور في القسمة أو تقويم الأشياء، وقد عدها ابن حجر ضمن الكبائر.

ذم الظلم في كتاب الله:

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (سورة الكهف: ٥٩)، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة الزخرف: ٧٦)، وقال: ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ٥٧)، وقال: ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف: ٤٩)، وقال: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (سورة فصلت: ٤٦)، وقال: ﴿ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ (سورة الشورى: ٤٥)، والآيات كثيرة في القرآن الكريم تبين ظلم العبد لنفسه، وأن هذا الظلم على نوعين: الشرك، وهو أعظم الظلم كما بينا، والمعاصي، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (سورة فاطر: ١٣٢)، أما ظلم العبد لغيره بالعدوان على المال والنفس وغيرها، فهو المذكور في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (سورة الشورى: ٤٢).

الأحاديث تذم الظلم:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾** (سورة هود: ١٠٢)» (رواه البخاري ومسلم).

وفي الحديث: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**» (رواه مسلم، وخرج البخاري أوله).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت لأبي سلمة بن عبد الرحمن، وكان بينه وبين الناس خصومة: يا أبا سلمة اجتنب الأرض، فإن النبي ﷺ قال: «**من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وَطِّنُوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا**» (رواه الترمذي وقال: حسن غريب).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم كفل - نصيب - من دمها، لأنه كان أول من سنَّ القتل**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا** - ويشير إلى صدره ثلاث مرات -، **بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه**» (رواه مسلم).

بعض الآثار في النهي عن الظلم:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم**»، وكان معاوية رضي الله عنه يقول: «**إني لأستحي أن أظلم من لا يجد علي ناصراً إلا الله**»، وقال أبو العيناء: «كان لي خصوم ظلمة، فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود، وقلت: قد تضافروا عليَّ وصاروا يداً واحدة، فقال: يد الله فوق أيديهم، فقلت له: إن لهم مكراً، فقال: ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، قلت: هم من فئة كثيرة، فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله».

وقال يوسف بن أسباط: «من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يُعْصَى الله في أرضه».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**لما كشف العذاب عن قوم يونس عليه السلام ترادوا المظالم بينهم، حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه**».

وقال أبو ثور بن يزيد: «الحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه».

وقال غيره: لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم، لأوشك أن تخرب».

وقال بعض الحكماء: «اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يعجبك رَحْبُ الذارعين سفَّاكُ الدماء، فإن له قاتلاً لا يموت».

وكان يزيد بن حاتم يقول: «ما هِبْتُ شيئًا قط هيبتي من رجل ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله، فيقول: حسبك الله، الله بيني وبينك».

وبكى عليٌّ بن الفضل يومًا، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي على من ظلمني إذا وقف غدًا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة.

ونادى رجل سليمان بن عبد الملك ـ وهو على المنبر ـ: يا سليمان اذكر يوم الأذان، فنزل سليمان من على المنبر، ودعا بالرجل، فقال له: ما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿**فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ (سورة الأعراف: ٤٤).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إياك ودمعة اليتيم، ودعوة المظلوم، فإنها تسري بالليل والناس نيام».

وقيل: إن الظلم ثلاثة: فظلم لا يُغفر، وظلم لا يُترك، وظلم مغفور لا يُطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، والعياذ بالله تعالى، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ (سورة النساء: ٤٨)، وأما الظلم الذي لا يترك، فظلم العباد بعضهم بعضًا، وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب، فظلم العبد نفسه.

ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج، فقال: يا رب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين، فنام تلك الليلة، فرأى في منامه أن القيامة قد قامت، وكأنه قد دخل الجنة، فرأى ذلك المصلوب في أعلى عليين، وإذا منادٍ ينادي، حلمي على الظالمين أحلَّ المظلومين في أعلى عليين.

وقيل: «من سَلَبَ نعمةَ غيرِه سَلَبَ نعمتَه غيرُه»، ويقال: «من طال عدوانه زال سلطانه».

قال عمر رضي الله عنه: **«واتقِ دعوة المظلوم، فإن دعوة المظلوم مستجابة».**

وقال عليٌّ رضي الله عنه: **«إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الحق حتى استشرى، وبسطوا الجور حتى افتدى»**، وقيل: «أظلم الناس من ظلم لغيره»؛ أي أعانه لغيره ولمصلحته.

وقال ابن الجوزي: «الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها، لأنه لا يقع غالبًا إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب، ولو استنار بنور الهدى لاعتبر».

وقال ابن تيمية: «إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة»، ويروى: «إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة».

أسباب الظلم:

(أ) **الشيطان:** قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ (سورة البقرة: ٢٠٨)، وقال: ﴿**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (سورة المجادلة: ١٩).

(ب) النفس الأمارة بالسوء: قال تعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (سورة يوسف: ٥٣).

(جـ) الهوى: قال تعالى: ﴿ فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ (سورة النساء: ١٣٥)، وقال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (سورة النازعات: ٤٠-٤١)، وقال جلَّ وعلا: ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ (سورة الكهف: ٢٨)، والآيات كثيرة في هذا الباب.

أسباب تعين على ترك الظلم وتعالجه:

١ - **تذكر تنزيهه عزَّ وجلَّ عن الظلم:** قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (سورة فصلت: ٤٦)، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (سورة النساء: ٤٠)، وقال: ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٨).

٢ - **النظر في سوء عاقبة الظالمين:** قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (سورة مريم: ٧١-٧٢)، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (سورة هود: ١١٧)، وقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ٤٧).

٣ - **عدم اليأس من رحمة الله:** قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة يوسف: ٨٧، وعن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر رضي الله عنهما: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «**يدنو المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب**

أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله» (رواه مسلم).

وحديث الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا، والذي قال: «لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا لا يعذبه أحداً من العالمين» (رواه البخاري ومسلم)، وغيره شاهد على هذا المعنى.

٤ . استحضار مشهد فصل القضاء يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة الزمر: ٦٨-٧٠).

٥ . الذكر والاستغفار: قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٥).

٦ . كف النفس عن الظلم ورد الحقوق لأصحابها: التوبة النصوح أن يندم الإنسان بالقلب ويقلع بالجوارح، وأن يستغفر باللسان، ويسعى في إعطاء كل ذي حق حقه، فمن كانت لأخيه عنده مظلمة، من مال أو عرض، فليتحلل منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات، كما صح بذلك الخبر.

بعض آثار الظلم ومضاره:

الظلم يجلب غضب الرب سبحانه، ويتسلط على الظالم بشتى أنواع العذاب، وهو يخرب الديار، وبسببه تنهار الدول، والظالم يُحْرَمُ شفاعة رسول الله ﷺ بجميع أنواعها، وعدم الأخذ على يده يفسد الأمة، والظلم دليل على ظلمة القلب

وقسوته، ويؤدي إلى صغار الظالم عند الله وذلتـه، وما ضاعت نعمة صاحب الجنتين إلا بظلمه، ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ (سورة الكهف: ٣٥-٣٦)، وما دمرت الممالك إلا بسبب الظلم، قـال تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنعام: ٤٥)، وقال تعالى عن فرعون: ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة القصص: ٤٠)، وقال عن قوم لوط: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (سورة هود: ٨٢-٨٣).

وأهلك سبـحانه قوم نوح وعـاد وثمود وأصحـاب الأيكة، وقال: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٠)، وندم الظالم وتحسره بعد فوات الأوان لا ينفع، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ (سورة الفرقان: ٢٧).

والظلم من المعاصي التي تعجل عقوبتها في الدنيا، فـهو متعدٍ للغير وكيف تقوم للظالم قـائمة إذا ارتفـعت أكف الضراعـة من المظلوم، فقـال الله عزَّ وجلَّ: **«وعزَّتي وجلالي لأنصُرنَّك ولو بعد حين»**.

فاتق الله وأنصف من نفـسك، وسارع برد المظالم لأصحابهـا، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله.

٥- الغــرور

معنى الغرور لغةً وشرعًا:

قال صاحب اللسان: والغرور بمعنى الخداع، سواء كان للنفس أو للغير أو للنفس والغير معًا، تقول: غرَّه يغره غرورًا، أي خدعه، وغر نفسه يغرها غرورًا، يعني: خدعها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ (سورة النساء: ١٢٠).

وقال صاحب مختار الصحاح: الغرور - بالضم - ما اغتر به من متاع الدنيا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (سورة الإنفطار: ٦)، المراد: ما خدعك وسوَّل لك، وقيل: كيف اجترأت عليه ولم تخفه فأضعت ما وجب عليك، وهذا توبيخ وتبكيت للعبد الذي يأمن مكر الله تعالى.

وفي الحديث: «**لا غرار في الصلاة**»، وهو أن لا يتم ركوعها وسجودها، أما قوله تعالى: ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (سورة لقمان: ٣٣)، قيل: الغرور الشيطان، قال الزجاج: ويجوز الغرور (بضم العين) وهي الأباطيل وما اغتر به من متاع الدنيا.

وفي التنزيل العزيز: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (سورة لقمان: ٣٣).

أي إن لكم حظ ينقص من دينكم، فلا تؤثروا ذلك الحظ، والشيطان غرور لأنه يغر الناس بالوعد الكاذب والتمنية.

قال الجرجاني: الغرور: هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع، وقال الكفوي: الغرور هو تزيين الخطأ بأنه صواب، وقيل: هو إخفاء الخدعة في صورة النصيحة، وهو إعجاب الإنسان بنفسه وبعلمه وبدنياه وقد يصل بصاحبه إلى احتقار الآخرين وربما التسفية لآرائهم وأعمالهم.

ذم الغرور في كتاب الله تعالى:

وردت الآيات البينات تنهي عن الغرور، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ﴾ (سورة آل عمران: ١٩٦)، وقوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ (سورة الإنفطار: ٦)، وقوله جلَّ وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (سورة فاطر: ٥).

والغرور من شأن الظالمين والكفار، قال تعالى: ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا ﴾ (سورة فاطر: ٤٠).

وقال سبحانه: ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ﴾ (سورة الملك: ٢٠)، والغرور من عمل الشيطان ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ (سورة النساء: ١٢٠).

ولقبح الغرور أراد المنافقون اتهام المسلمين به، قال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة الأنفال: ٤٩).

والغرور مذموم سواء تلبس به الفرد أو الجماعة، وهو قاتلٌ لمن اتصف به كقوم نوح وعاد وفرعون وقارون.

الأحاديث الشريفة تنهى عن الغرور:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج في آخر الزمان رجالٌ يَخْتِلُونَ - يطلبون - الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عزَّ وجلَّ: أبيَّ يغترون أم عليَّ يجترئون؟، فبيَّ حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيرانًا**» (رواه الترمذي، وقال: حسن غريب).

وتوضأ عثمان بن عفان ﷺ ثم قال: رأيت النبي ﷺ توضأ وهو في المجلس فأحسن الوضوء، ثم قال: «**من توضأ مثل هذا الوضوء، ثم أتى المسجد، فركع ركعتين، ثم جلس غفر له ما تقدم من ذنبه**»، قال: وقال النبي ﷺ: «**لا تغتروا**» (رواه البخاري).

وعن شيخ من بني مالك بن كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: «**يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»، قال: وأبو جهل يحثي عليه التراب، ويقول: أيها الناس، لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم ولتتركوا اللات والعزى، قال: وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ . . . الحديث (رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح).

بعض أقوال العلماء في ذم الغرور:

قال ابن مسعود ﷺ: «**كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً**».

وقال علي ﷺ في خطبته: «**فلا تغرنكم الدنيا كما غرت من كان قبلكم من الأمم الماضية والقرون الخالية الذين اجتلبوا درتها (لبنها)، وأصابوا غرتها، وأفنوا عدتها، وأخلقوا جدتها، أصبحت مساكنهم أجداثًا (قبورًا) وأموالهم ميراثًا، فإنها غرارة (من الغرور) خدوع، معطية منوع، لا يدوم رخاؤها، ولا ينقضي عناؤها، ولا يركد بلاؤها**». وصاح بغلام له مرات، فلم يُلبِّه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال: مالك لم تجبني؟ قال: لثقتي بحلمك وأمني من عقوبتك، فاستحسن ذلك فأعتقه.

وقال ابن مسعود ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وسيخلو الله به يوم القيامة، فيقول له: يا ابن آدم ماذا غرك بي؟ يا ابن آدم ماذا عملت فيم علمت؟**».

ودخل أبو الدرداء ﷺ الشام فقال: «**يا أهل الشام، اسمعوا قول أخ ناصح**»، فاجتمعوا عليه، فقال: «**ما لي أراكم تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون؟، إن**

الذين كانوا قبلكم بنوا مشيداً، وأملوا بعيداً، وجمعوا كثيراً، فأصبح أملهم غروراً، وجمعهم بثوراً، ومساكنهم قبوراً».

وقال وهب بن منبه ـ رحمه الله ـ: قال الله لموسى: «انطلق برسالتي فإنك بسمعي وعيني، وإن معك يدي وبصري، وإني قد ألبستك جُنة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري، فأنت جند عظيم من جندي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، بطر نعمتي، وأمِن مكري، وغرته الدنيا عني، جحد حقي وأنكر ربوبيتي».

وعن أبي حازم قال: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال: ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه، فلما وضع بين يديه نظر إليه، فقال: أما لي كثيرٌ ما أخلف من الدنيا إلا هذا، ثم ولى ظهره وبكى، وقال: أف لك من دار إن كان كثيرك لقليل وإن كان قليلك لكثير، وإن كنا منك لفي غرور.

وعن الزهري ـ رحمه الله ـ قال: «من استطاع ألا يغتر فلا يغتر». وقال مسعر: «كم من مستقبل يومًا وليس يستكمله، ومنتظرٌ غدًا وليس من أجله، ولو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره».

وقال عون بن عبد الله: «إذا عصتك نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما أحببت، ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك».

قال الغزالي ـ رحمه الله ـ: «وكان أرباب البصائر، إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته، ورأوا ذلك علامة المقت والإهمال، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحبًا بشعار الصالحين، والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من عند الله، وإذا احترفت عنه ظن أنها هوان».

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ (سورة الإنفطار: ٦): «هذا تهديد لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب، حيث قال الكريم حتى يقول قائلهم: غره كرمه، بل المعنى في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم، أي العظيم، حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق، كما جاء في الحديث: «**يقول الله تعالى يوم القيامة: يا ابن آدم ما غرك بي؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟**»».

وقال ابن الجوزي: «من تفكر في عواقب الدنيا أخذ الحذر ومن أيقن الطريق تأهب للسفر، ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه، ويتحقق ضرر حال ثم يغشاه، ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٧)، تغلبك نفسك على ما تظن ولا تغلبها على ما تستيقن، أعجب العجائب سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك، عما قد جيء لك، تغتر بصحتك، وتنسى دنو السقم، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم، لقد أراك مصرعُ غيرك مصرعَك، وأبدى مضجعُ سواك ـ قبل الممات ـ بضجَعك، وقد شغلك نيل لذاتك عن ذكر خراب ذاتك».

وقال: «أعجب الأشياء اغترار الإنسان بالسلامة، وتأميله الإصلاح فيما بعد، وليس لهذا الأمل منتهى، ولا بالاغترار حدٌ».

وقال ـ رحمه الله ـ: «من الناس من يغره تأخير العقوبة، ومنهم من كان يقطع بالعفو، وأكثرهم متزلزل الإيمان، فنسأل الله أن يميتنا مسلمين».

بعض أسباب الغرور:

من أعظم أسباب الغرور الغفلة عما أعده الله للمغرورين من العقاب وللمتواضعين من الأجر والثواب، ومنها الإنصراف للدنيا والانشغال بها عن طلب الآخرة، ومنها سرعة الافتتان بالمال وبحسن الهيئة، ومنها تأثر الإنسان بالبيئة المحيطة

به كالأسرة والمدرسة والعمل، كما ورد في الحديث: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**» (رواه أبو داود والترمذي، وحسنه الألباني).

وقال علي ﷺ: «**الصاحب مناسب**»، وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «**ما من شيء أدل على شيء، ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب**»، وكما قالوا: قل لي من صاحبك؟ أقل لك من أنت، والطيور على أشكالها تقع، فاقتصار المعرفة على أهل الوجاهة واليسار قد تكون مدعاة للغرور، وكذلك إهمال النفس هو من أعظم الأسباب، قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ (سورة الشمس: ٧-٨)، وقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (سورة الحشر: ١٨)، وكذلك تواضع الآخرين المفرط، والتهاون في النصيحة، والعجب بالعمل قد يكون من أسباب الغرور، ولذلك قالوا: رب طاعة أورثت عزًا واستكبارًا، ورب معصية أورثت ذلاً وانكسارًا.

وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ يقول: «رحم الله عبدًا قال لنفسه النفيسة: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله، فكان لها قائدًا».

وقال بكر بن عبد الله المزني وهو بعرفة: «ما أحلى هذا الجمع، لولا أني فيهم». وكان بكر ـ رحمه الله ـ إذا رأى شيخًا قال: «هذا خير مني، هذا عَبَدَ اللهَ قبلي، وإذا رأى شابًا قال: هذا خير مني، ارتكبت من الذنوب أكثر مما ارتكب».

بعض مظاهر الغرور:

الغرور قد يترشح ويظهر في النظر إلى الآخرين نظرة إزدراء وتَنَقُّصٍ، وفي كثرة ذكر محاسن النفس على جهة الفخر، والتباهي والإدلال على الله عزَّ وجلَّ، وقد قال

سبحانه وتعالى: ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (سورة النجم: ٣٢)، وقال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة الحجرات: ١٧). كما يظهر الغرور أيضًا في عدم الخضوع لصولة الحق، ومن المعلوم أن الحق سيف مسلط على رقاب الخلق، والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها، ولما أخطأ أحد العلماء وراجعه إخوانه، قال: إذًا أرجع، ولئن أكون ذَنَبًا في الحق خير من أن أكون رأسًا في الباطل.

آثار الغرور ومضاره:

الغرور يتنافى مع العبودية الحقة لله تعالى، وفيه جهالة بحقيقة النفس، ومن شأنه أن يورث الكبر والعجب، وغيرهما من أمراض القلب، وهو يهلك الأمم ويصيب الأفراد بالأمراض النفسية الخطيرة، ويؤدي إلى الطغيان والكفر والفسق والفجور، وفيه جرأة عظيمة على الله تعالى.

وغرور الكفار والعصاة من أشد أنواع الغرور إلحاقًا للأذى وهو دليل فساد النفس، وخبث الطوية، والغرور بعفو الله يوقع في الهلاك، وكل من اتصف به فهو مذموم، سواء كان عالمًا أو عابدًا، فغرور العلماء بعلمهم يلهيهم عن العمل، وغرور العُبَّاد يفسد ثواب عملهم، كما أنه خسران في الدُّنيا وعذاب الآخرة.

والملاحظ أن المغرور يبتلى بنفسه، ويُحْرمُ التوفيق والتمكين من الله جلَّ وعلا، كما يكون سببًا في ابتعاد الناس عن المغرور لإعجابه بنفسه، واستبداده برأيه، ثم هو عُرضة للإنهيار في أوقات المحن.

الفرق بين الثقة بالله والغرور والعجز:

قال ابن القيم: «الفرق بينهما أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة وباذر الأرض، والمغتر العاجز قد فرط فيما أُمِرَ به، وزعم أنه واثق بالله، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود» اهـ.

قيل للحسن: قوم يقولون: نرجو الله ويضيعون العمل، فقال: هيهات، تلك أمانيهم يترجحون فيها، من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف شيئًا هرب منه.

وأظهر أنواع الغرور وأشدها غرور الكفار والعصاة والفُسَّاد، كما بين الغزالي، وذكر أصناف المغترين من العلماء والعُبَّاد، والمتصوفة وأرباب الأموال، وأوضح أن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه خلاف ما هو به، ولكن ليس كل جهل غروراً.

علاج الغرور:

يجب على الإنسان أن ينظر في عواقب الغرور وآثاره، وأن يقف مع نفسه وقفة محاسبة ومراجعة، **«فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني..»** (رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه)، كما أن عليه أن يهتم بالنصيحة، ويطلبها من ناصح أمين، وأن يداوم النظر في كتاب الله تعالى، ويتأمل في سنة النبي ﷺ وأن يطالع سيرة السلف الصالح، وكيف كان تواضعهم، وأن يبتعد عمن يعين على هذا الداء، ويفر منه فراره من الأسد، وبخاصة من يُفْرِطُون في مدحه والثناء عليه، وأن يكثر من الدعاء، وقد كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ: **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»**.

٦ـ الغضـب

معنى الغضب في اللغة والشرع:

الغضب نقيض الرضا، وهو اشتداد السُّخط.

قال ابن عرفة: الغضب من المخلوقين شيء يداخل قلوبهم، ومنه محمود ومذموم، فالمذموم ما كان في غير الحق، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق، وأما غضب الله تعالى فهو من صفات الأفعال لله عزَّ وجلَّ حقيقة على ما يليق بجلاله، وأما لازم الغضب فهو إنكاره على من عصاه، ومعاقبته إياه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ (سورة الأنبياء:٨٧)، قيل: مغاضبًا لربه، وقيل: مغاضبًا لقومه، وقال ابن سيده: والأول أصح، لأن العقوبة لم تحل به إلا لمغاضبته ربَّه، وقيل المعنى: ذهب مراغمًا لقومه، وقال القرطبي: المعنى مغاضبًا من أجل ربه، كما تقول: غضبت لك أي من أجلك، والمؤمن يغضب لله تعالى إذا عُصِيَ، ورُوِيَ عن الأخفش: أنه خرج مغاضبًا للملك الذي كان على قومه، وحاصل ما قيل في معنى الغضب أنه فوران وغليان دم القلب بطلب الانتقام.

تفاوت الناس في الغضب على درجات:

قال الغزالي: ويتفاوت الناس في قوة الغضب على درجات ثلاث، وهي التفريط، والإفراط، والاعتدال، وأوضح أن:

١ ـ **التفريط:** يكون إما بفقد قوة الغضب بالكلية أو بضعفها، وحينئذ يقال للإنسان إنه لا حمية له، ويُذمُّ جدًا، ومن هنا قال الشافعي ـ رحمه الله تعالى: من

استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومثل هذا يحتمل الذل من الأخساء، وعنده من صغر النفس وعدم الأنفة ما يجعل الآخرين يتعرضون لزوجته ومحارمه.

٢ ـ **الإفراط:** ويكون بغلبة هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين والطاقة، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكر ولا اختيار، بل يصير في صورة المضطر، وصاحب هذه الصورة قد يكون بالفطرة مستعدًا لسرعة الغضب، أو خالط قومًا تغلب عليهم هذه الصفة، ويسمونها شجاعة ورجولة.

٣ ـ **الاعتدال:** وهو المحمود، وذلك بأن ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفىء حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده، وهو الوسط الحق بين الطرفين، أرق من الشعرة وأدق من السيف، فإن عجز عنه فليطلب القرب منه.

أسباب الغضب:

أوضح الغزالي أيضًا أن من أسباب الغضب: الزهو والعجب والمزاح، والهزل والهُزء والتعيير والمماراة والمضادة (العناد) والغدر، وشدة الحرص على فضول المال والجاه، ومن أشد البواعث عليه عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة، وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلاً، حتى تميل النفس إليه وتستحسنه، وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة، والنفس مائلة إلى التشبه بالأكابر، فيهيج الغضب إلى القلب بسببه.

غضب الله، والحذر من تأويل آيات الصفات:

من الغضب ما يكون محمودًا، وذلك إذا صدر من الله عزَّ وجلَّ، ومن ذلك غضبه تعالى على أعدائه من اليهود والكفار والمنافقين والطغاة والمتجبرين، قال تعالى:

﴿ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ (سورة طه: ٨١)، وقال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم ⑥ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ (سورة الفاتحة: ٦-٧)، وقال عن الكفار من قوم هود: ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان﴾ (سورة الأعراف: ٧١)، وقال: ﴿من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ (سورة النحل: ١٠٦)، وقال: ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ (سورة المجادلة: ١٤).

وقد ذكر البعض أن معنى الغضب هو إرادة العذاب أو العقاب، وهذا من التأويل المذموم، ومن جملة صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر، والواجب أن يمرر اللفظ، وأن يقال: الصفة سيقت في مساق المدح، ولن يصف الله أعلمُ بالله من الله، ولا أعلم بالله من رسول الله ﷺ، وأن غضبه ـ سبحانه ـ ليس كغضب المخلوقين، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (سورة الشورى: ١١)، فكما أن ذاته سبحانه لا تشبه ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته جلَّ وعلا لا تشابه صفات المخلوقين.

غضب الأنبياء لله من الغضب المحمود أيضًا:

يكون الغضب محمودًا إذا كان لله عزَّ وجلَّ عندما تنتهك حرماته، وقد أثبت القرآن ذلك للرسل الكرام في مواضع عديدة، قال تعالى عن نبيه عليه السلام: ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي﴾ (سورة طه: ٨٦)، وقال: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ (سورة

الأعراف: ١٥٤)، وقال عن ذي النون عليه السلام: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٧).

ومن صور غضب النبي ﷺ لله عزَّ وجلَّ ما روته عائشة رضي الله عنها أنها قالت: رخص رسول الله ﷺ في أمر، فتنزه عنه ناس من الناس، فبلغ ذلك النبي ﷺ فغضب حتى بان الغضب في وجهه، ثم قال: «**ما بال أقوام يرغبون عما رُخص لي فيه، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلانٌ فيها، فغضب رسول الله ﷺ، ما يأتيه غضب في موضع أشد غضبًا منه يومئذ، ثم قال: «**يا أيها الناس إن منكم منفرين، فمن أمَّ الناس فليتجوز- فليخفف- فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: «كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضبًا، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل، حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء: ونحن عنده، فقال ﷺ: «**أما صاحبكم هذا فقد غامر**» (سبق بالخير)، قال: وندم عمر رضي الله عنه على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ - الخبر - قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله، لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «**هل أنتم تاركون لي صاحبي، هل أنتم تاركون لي صاحبي، إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت**» (رواه البخاري).

بعض الأحاديث الواردة في ذم الغضب:

عن سليمان بن صُرَدٍ رضي الله عنه أنه قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضبًا، قد أحمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟! قال: «**إني لست بمجنون**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه، فأبت، فبات غضبان عليها؛ لعنتها الملائكة حتى تصبح**»، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضجع**» (رواه أبو داود وأحمد وإسناده حسن).

وفي الحديث: «**إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**» (رواه أبو داود وأحمد، وهو حسن).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**علموا ويسروا ولا تعسروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت**» (رواه أحمد، وصحح أحمد شاكر إسناده).

وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله، أوصني، قال: «**لا تغضب**»، قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله. (رواه أحمد).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ لأربع مضين من ذي الحجة أو خمس، فدخل عَلَيَّ وهو غضبان، فقلت: من أغضبك يا رسول الله، أدخله الله النار؟، قال: «**أوما شعرت أني أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون، ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدى معي حتى أشتريه، ثم أَحِلُّ كما حَلوا**» (رواه البخاري ومسلم).

بعض الآثار الواردة في ذم الغضب:

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة فصلت: ٣٤)، قال: «**الصبر عند الغضب، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا عصمهم الله وخضع لهم عدوهم**».

وعن ذي القرنين ـ رحمه الله ـ أنه لقى مَلَكًا من الملائكة، فقال: علمني علمًا أزد به إيمانًا ويقينًا، قال: لا تغضب، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فَرُدَّ الغضب بالكظم، وسكِّنْهُ بالتُّؤدَة، وإياك والعجلة؛ فإنك إذا عجلت أخطأت حظك، وكن سهلاً لينًا للقريب والبعيد، ولا تكن جبارًا عنيدًا.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه، وما علمُك بحلمه إذا لم يغضب؟ وما علمك بأمانته إذا لم يطمع؟**».

قال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: «**مكتوبٌ في الحِكَم: يا داود إياك وشدة الغضب، فإن شدة الغضب مفسدة لفؤاد الحكيم**».

وقال جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ: «الغضب مفتاح كل شر»، وقال عمران بن موسى المؤدب: قال بعض الحكماء: «كما أن الأجسام تعظم في العين يوم الضباب، كذلك يعظم الذنب عند الغضب»، قال الماوردي: مكتوب في التوراة: «يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرْك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق»، وقال البعض: «من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار»، وقالوا: «إياك والغضب، فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار»، وقالوا: «اتقوا الغضب، فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصَّبْرُ العَسَلَ»، وقال بعضهم: «ما أمْلَكَ فلانًا لنفسه!، قال: إذا لا تذله الشهوة، ولا يصرعه الهوى، ولا يغلبه الغضب».

بعض مضار الغضب:

الغضب يُغضب الرحمن ويُرضي الشيطان، ويؤول إلى التقاطع وإفساد ذات البين، ويتولد منه الحقد والحسد، وكثيرًا ما يعقبه الاعتذار والندم، وقد يكون بعد فوات الأوان، ويحول دون الاستفادة من الموعظة والعبرة، وقد يؤذي البدن ويتسبب في نفرة الخلق، وكم من جريمة ارتُكبت، وعقوقٍ حدث، وطلاقٍ تم بسبب الغضب، بل صار الغضب مدعاة لإسقاط حكم الطلاق عند البعض ولو درى لعلم أن الطلاق الذي لا يحتسب عند الغضب، هو ما كان في إغلاق، بحيث يستغلق على العبد عقله ومقصوده، وقد لا يدري السماء من الأرض، ويصير أشبه بالمجنون، ولو قيل له طَلَّقْتَ، ربما قال: والله ما طلقتُ، فلنتق الله حتى لا تخرب بيوتنا بأيدينا، فالمعاشرة مع الزوجات، والاحتكاك بعموم الخلق لا تخلو من منغصات ومكدرات، وعلى العبد أن ينظر في عواقب أمره، ويعالج مشاكله بعيدًا عن تهديم الأسر، وإضاعة النفوس في العاجل والآجل بسبب الغضب.

علاج الغضب:

ثوران وفوران الغضب يعالج بأمور كثيرة منها: الإكثار من ذكر الله، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ (سورة الكهف:٢٤)، قال عكرمة: يعني؛ إذا غضبت، وأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأن ينظر في عواقب الغضب ومضاره، وأن يتفكر في النصوص والآثار الواردة في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال وحسن الصفح، وثواب ذلك، وأن يخوف الإنسان نفسه بعقاب الله تعالى، وهو أن يقول: قدرة الله عليَّ أعظم من قدرتي على هذا العبد، فلو أمضيت فيه غضبي؛ لم آمن أن يُمضِ الله عزَّ وجلَّ غضبه عليَّ يوم القيامة، فأنا أحوج ما أكون إلى العفو، وأن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، وتشمير العدو في هدم أغراضه والشماتة

بمصائبه، وأن يتحول في الحال التي كان عليها، فإن كان قائمًا جلس، وإن كان جالسًا اضطجع، وعليه أن يتوضأ أو يستنشق بالماء، وأن يتفكر العبد في قبح صورته عند الغضب، ونفرة الخلق منه وابتعادهم عنه حتى يكف عن متابعة الغضب، وعليه أن يقوم مقام الطبيب مع مريضه، وأن مرضه القاتل وعلته المهلكة هي الغضب، فيذكر نفسه دومًا بقول النبي ﷺ للرجل: «**لا تغضب**»، فإذا سَلِمَ وبرأ ونجا فليحمد الله، وليعلم أنه الموفق سبحانه، «وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

٧- انتهاك الحرمات

فضلت الشريعة بعض الساعات على بعض، كساعة الإجابة يوم الجمعة، وبعض الليالي على بعض، كليلة القدر، وبعض الشهور على بعض، كرمضان وذي الحجة، وبعض الأيام على بعض، كيوم عرفة، ويوم النحر، وبعض الناس على بعض كالأنبياء والمرسلين، وبعض الأمكنة على بعض، كالحرم المكي، وشأن المسلم أن يعظم حرمة الزمان والمكان والأشخاص، وأن يدور مع إسلامه حيث دار، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (سورة الحج: ٣٢)، والخطر في انتهاك الحرمات كبير أثناء الخصومة والمشاحنة، والانتهاك الذي نعنيه هنا هو المبالغة في خرق محارم الشرع وإتيانها.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «لم يقدر الله حق قدره من هان عليه أمره فعصاه، ونهيه فارتكبه وحقُّه فضيعه، وذكره فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم من طاعته، فلله الفضلة من قلبه وقوله وعمله، هواه المقدم في ذلك كله، المهم أنه يستخف بنظر الله إليه، وإطلاعه عليه ـ وهو في قبضته ـ وناصيته بيده، ويعظم نظر المخلوق إليه، وإطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه،

يستحي من الناس ولا يستحي من الله، ويخشى الناس ولا يخشى الله، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد، وبذل النصيحة، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه، وقدمه على كثير من مصالحه، حتى إذا قام في حق ربه، قام قيامًا لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله، وبذل له من ماله ما يستحي أن يواجه به مخلوقًا مثله، فهل قَدَّرَ الله حق قدره من هذا وصفه؟ وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء» اهـ.

وقد وردت النصوص في ذم انتهاك الحرمات، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح - أشد البخل -؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**» (رواه مسلم).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ستة لعنتهم، ولعنهم الله، وكلُّ نبي كان: الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، والمتسلط بالجبروت ليعز بذلك من أذل الله، ويذل من أعز الله، والمستحل لحُرم الله، والمستحل من عترتي - أهل البيت - ما حرم الله، والتارك لسنتي**» (رواه الترمذي والحاكم وصحح إسناده).

وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضًا، فيجعلها الله عزَّ وجلَّ هباءً منثورًا**»، قال ثوبان: يا رسول الله، صفهم لنا، جلِّهم لنا، أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «**أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها**» (رواه ابن ماجه والمنذري، وصحح الألباني إسناده).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعدهما عنه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تُنتهك حرمات الله، فينتقم لله**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن جابر وأبي طلحة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**ما من امرىء يخذل امرءًا مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عِرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نُصرته، وما من امرىء ينصر مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك من حرمته، إلا نصره الله في موطن يحب نصرته**» (رواه أحمد وأبو داود).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قلا: «**أبغض الناس إلى الله ثلاثة: مُلحد في الحرم، ومُبتغٍ في الإسلام سُنة الجاهلية، ومطَّلب دم امرىء بغير حق ليُهريق دمه**» (رواه البخاري).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما المفلس؟**»، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار**» (رواه مسلم).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لم يُحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيُطلعها منكم مطلع. ينتهكها بعضكم. ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش أو الذباب**» (رواه أحمد وصحح أحمد شاكر إسناده).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**»، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (سورة المؤمنون: ٥١)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (سورة البقرة: ١٧٢)، ثم ذكر: «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام وغُذِيَ بحرام، فأني يستجاب لذلك؟» (رواه مسلم).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بيِّن والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشتبهات استبرأ لدينه وعِرضه، ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحِمَى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حِمَى، ألا إن حمى الله محارمه...» (الحديث رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه» (رواه البخاري ومسلم).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ (سورة الحج: ٢٥)، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لو أن رجلاً أراد بإلحاد فيه بظلم وهو بعدن أبْيَن، لأذاقه الله من العذاب الأليم».

وقال عمر رضي الله عنه: «يا أهل مكة، اتقوا الله في حرمكم هذا، أتدرون من كان ساكن حرمكم هذا؟ كان فيه بنو فلان، فأحلوا حرمته فهلكوا، وبنو فلان فأحلوا حرمته فهلكوا»، حتى عد ما شاء الله، ثم قال: «والله لأن أعمل عشر خطايا بغيره أحب إليَّ من أن أعمل واحدة بمكة».

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «ما من عبد ترك شيئًا لله إلا أبدله الله به ما هو خير منه، من حيث لا يحتسب، ولا تهاون به عبد فأخذ من حيث لا يصلح، إلا أتاه الله بما هو أشد عليه».

وقال سليمان بن التيمي: «إن الرجل ليصيب الذنب في السَّحَر، فيصبح وعليه مذلته»، وقال ذو النون المصري: «من خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية»، وقال بعض السلف: «ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية، ثم يهونها عليه، فالله الله في نفسك بأن تنتهك الحرمات فتعرض نفسك لغضب الله وأليم عذابه وهتك ستره سبحانه.

٨- طول الأمل

معنى طول الأمل:

هو الاستمرار في الحرص على الدنيا ومداومة الانكباب عليها مع كثرة الإعراض عن الآخرة وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ (سورة الحجر:٣). قال القرطبي: «أي يشغلهم عن الطاعة، قال ابن حجر: وفي الأمل سرٌّ لطيف لأنه لولا الأمل ما تهنى أحد بعيش ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، وإنما المذموم منه الاسترسال فيه، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة، فمن سلم من ذلك لم يكلف بإزالته». وسبب طول الأمل الجهل وحب الدنيا

بعض الآيات الدالة على ذم طول الأمل:

ورد ذم طول الأمل في كتاب الله، قال تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الحجر: ٢-٣).

وقال سبحانه عن اليهود: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة:٩٦).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة المؤمنون: ١١٢-١١٥).

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (سورة الحديد: ١٦).

طول الأمل مذموم في سنة رسول الله ﷺ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يزال قلب الكبير شابًا في اثنتين: في حب الدنيا، وطول الأمل**» (رواه البخاري)، **وخط النبي ﷺ خطوطًا، فقال: «هذا الإنسان وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب**» (رواه البخاري).

وعن عبد الله بن مسعود قال: **خط النبي ﷺ خطًا مربعًا، وخط خطًا في الوسط خارجًا منه، وخط خططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: «هذا الإنسان وهذا أجله محيطًا به، أوقد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا**» (روا البخاري).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»، وكان ابن عمر يقول: «**إذ أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**» (رواه البخاري).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**» (رواه الحاكم وقال على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمرُّ؟!» (رواه الترمذي، وقال: حديث حسن).

ولما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صحف موسى عليه السلام قال: «كانت عبراً كلها، عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم أطمأن إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل» (رواه البيهقي والبزار).

الآثار تنهى عن طول الأمل:

قال علي رضي الله عنه: «إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا وإن الدنيا ارتحلت مدبرة».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يطولن عليكم الأمد ولا يلهينكم الأمل، فإن كل ما هو آت قريب، ألا وإن البعيد ما ليس آتياً».

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني: مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس يُغفل عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض؟».

ودخل رجل على أبي ذر الغفاري رضي الله عنه فجعل يقلب بصره في بيته فقال: يا أبا ذر، أين متاعكم؟ فقال: «إن لنا بيتاً نتوجه إليه»، فقال: إنه لابد لك من متاع مادمت ها هنا، فقال: «إن صاحب المنزل لا يدعنا هاهنا».

ورُوي عن المسيح عليه السلام أنه قال: «من ذا الذي يبني على موج البحر داراً؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً».

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته: «لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أملاً من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا». قال أبو محمد بن علي الزاهد: «خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي: فانتبذ وقعد ناحية وهي تدفن، فجئت فقعدت قريبًا منه فتكلم، فقال: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آت قريب، واعلم أن أهل الدنيا جميعًا من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون، فما ندم عليه أهل القبور، أهل الدنيا عليه يقتتلون، وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون». وقال الغزالي: لقد قصم الموت رقاب الجبابرة، وكسر ظهر الأكاسرة وقصر آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة ـ فانظر هل وجدوا من الموت حصنًا وعزًا». وقال البعض: «كم من مستقبل يومًا لا يستكمله، ومنتظر غدًا لا يبلغه لو أدركتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره»، وقالوا: «كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، وعمره يقوده إلى أجله، وحياته تقوده إلى موته».

وقيل لمحمد بن واسع: كيف تجدك؟ قال: «قصير الأجل، طويل الأمل، مسيء العمل». كتب رجل إلى أخ له: «إن الحزن على الدنيا طويل، والموت من الإنسان قريب، وللنقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاء في جسمه دبيب، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل . . والسلام».

مضار طول الأمل:

إن طول الأمل يدفع إلى المعاصي، ويُبعد عن الطاعات، وهو من أسباب انتهاك الحرمات والتعدي على الآخرين وسلب حقوقهم، فأثبت أجلك بين عينيك واستحي من الله حق الحياء.

علاج طول الأمل:

الجهل وحب الدنيا هما سبب طول الأمل، فالعلاج يكمن في العلم بخطورة ومضار طول الأمل، وأن التسويف يورد صاحبه موارد الهلكة، وأن العبد يجب أن يكون حيث أمره مولاه، وأن يحذر أن يراه حيث نهاه، وكان حاتم الأصم يقول: «علمت أن رزقي لن يأخذه غيري فاطمأنت بذلك نفسي، وعلمت أن عملي لن يعمله غيري فأنا مشغول به، ورأيت الناس ينظرون إلى ظاهري، والله ينظر إلى باطني، فعلمت أن مراقبته أولى وأحرى، ورأيت الموت يأتي بغتة، فقلت: أبادره»، والفارق كبير بين الرجاء وطول الأمل، فمن رجا شيئًا طلبه، ومن خاف شيئًا هرب منه، فأين هذا من طول الأمل الذي آل بك لعدم الاستعداد لأمر الآخرة؟

وعلى العبد الذي يطلب العلاج أن يعرف حقيقة هذه الدار، وأنها نذالة وإلى كل نذل أميل، والأصل أن تلقاك بكل ما تكره، فإذا لاقتك بما تحب فهو استثناء، وتعب كلها الحياة والعجب من راغب في ازدياد، دخل ابن السماك على هارون الرشيد، فقال له الرشيد: عظني، وكان بيده شربة ماء، فقال له: يا أمير المؤمنين، لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم، قال: يا أمير المؤمنين لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم، فقال له: لا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة.

قال الفضيل بن عياض: «جُعل الخير كله في بيت واحد، وجعل مفتاحه الزهد في الدنايا، وجُعل الشر كله في بيت واحد، وجُعل مفتاحه حب الدنيا».

وقيل: «إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فرَّ، وإن تركته تبعك».

قل لنفسك: أين الأولون والآخرون؟ أين الذين ملأوا ما بين الخافقين فخراً وعزاً؟ أين الذين فرشوا القصور حريراً وقزاً؟ أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبةً وعزاً؟ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟ أفناهم الله مفني الأمم، وأبادهم مبيد الرمم، وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق تحت الجنادل والصخور، فأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم لم ينفعهم ما جمعوا، ولا أغنى عنهم ما اكتسبوا، أسلمهم الأحباء والأولياء، وهجرهم الإخوان والأصفياء، ونسيهم الأقرباء والبعداء، وكأن الموت فيها على غيرنا كُتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب، وكأن الذي نُشيِّع من الأموات سفر، عما قريب إلينا راجعون، نبوئهم أجداثهم، ونأكل تراثهم كأنا بعدهم مُخلدون.

عمِّروا الدنيا بطاعة ربكم، وأقيموا الحياة على منهاج النبوة، ولسان حالكم ينطق: ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴾ (سورة طه: ٨٤)، ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** ﴾ (سورة الفرقان: ٦٣).

٩- اتباع الهوى

معنى الهوى في اللغة والشرع:

الهوى: هو ميل النفس إلى الشيء، يقال: هذا هوى فلان، وفلانة هواه، أي مَهويَته ومحبوبته، وأكثر ما يستعمل في الحب المذموم، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ (سورة النازعات: ٤٠-٤١). ويقال: إنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه.

وفي قصة أسارى بدر قال عمر رضي الله عنه: «**فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ**»، وذكر الحديث. (رواه مسلم)، وفي السنن أن أعرابيًا قال للنبي ﷺ: جئت أسألك عن الهوى، فقال: «**المرء مع من أحب**».

وكل خالٍ هواء، قال تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (سورة إبراهيم:٤٣)، أي خالية لا تعي شيئًا، والهاوية جهنم لأن الكافر يسقط فيها، فهوى النفس مأخوذ من الخلو والسقوط لأنه خالٍ من كل شيء، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي، وقيل: سمى بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية، وقوله تعالى: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ (سورة الأنعام:٧١)، أي: استغوته وزينت له هواه ودعته إليه.

وهوى النفس: إرادتها، وقيل: محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه، قال تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (سورة النازعات: ٤٠)، معناه: نهاها عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصي الله عزَّ وجلَّ.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (سورة ص:٢٦). فمعناه: ولا تُؤْثر هواك في قضائك على الحق والعدل، فتجور عن الحق، فيضلك ذلك عن سبيل الله، وقيل: لا تقتدِ بهواك المخالف لأمر الله، فيضلك عن سبيل الله، أي عن طريق الجنة.

فالهوى إذًا: ميل الطبع إلى ما يلائمه، كما قال ابن الجوزي وابن القيم، وهو أيضًا ميل النفس إلى الشهوة.

حكم اتباع الهوى:

خُلِقَ الميل في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوى مُستَحِثٌّ لها لما يريده، كما أن الغضب دافعٌ عنه ما يؤذيه، فلا ينبغي ذمُّ الهوى مطلقًا، ولا مدحه مطلقًا، كما أن الغضب لا يذم مطلقًا ولا يمدح مطلقًا، وإنما يُذم المُفْرِطُ من النوعين، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار، ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه، أنه لا يقف فيه على

حد المنتفع به؛ أطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر؛ لأنه يندُر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده، كما أنه يندر في الأمزجة المزاج المعتدل من كل وجه، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه، وكذلك في السنة لم يجيء إلا مذمومًا، إلا ما جاء منه مقيدًا بما يخرج معناه عن الذم، كقولهم: هوى حسن، وهوى موافق للصواب، وقد قيل: الهوى كمينٌ لا يؤمن.

الهوى يُعمي ويصم:

قال الشعبي: وسُمِّيَ هوى لأنه يهوي بصاحبه، ومُطْلَقِه يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في العاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً، وإن كانت سببًا لأعظم الآلام عاجلاً وآجلاً، فللدنيا عاقبة قبل عاقبة الآخرة، والهوى يُعمي صاحبه من ملاحظتها، والمروءة والدين والعقل ينهى عن لذة تعقب ألمًا، وشهوة ثورت ندمًا، فكل منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك: لا تفعلي، والطاعة لمن غلب.

وأوضح ابن القيم: «أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها، لأنه قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لابد لهم منه، ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ به عُشر معشار اللتذاذ من يفعله نادرًا في الأحيان غير أن العادة مقتضية ذلك فيلقي نفسه في المهالك لنيل ما تطالبه به العادة، ولو زال عنه رَيْن الهوى لعلم أنه قد شقى من حيث قدَّر السعادة، واغتم من حيث ظن الفرح، وأَلِمَ من حيث أراد اللذة، فهو كالطائر المخدوع بحبة القمح، لا هو نال الحبة، ولا هو تخلص مما وقع فيه».

وقال ابن تيمية: «صاحب الهوى يعميه الهوى ويُصِمُّه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في الأمر، ولا يطلبه أصلاً، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما

يغضب له بهواه، فليس قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصده الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء ليُعظم هو ويُثنى عليه، أو لغرض من الدنيا، فلم يكن لله غضبه، ولم يكن مجاهدًا في سبيل الله، بل إن أصحاب الهوى يغضبون على من خالفهم وإن كان مجتهدًا معذورًا، لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم، وإن كان جاهلاً سيء القصد، ليس له علمٌ ولا حُسن قصد، فيفضي هذا إلى أن يحمدوا مَنْ لم يحمده الله ورسوله ﷺ، ويذمُّوا مَنْ لم يذمه الله ورسوله ﷺ، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله» اهـ.

أهل الأهواء والبدع:

هم أهل القبلة الذين لا يكون معتقدهم معتقد أهل السنة والجماعة، كالذين يكفِّرون بالكبيرة أو يقولون بعصمة الأئمة، أو بسقوط التكاليف عن الواصل بزعمهم، وكالذين يقدمون العقل على النصوص الشرعية . . . وقد صاروا فرقًا لاتباع أهوائهم، وبمفارقة الدين تشتت أهواؤهم فافترقوا، ولذلك برأ الله نبيه منهم بقوله: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام:١٥٩)، ومن علامات أهل الأهواء: أنهم يكفرون المخالف لهم بلا سبب موجب، وعادتهم التقاطع والتنافر والتباغض، أما أهل السنة فكانوا يتناظرون في المسألة، ما يقصدون بها إلا الخير، ولا يتقاطعون ولا يتدابرون، حذرًا من الفرقة التي نبه عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام:١٥٩)، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ (سورة آل عمران:١٠٥).

ولا يسلم العبد من الأهواء والبدع إلا بالرجوع إلى الكتاب والسنة، وأن يكون على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ والصحابة الكرام.

وما لم يكن يومئذ دينًا، فليس باليوم دينًا، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

بعض الآيات الواردة في ذم اتباع الهوى:

حذرت الآيات من اتباع الهوى، ووبخت أهل الأهواء، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (سورة البقرة: ٨٧)، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (سورة الأنعام: ١١٩)، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٧٦)، وقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (سورة الفرقان: ٤٣)، وقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (سورة الروم: ٢٩)، وقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (سورة محمد: ١٤)، وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (سورة النجم: ٢٣)، وقال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ (سورة القمر: ٣).

وقد حذر سبحانه نبيه ﷺ وأمته من اتباع أهواء الكفار والمنحرفين في مواضع كثيرة من كتابه، كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (سورة المائدة: ٤٩)، وقال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (سورة البقرة: ١٢٠)، وقال: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٤٥)، وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (سورة الكهف: ٢٨).

بعض الأحاديث الواردة في ذم اتباع الهوى:

قال قطبة بن مالك رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء**» (رواه الترمذي، وصحح الألباني إسناده).

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مما أخشى عليكم شهوات الغيِّ في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى**» (رواه أحمد والبزار والطبراني، وصححه الألباني).

وفي الحديث: «**ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة**» (رواه أبو داود).

وقال: «**إنه سيخرج من أمتي أقوام تَجَارَى - أي تتسابق - بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلبُ لصاحبه، لا يبقى منه عِرقٌ ولا مفصل إلا دخله**» (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كل ابن آدم أصاب من الزنا لا محالة، فالعين زناها النظر، واليد زناها اللمس، والنفس تهوى وتحدث - أي تتحدث - ويُصدق ذلك ويكذبه الفرجُ**» (رواه أحمد وهو في الصحيحين بمعناه).

وفي حديث أنس رضي الله عنه: «**وأما المهلكات: فشُحٌّ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**» (رواه البزار، وحسنه الألباني بمجموع طرقه).

وفي حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه: « ..... **حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوىً متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودَع العوام**» (الحديث رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وله شواهد يتقوى بها).

بعض الآثار في ذم اتباع الهوى:

قال عليٌّ رضي الله عنه: **«إن أخوف ما أخاف عليكم الهوى وطول الأمل؛ أما الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة».**

قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد، أي الجهاد أفضل؟ قال: «جهاد هواك».

وقال ابن تيمية: «جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً، حتى يخرج إليهم».

وقال المعتصم يومًا لبعض أصحابه: «يا فلان إذا نُصر الهوى ذهب الرأى».

قال عبد الملك بن قريب: مررت بأعرابي به رمد شديد، ودموعه تسيل على خديه، فقلت: ألا تمسح عينيك؟ قال: نهاني الطبيب عن ذلك، ولا خير فيمن إذا زُجر لا ينزجر، إذا أُمر لا يأتمر، فقلت: ألا تشتهي شيئًا؟، فقال: بلى، ولكني أحتمي، إن أهل النار غلبت شهوتهم حميتهم فهلكوا.

وقال بشر الحافي: «البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه».

وقال عطاء: «من غلب هواه عقله وجزعه صبره افتضح».

وقال أبو علي الثقفي: «من غلبه هواه توارى عنه عقله»، وقال ابن المبارك:

ومن البلاء وللبلاء علامة ▫■▫ أن لا يُرى لكِ عن هواك نزوعُ
العبدُ عبدُ النفس في شهواتها ▫■▫ والحُرُّ يَشْبَعُ تارة ويجوعُ

قال بعض السلف: «الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده»، وقالوا: «إذا أشكل عليك أمر لا تدري أيهما أرشد، فخالف أقربهما من هواك، فإن أقرب ما يكون الخطأ في متابعة الهوى».

وقال البعض: «إن شئت أخبرتك بِدَائِكَ، وإن شئت أخبرتك بدوائك، داؤك هواك، ودواؤك ترك هواك ومخالفته».

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ قال الحسن: «هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركِبه»، وقال أيضًا: «المنافق عبد هواه، لا يهوى شيئًا إلا فعله»، وقال معاوية: «المروءة ترك الشهوات، وعصيان الهوى، فاتباع الهوى يُزمن المروءة، ومخالفته ينعشها».

وقال ابن القيم: «إن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضادًا لما أنزله على رسوله، وجعل اتباعه مقابلاً لمتابعة الرسالة، وقسم الناس إلى قسمين: أتباع الوحي وأتباع الهوى، وهذا كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (سورة القصص: ٥٠)».

عواقب اتباع الهوى:

على العبد أن يتأمل كم أضاعت معصيته من فضيلة، وكم أوقعت في رذيلة، وكم أكلة منعت أكلات، وكم من لذة فوتت لذات، وكم من شهوة كسرت جاهًا، ونكست رأسًا، وقبحت ذكرًا وأورثت ذمًا، وأعقبت ذلاً، وألزمت عارًا لا يغسله الماء، غير أن صاحب الهوى عمياء.

كيف يتخلص العبد من اتباع الهوى:

بعون الله وتوفيقه يتم التخلص من هذه الآفة بعزيمة حر يغار لنفسه وعليها، وجرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة، وقوة نفس تشجعه، والشجاعة

كلها صبر ساعة، وملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه، وإبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده، وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى، وإيثار لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية، والتفكر في أنه لم يُخلق للهوى، وإنما هيء لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوى، وأن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالاً منه، فالحيوان قد يحسن التمييز بين ما ينفعه وما يضره، وأن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى، وأن يكون تحت قهر الشيطان، وأن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ونيل اللذة المطلوبة، وأن يعلم أن الهوى ما خالط شيئًا إلا أفسده، حتى وإن كان علمًا وزهدًا.

والشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه، وقد شبه سبحانه اتباع الهوى بالكلب، ويُخشى على من اتبع هواه أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر، وليس هو أهلاً أن يطاع ولا يكون إمامًا ولا متبوعًا، ولو تأملت السبعة الذين يظلهم الله عزَّ وجلَّ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وجدتهم إنما نالوا ذلك بمخالفة الهوى، فجاهد نفسك واستعن بالله، واستشعر أنه لا حول ولا قوة إلا به سبحانه.

١٠ـ سوء الخُلق

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل والظلم والشهوة والغضب. فالجهل: يُريه الحسَن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصًا، والنقص كمالاً، والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضا، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام ويُقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة ويتكبر في موضع التواضع، والشهوة: تحمله على الحرص، والشح والبخل، وعدم العفة والنهمة والجشع والذل والدناءات كلها، والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد والعدوان والسفه، ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق أخلاق مذمومة.

ومِلاكُ هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة، فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والخسة واللؤم والذل والحرص والشح وسفساف[1] الأمور والأخلاق، ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحِدَّة والفحش والطيش، ويتولد من تزوج أحد الخُلقين بالآخر أولاد غية (جمع غاوي وهو الضال) كثيرون، فإن النفس قد تجمع قوة وضعفًا فتكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر، وأذلهم إذا قُهِرَ، ظالمٌ عنوفٌ جبار، فإذا قهر صار أذل من امرأة، جبان عن القوي جريء على الضعيف، فالأخلاق الذميمة يولد بعضها بعضًا، كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضًا. اهـ.

---

(١) السَّفْسَاف: الرديء الحقير من كل شيء وعمل، جمعها (سفاسف).

لقد وردت النصوص تذم سوء الخلق: ومن ذلك ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**» (متفق عليه)، وفي الحديث: «**لا يدخل الجنة الجوَّاظ** (الجموع المنوع المختال في مشيته) **ولا الجعظري** (الفظ الغليظ المتكبر الذي يتمدح بما ليس فيه)» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

وكان من دعائه ﷺ في افتتاح الصلاة: «**اللهم اهدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، وقني سيء الأعمال وسيء الأخلاق لا يقي سيئها إلا أنت**» (رواه النسائي والدارقطني بإسناد صحيح)، وفي الحديث: «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء**» (رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح).

فالعبد يبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف في العبادة، وإن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله إن فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها وصيامها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «**هي في النار**»، قال: يا رسول الله فإن فلانة يُذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تتصدق بالأثوار (قطع الأقط) من الأقط (شيء يتخذ من مخيض اللبن الغنمي) ولا تؤذي جيرانها، قال: «**هي في الجنة**» (رواه أحمد والبزار وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح).

وقد وردت الأثار تذم سوء الخلق: فمن ذلك ما رواه مالك عن يحيى بن سعيد أن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ لقى خنزيراً بالطريق فقال له: انفذ بسلام، فقيل له: تقول هذا لخنزير؟ فقال عيسى بن مريم: «إني أخاف أن أعوِّد لساني المنطق بالسوء». وعن أبي حازم قال: السيء الخلق أشقى الناس به نفسه، ثم زوجته، ثم ولده، حتى إنه ليدخل بيته وإنهم لفي سرور فيسمعون صوته، فينفرون عنه فرقًا منه، وحتى إن

دابته لتحيد مما يرميها بالحجارة، وإن كلبه ليراه فينزو على الجدار، وإن قطه ليفر منه. قال الحسن: من ساء خلقه عذب نفسه، وعن عطاء في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٠)، قال: «كان في خُلقها سوء، وكان في لسانها طول، وهؤلاء بذاءٌ، فأصلح الله ذلك منها»، وصحب ابن المبارك رجلاً سيء الخلق في سفر فكان يتحمل منه، ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقال: «بكيته رحمة له، فارقته وخُلقه معه لم يفارقه»، وقال الفضيل بن عياض: «لا تخالط سيء الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى شر»، وقال أيضًا: «لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليَّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق»، وقال يحيى بن معاذ: «سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات».

وجمع بعضهم علامات سوء الخلق فقال: «أن يكون قليل الحياء كثير الأذى، قليل الصلاح، كذوب اللسان، كثير الكلام، قليل العمل، كثير الزلل، كثير الفضول، لا برًا ولا وصولاً، ولا وقورًا، ولا صبورًا ولا شكورًا، غير راضٍ، ولا حليمًا، ولا رفيقًا، ولا عفيفًا، ولا شفيقًا، لعانًا، سبابًا، نمامًا، مغتابًا، عجولاً، حقودًا بخيلاً، حسودًا، غضوبًا، نكدا، يحب في شهواته ويبغض فيها، فهذا هو سوء الخلق. قال الغزالي: «الأخلاق السيئة هي السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة، والرذائل الواضحة، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التي تطلع على الأفئدة»، وقال أيضًا: «الأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس، إنها أمراض تفوت على صاحبها حياة الأبد».

فتخلى ـ رحمك الله ـ عن سوء الخلق، وعليك بطاعة الله في العسر واليسر والمنشط والمكره، واعلم أن جماع حسن الخلق في أن تعطي من حرمك وتصل من

قطعك وتعفو عمن ظلمك، وأن البر شيء هين، وجه طليق وكلام لين، ولأن تصاحب وتقتني حية أهون من أن تعيش بخلق سيء، وأن حسن الخلق أعظم من الجواهر التي تحرص على اقتنائها، ولا تتعلل بالنشئة والبيئة وتبرر بذلك سوء الخلق، فإن الطباع والأخلاق تقبل التغيير والتهذيب ولذلك قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس: ٩-١٠)، فاستعن بالله، وتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٩)، صاحب الصالحين من عباد الله وإذا حدثت الخصومة فإياك وسوء الخلق، واعلم أنك لا تفعل أفضل من أن تطيع الله فيمن عصى الله فيك، وأن تتقي الله فيمن لا يتقي الله فيك، وأن تعدل فيمن جار عليك، وأن تكون عونًا للعباد على طاعة ربهم لا عونًا للشياطين على نفوسهم.

وردت الأحاديث والآثار تذم العنف: وتحث في المقابل على الرفق، ويتأكد ذلك في الخصومات فالتَجاري مع نزعات العنف قد تجر إلى أوخم العواقب:

■ عن عائشة رضي الله عنها أن يهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السَّام عليكم، فقالت عائشة: عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم، قال: **«مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق وإيَّاك والعنف والفحش»**، قالت: أولم تسمع ما قالوا؟!، قال: **«أولم تسمعي ما قُلت؟، رددت عليهم فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيَّ»** (رواه البخاري).

■ عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أُحدث به أحدًا من الناس، وكان أحبُّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفًا[١]، أو حائش[٢] نخل، قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار فإذا جملٌ، فلما

---

(١) **هدفًا**: الهدف ما ارتفع من بناء ونحوه.

(٢) **حائش**: حائط وهو السور الذي يحيط بالحديقة.

رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه[١]، فقال: «من رب[٢] هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل»، فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إيَّاها، فإنه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتدئبه[٣]» (رواه أبو داود).

■ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نساءٌ من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر: أضحك الله سِنَّكَ يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «عجبت من هؤلاء اللاتي كُنَّ عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب»، قال عمر: فأنت يا رسول الله أحق أن يهبن. ثم قال عمر: أي عدوَّات أنفسهن أتهبنني ولا تَهبن رسول الله ﷺ؟! قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ من رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك» (رواه البخاري).

■ عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أشار النبي ﷺ بيده نحو اليمين، فقال: «ألا إن الإيمان هاهنا، وإن القسوة وغلظ القلوب في الفدَّادين[٤] عن أصول أذناب الإبل، حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر» (رواه البخاري).

---

(١) ذفراه: ذفري البعير الموضع الذي يعرق من قفاه.

(٢) من ربه: من صاحبه.

(٣) تدئبه: تتعبه وتشقيه.

(٤) الفدادين: المراد به البقر التي يحرث عليها، وقيل الفدان: آلة الحرث والسكة.

■ عن معاوية بن الحكَمِ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني[١] لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني[٢] ولا ضربني ولا شتمني، قال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**» ـ أو كما قال رسول الله ﷺ ـ، قلت: يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية[٣] وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان، قال: «**فلا تأتهم**»، قال: ومنا رجال يتطيرون، قال: «**ذاك شيء يجدونه في صدورهم**[٤]، **فلا يصدنهم (قال ابن الصباح: فلا يصدنكم)**» قال: قلت: ومنا رجالٌ يخطون، قال: «**كان نبيٌ من الأنبياء يخطُّ**[٥]، **فمن وافق خطه فذاك**»، قال: وكانت لي جارية ترعى غنمًا لي قبل أحد والجوانية[٦]، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجلٌ من بني آدم، آسف كما يأسفون[٧] لكني صككتها صكة[٨] فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟، قال: «**ائتني بها**»، فأتيته

---

(١) **يصمتونني**: أي يسكتونني، غضب وتغيرت.

(٢) **كهرني**: قالوا: القهر والكهر والنهر، متقاربة. أي ما قهرني ولا نهرني.

(٣) **بجاهلية**: قال العلماء: الجاهلية ما قبل ورود الشرع، سموا جاهلية لكثرة جهالاتهم وفحشهم.

(٤) **ذاك شيء يجدونه في صدورهم**: قال العلماء: معناه أن الطيرة شيء تجدونه في نفوسكم ضرورة، ولا عتب عليكم في ذلك. لكن لا تمتنعوا بسببه من التصرف في أموركم.

(٥) **يخط**: إشارة إلى علم الرمل.

(٦) **قبل أحد والجوانية**: الجوانية بقرب أحد، موضع في شمال المدينة.

(٧) **آسف كما يأسفون**: أغضب كما يغضبون، والأسف الحزن والغضب.

(٨) **صككتها صكة**: أي ضربتها بيدي مبسوطة.

بها، فقال لها: «**أين الله؟**»، قالت: في السماء، قال: «**من أنا؟**»، قالت: أنت رسول الله. قال: «**أعتقها، فإنها مؤمنة**» (رواه مسلم).

■ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابيًا بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبًا من ماءٍ أو سجلاً**[1] **من ماءٍ فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**» (رواه البخاري).

■ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ، فهمَّ به أصحابه فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً**»، ثم قال: «**أعطوه سنًا مثل سنِّه**»، قالوا: يا رسول الله إلا أمثل من سنه، فقال: «**أعطوه فإن من خيركم أحسنكم قضاءً**» (رواه البخاري).

■ عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ خصوم بالباب عالية أصواتهما، وإذا أحدهما يستوضع[2] الآخر ويسترفقه[3] في شيء، وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج رسول الله ﷺ عليهما، فقال: «**أين المتألي**[4] **على الله لا يفعل المعروف**» قال: أنا يا رسول الله، ولَهُ أيُّ ذلك أَحَبَّ. (رواه البخاري).

■ عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «**اللَّهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به**» (رواه مسلم).

---

(١) **السجل**: الدلو المملوءة الكبيرة.

(٢) **يستوضع**: أي يطلب منه أن يضع ويسقط من دينه شيئًا.

(٣) **يسترفقه**: أي يطلب منه أن يرفق به في التقاضي.

(٤) **المتألي**: أي الحالف المبالغ في اليمين.

■ عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة[1]، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة» (رواه أبو داود، وإسناده حسن).

■ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ...﴾ الآية، قال: إي والله طهره من الفظاظة والغلظة، وجعله قريبًا رحيمًا رؤوفًا بالمؤمنين.

١١- سوء الظن

سوء الظن بالمسلم من الكبائر الباطنة، ومما يُذم به العبد أعظم مما يُذم على الزنا والسرقة وشرب الخمر، فقد يدفع إلى احتقار المسلم وعدم القيام بحقوقه، والتواني في إكرامه وإطالة اللسان في عرضه، وكل هذه مهلكات، وشأن المؤمن أن للناس المعاذير وذلك لسلامة باطنه، أما المنافق فهو الذي يطلب العيوب والزلات لخبث باطنه، وقد يسيء العبد الظن بربه، وهذه أيضًا كبيرة، بل هي أبلغ في الذنب من اليأس والقنوط لتجويزه على الله تعالى أشياء لا تليق بكرمه وجوده.

قال ابن القيم: أكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم فقلَّ من يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وهو موجب حكمته وحمده، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله تعالى ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتًا على القدر، وملامة

---

(١) المعجمة: التي لا تنطق.

له، يقول: إنه كان ينبـغي أن يكون كذا وكذا فمـستقل ومستكثـر، وفتش نفسك هل أنت سالم؟

فـإن تنج منهـا تنـج من ذي عظيمـة ▫▪▫ وإلا فـإني لا إخـالك ناجـيًـا

قال سفيان الثوري: «الظن ظنان: ظن إثم، وظن ليس بإثم. فأما الذي هو إثم: فالذي يظن ظنًا ويتكلم به، والذي ليس بإثم: فالذي يظن، ولا يتكلم به، والظن في كثير من الأمور مـذموم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (سورة يونس:٣٦)، وقال: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (سورة الحجرات:١٢)».

قال ابن قدامة: «فليس لك أن تظن بالمسلم شـرًا، إلا إذا انكشف أمرٌ لا يحتمل التأويل». وبالتـالي فالظن المحـرم هو سوء الظن بالله تعالى، وسـوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة، أمـا الظن المباح، فهو الذي يعرض في قلـب المسلم في أخيه بسبب ما يوجب الريبة. وهذا الظن لا يحقق بمعنى لا يُحكم به، ولا تجعله حقيقة.

وقد ذكر القرآن سوء الظن في مواضع كثيرة: قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (سورة البقرة:٧٨)، وقال سبحانه عن صاحب الجنتين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (سورة الكهف:٣٥)، وقالت عاد لنبيـهم هود: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة الأعـراف:٦٦)، وقال سبحـانه عن أهل الجاهلية: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (سورة آل عمران:١٥٤)، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (سورة ص:٢٧)، وقال: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة فصلت:٢٣).

وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا» (رواه البخاري ومسلم)، وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، إلا في غزوة تبوك . . . الحديث وفيه: «ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكًا فقال وهو جالس في القوم بتبوك: **«ما فعل كعب بن مالك؟»**، قال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُراده والنظر في عطفيه (أي جانبيه، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه)، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت. والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قال الله عزَّوجلَّ: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»** (رواه البخاري ومسلم)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رئاءً فنزلت: ﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ** ﴾ (سورة التوبة: ٧٩).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ** ﴾ (سورة الحج: ١١)، قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلامًا ونتجت خيله قال: «هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولمن تنتج خيله قال: هذا دين سوء»، (رواه البخاري)، وعن عائذ بن عمرو رضي الله عنه وكان من أصحاب رسول الله ﷺ دخل على عُبيد الله بن زياد فقال: أي بُني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن شر الرعاء الحطمة** (أي العنيف ضربه مثلاً لوالي السوء) **فإياك أن تكون منهم**»، فقال له: اجلس، فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ، فقال: «وهل كانت لهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم، وفي غيرهم» (رواه مسلم).

وعن سعيد بن المسيب قال: «كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ: أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمه خرجت من امرىء مسلم شرًا، وأنت تجد لها في الخير محملاً، ومن عرَّض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، وما كافيت من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تعالى فيه».

وعن عبد الله بن المبارك قال: جئت إلى سفيان عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه وعيناه تهملان فبكيت، فالتفت إليَّ فقال: ما شأنك؟ فقلت: من أسوأ هذا الجمع حالاً؟ قال: الذي يظن أن الله عزَّ وجلَّ لا يغفر لهم».

قال ابن القيم في تفسير قوله تعالى: ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ (سورة الفتح:٦): فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسول الله، وأن أمره سيضمحل وفسر أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يُتم أمر رسوله وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون، إنما كان هذا ظن السوء، لأنه ظن غير محترمًا ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظن أنه يُديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، وأنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (سورة ص:٢٧).

فلا تظنن بربك ظن سوء ... وإن الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قط خيراً ... فكيف بظالم جانٍ خجول
وظن بنفسك السوءى تجدها ... كذلك خيرُها كالمستحيل

١٢- الخيانة

الخيانة ضد الأمانة، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ (سورة الأنفال: ٢٧)، فخيانتهم لله ورسوله كانت بإظهار من أظهر منهم للرسول ﷺ والمؤمنين الإيمانَ في الظاهر، وهو يستسر الكفرَ والغشَ لهم في الباطن، ويدلون المشركين على عوراتهم، ويخبرونهم بما خفي من خبرهم، قيل: نزلت في منافق كتب إلى أبي سفيان يطلعه على سر المسلمين، وقوله: ﴿وتخونوا أماناتكم﴾، هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله، وقيل: هي الدسُّ والاختيان (تحرك شهوة الإنسان لتحري الخيانة)، قال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة البقرة: ١٨٧)، وخائنة الأعين: ما يسارق من النظر إلى ما لا يحل، أو ينظر نظرة ريبة، ومنه الحديث: «**وما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين**» (رواه أبو داود) أي يضمر في نفسه غير ما يظهره، فإذا كف لسانه وأومأ بعينه فقد خان.

وقد عدها الإمام الذهبي من الكبائر، بدليل قول النبي ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد خلف، وإذا ائتمن خان**» (رواه البخاري ومسلم)، وقال: الخيانة قبيحة في كل شيء، وبعضها شر من بعض، وليس من خانك في فَلْسٍ كمن خانك في أهلك ومالك، وارتكب العظائم، والخيانة خصلة من خصال النفاق، وهي مخالفة الحق بنقض العهد في السر، ويُخشى على الإنسان إن استحكمت خيانته أن تؤول للنفاق الأكبر، النفاق الاعتقادي، كنفاق عبد الله بن أبي بن سلول، فيكون في الدرك الأسفل من النار، وقد وردت كلمة الخيانة في القرآن الكريم على معانٍ:

منها: المعصية، قال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة البقرة: ١٨٧)، أي تخونوها بالمعصية.

ومنها: نقض العهد، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ (سورة الأنفال: ٥٨).

ومنها: ترك الأمانة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (سورة النساء: ١٠٥)، نزلت في طعمة بن أبيرق المنافق، كان عنده درع فخانها.

ومنها: المخالفة في الدين، قال تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ (سورة التحريم: ١٠).

وقد ترد الخيانة بمعنى الزنا، كما في قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (سورة يوسف: ٥٢).

ويكفي في ذم الخيانة أن الله تعالى لا يحب أهلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (سورة الحج: ٣٨)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (سورة النساء: ١٠٧).

ولا يجوز خيانة النفس أو الغير، كما لا يجوز الإعانة عليها، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (سورة يوسف: ٥٢)، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (سورة النساء: ١٠٥).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**» (رواه البخاري ومسلم).

وقال ﷺ: «**وأهل النار خمسة**» الحديث، وذكر منهم: «**الخائن الذي لا يخفى له طمع، وإن دق، إلا خانه**» (رواه مسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بئست البطانة**» (رواه أبو داود وحسنه الألباني).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذي يلونهم**»، قال عمران: «لا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة».

قال النبي ﷺ: «**إن بعدكم قومًا يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَنُ**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**سيأتي على الناس سنون يُصدَّق فيها الرويبضة**»، **قال: قيل: يا رسول الله، ما الرويبضة؟، قال: «السفيه يتكلم في أمر العامة»** (رواه أحمد وابن ماجه والحاكم، وصحح إسناده ووافقه الذهبي).

وفي الحديث: «**أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**» (رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني).

وفي الحديث: «**لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة**» (الحديث رواه أحمد، وصحح أحمد شاكر إسناده).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**لولا بنوا إسرائيل لم يخبث الطعام، ولم يخنز اللحم - ينتن -، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من تقوَّل عليَّ ما لم أقل، فليتبوأ مقعده من النار، ومن أفتى بغير علم كان إثم ذلك على من أفتاه، ومن استشاره أخوه المسلم فأشار عليه بغير رشد فقد خانه**» (رواه أحمد وأبو داود وحسنه الألباني).

وعن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ يقول: «أقام رجل سلعته، فحلف بالله لقد أُعْطِيَ بها ما لم يُعطها، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (سورة آل عمران:٧٧)، قال ابن أبي أوفى: الناجش: آكل ربًا خائن» (رواه البخاري).

وفي حديث حذيفة عن رفع الأمانة وقبضها، قال النبي ﷺ: **«فيصبح الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أمينًا»** (الحديث رواه البخاري ومسلم).

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه حقه»** (رواه البخاري).

وعن عدي بن حاتم قال: «أتينا عمر في وفد، فجعل يدعو رجلاً رجلاً، ويسميهم، فقلت: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: **«بلى، أسلمت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذا غدروا، وعرفت إذ أنكروا»**، فقال عديٌّ: فلا أبالي إذًا» (رواه البخاري).

الخيانة بئست البضاعة، ولا يجوز العمل على مستوى الفرد والدولة والجماعة، وهي أسوأ ما يبطن الإنسان، ولا يصح أن تكون على جهة المقابلة، أو أن تكون في مواجهة الخيانة، فهي تسخط الله عزَّ وجلَّ وهي من علامات النفاق، ومن أمارات الساعة، وطريق يوصل إلى العار في الدنيا، والنار في الآخرة، والغلول والرشوة والمطل والغش من صورها، وخيانة المجاهد في أهله أعظم جرمًا من خيانة غير المجاهد، فمن التغرير بالنفس أن نعتبرها من علامات الذكاء والفطنة، أو أن نستخدمها بدافع الانتقام والشهوة.

١٣ـ التجسس

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(سورة الحجرات: ١٢).

قال الطبري: «لا تجسسوا» أي: لا يتتبع بعضكم عورة أخيه، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه» اهـ.

فالتجسس هو التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، وهو السؤال عن عورات الإخوان وتتبعها، بحيث يطلع على سرهم.

وفي قراءة لأبي رجاء والحسن: «ولا تحسسوا» بالحاء، قال القرطبي: واختلف هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟ فقال الأخفش: ليس تبعد إحداهما عن الأخرى، لأن التحسس: البحث عما يُكتم عنك، والتجسس: طلب الأخبار والبحث عنها.

ومعنى الآية: خذوا ما ظهر، ولا تتبعوا عورات المسلمين، أي: لا يبحث أحدكم عن غيب أخيه، حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله.

وأكثر العلماء على التفريق بين التجسس والتحسس، فالتحسس: أن يطلب الخبر لغيره، والتجسس أن يطلبه لنفسه.

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «والتجسس غالبًا يطلق في الشر، ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالبًا في الخير، كما قال عزَّ وجلَّ إخبارًا عن يعقوب: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾(سورة يوسف: ٨٧)، وقد

يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**» اهـ.

والحديث الذي ذكره ابن كثير - رحمه الله - رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه قال: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»(رواه مسلم).

وقد ورد في الحديث: «**إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم**»(رواه أبو داود، وصححه الألباني).

وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم، أوكدت تفسدهم**»(رواه أبو داود).

وفي الحديث: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته**»(رواه أبو داود، وقال الألباني: حسن صحيح).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إنا قد نُهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء، نأخذ به**» (رواه أبو داود).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾(سورة الحجرات:١٢)، قال: «**نهى الله المؤمن أن يتبع عورات أخيه المؤمن**».

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «أنه حرس مع عمر بن الخطاب ليلةً المدينةَ، فبينما هم يمشون شبَّ لهم سراج في بيت، فانطلقوا يؤمونه - يقصدونه - فلما دنوا منه، إذا باب مجاف - مغلق - على قوم، لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر وأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف: أتدري بيت من هذا؟ قال: هذا بيت ربيعة بن أمية

بن خلف، وهم الآن شُرُب ـ سكارى ـ فما ترى؟ قال: أرى أن قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ فقد تجسسنا فانصرف عنهم، وتركهم».

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ (سورة التوبة:٤٧)، وفيكم مخبرون لهم يؤدون إليهم ما يسمعون منكم، وهم الجواسيس».

إن من ثمرات سوء الظن التجسس، وهو كثير في الخصومات، فيندفع العبد إلى البحث عن الشيء، وقد يستمع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم، ومع التطور المادي صار التنصت على البيوت والمكالمات التليفونية، واستخدام التسجيلات من أيسر الأشياء، وقد مر بك حرمة التجسس والنهي عنه، حتى لو كانت الغاية حسنة، كأمر بمعروف ونهي عن منكر، فلا يجوز أن تكشف الغطاء لتعرف ما في الإناء، ولا أن ترفع الثوب لتعلم ما تحته، ولا أن تتسور الجدُر لتعلم ما في البيوت.

وقد أباح الإمام أحمد التجسس في حالتين: وهي أن يعلم الإنسان أن فلانًا يهم بالزنى بفلانة، أو أن شخصًا يريد قتل آخر، فإذا لم يتم إنكار المنكر، ومنع وقوع الزنى والقتل إلا بالتجسس، جاز حينئذ، ولا ينبغي التوسع في التجسس عن الحالتين المذكورتين حتى لا تقع في المحظور، والحذر من كثرة التبريرات والتأويلات فقديمًا قالوا: ما عُصي الله إلا بالتأويل، والتجسس يوغر الصدور، ويورث الفجور، ويؤدي إلى فساد الحياة، وكشف العورات، وهو دليل دناءة النفس وضعف الإيمان وفساد الأخلاق، يورد صاحبه موارد الهلكة، ويوجب له غضب الله وفساد الأخلاق، يورد صاحبه موارد الهلكة، ويوجب له غضب الله ورسوله والمؤمنين، ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة الأنعام:١٥).

١٤ـ الحمق

الحمق ضد العقل، وهو وضع الشيء في غير موضعه مع العلم بقبحه.

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «حقيقة الأحمق: من يعمل ما يضره مع علمه بقبحه» اهـ.

والحمق يدل على فساد العقل وكساده، وفي الحديث: «ينطلق أحدكم فيركب الحموقة» (رواه أبو داود) أي: خصلة ذات حمق، وبمعناها: الأُحموقة، وقد فرق ابن الجوزي بين الحمق والجنون، فقال ـ رحمه الله ـ الحمق: هو الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة المقصود، بخلاف الجنون، فإنه عبارة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعًا، فمن ذلك: أن طائرًا طار من أمير، فأمر أن تُغلق أبواب المدينة، فمقصود هذا الرجل حفظ الطائر، ولكنه أخطأ في الوسيلة.

وقد وردت الآيات تذم الحمق وأهله، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٩).

وقوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (سورة الفرقان: ٤٣-٤٤).

وقد وصفت الآيات المنافقين بصفات كثيرة كلها تدل على حمقهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٩)، وقوله تعالى: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٢)،

وقوله: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٣)، ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٥)، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٦)، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٨).

ووردت الأحاديث الشريفة في ذم الحمق، ومنها: ما رواه جابر ﷺ قال: «أخذ النبي ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف، فانطلق به إلي ابنه إبراهيم، فوجده يجود بنفسه، فأخذه النبي ﷺ فوضعه في حجره، فبكى، فقال له عبد الرحمن: أتبكي؟ أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال: لا، ولكني نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند مصيبة، خمش وجوه وشق جيوب، ورنَّة شيطان» (رواه الترمذي وحسنه).

وعن الأسود بن سريع ﷺ أن نبي الله ﷺ قال: «**أربعة يوم القيامة: رجل أصَمُّ لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة؛ فأما الأصم فيقول: لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا، وأما الأحمق فيقول: يا رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهَرِم فيقول: يا رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا، وأما الذي مات في فترة فيقول: ما آتاني لك رسول ، فيأخذ مواثيقهم لَيُطيعَنَّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفسي بيده، لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا**» (رواه أحمد والطبراني والبيهقي وابن حبان والبزار).

وفي حديث أم زرع الذي روته أم المؤمنين عائشة ﷺ قالت السابعة: «زوجي غياياء، أو عياياء ـ لا يهتدي إلى مسلك، وهو الغبي الأحمق ـ طباقاء، كل داء له دواء شجك ـ جرحك ـ أو فلك أو جمع كلاً لك. . . » الحديث. (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أفضل؟، قال: «**إيمان بالله، وجهاد في سبيله**»، قلت: فأي الرقاب أفضل؟، قال: «**أعلاها ثمنًا وأنْفَسُهَا عند أهلها**»، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «**تعين ضائعًا، أو تصنع لأخرق. أحمق.**»، قال: فإن لم أفعل؟ قال: «**تدع الناس من الشر، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك**» (رواه البخاري ومسلم).

وعلل جابر رضي الله عنه زواجه من الثيب ـ وهي التي سبق لها الزواج ـ بقوله: يا رسول الله، إن أبي قُتِل يوم أحد، وترك تسع بنات، كن لي تسع أخوات، فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاء ـ حمقاء ـ مثلهن، ولكن امرأة تمشطهن وتقوم عليهن، قال: «**أصبت**» (رواه البخاري).

تلا عمر هذه الآية: ﴿**مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ**﴾، قال: «**الحمق يا رب**».

وقال علي رضي الله عنه: «**ليس من أحد إلا وفيه حمقَةٌ فيها يعيش**».

وقال عمر بن عبد العزيز: «ما عدمت من الأحمق فلن تعدم خلتين: سرعة الجواب، وكثرة الإلتفات»، وقال ابن أبي زياد: قال لي أبي: «يا بني: الزم أهل العقل وجالسهم، واجتنب الحمقى، فإني ما جالست أحمق فقمت، إلا وجدت النقص في عقلي»، وقال الخليل بن أحمد: «الناس أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري، فذاك عالم فخذوا عنه، ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري، فذاك ناسٍ فذكروه، ورجل لا يدري وهو يدري أنه لايدري، فذاك طالب فعلموه، ورجل لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، فذاك أحمق فارفضوه».

وعن أبي إسحاق قال: «إذا بلغك أن غنيًا افتقر فَصَدِّق، وإذا بلغك أن فقيرًا استغنى فَصَدِّق، وإذا بلغك أن حيًا مات فَصَدِّق، وإذا بلغك أن أحمق استفاد عقلاً فلا تُصَدِّق».

وقيل لإبراهيم النَظَّام: ما حدُّ الحمق؟ فقال: سألتني عما ليس له حدٌّ.

وعن الأوزاعي قال: «بلغني أنه قيل لعيسى بن مريم عليه السلام: يا روح الله إنك تحيي الموتى؟ قال: نعم بإذن الله، قيل: وتبرىء الأكمة؟ قال: نعم بإذن الله، قيل: فما دواء الحمق؟ قال: هذا الذي أعياني».

ونظر بعض الحكماء إلى أحمق جالس على حجر فقال: حجر على حجر، وقال بعضهم: العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق، وقال بعض الحكماء: «من أخلاق الأحمق: إن استغنى بطر، وإن افتقر قنط، وإن فرح أشِر، وإن قال فحش، وإن سُئِلَ بَخِل، وإن سأل ألحَّ، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك نهق، وإن بكى خار».

وقال آخر: «مؤنة العاقل على نفسه، ومؤنة الأحمق على الناس، ومن لا عقل له فلا دنيا له ولا آخرة».

فالحمق شر كله، يجب اجتنابه والتباعد عن أوصافه، والحذر منه، وخصوصًا وقت الخصومة، فإن انفلات المعايير مجلبة للسخط والضرر.

١٥ـ المَــنُّ

معنى المن في اللغة والاصطلاح:

المن يُطلق على القطع والانقطاع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (سورة التين:٦)، أي غير مقطوع، ويطلق أيضًا على اصطناع خـير، والمنة هي النعمة الثقيلة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة آل عمران:١٦٤)، فيقال: منَّ فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة.

وذلك على الحـقـيقـة لا يكون إلا لله تعـالى، وقـد تكون المنة بالقـول، وذلك مستقبح فيما بين الناس إلا عند كفـران النعمة، ولقبح ذلك قيل: المِنة تهدم الصنيعة، ولحسن ذكرها عند الكفران قيل: إذا كفرت النعمة حسنت المنـة.

والمنان من أسـماء الله تعـالى، ومنَّ عليه منّاً أي أنعم علـيه، وقيل: المـنُّ أخو المنِّ، أي الامتنان بتـعديد الصنائع أخو القطع والهـدم، والمنون من النساء التي تُزَوَّجُ لمالِها، فهـي أبدًا تمنُّ على زوجها، وقال بعض العـرب: لا تتزوجن حنانة ولا منانة، وفي الحديث: **«ثلاثة يشنؤهم ـ يبغضهم ـ الله، ـ منهم ـ البخيل المنان»**.

وقد يقع المنان على الذي لا يُعطـي شيئًا إلا منَّة، واعـتد به على من أعطاه وهو مذموم.

صور المن وأحكامه:

المنُّ: هو أن يترك الأمير الأسير الكافر من غير أن يأخذ منه شيئًا، أي إطلاقه بلا عوض، وهناك المن الفـعلي، وهو أن يثقل الإنسان بالنعـمة، وذلك على الحقيـقة لا

يكون إلا لله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة النساء: ٩٤)، والصورة الثالثة: أن يكون ذلك بالقول، بأن يذكر الإنسان ما يظن أنه أنعم به على أخيه، وذلك مستقبح فيما بين الناس إلا عند كفران النعمة، وقريب من ذلك: عند ما وزع النبي ﷺ غنائم حُنَيْن على بعض أهل قريش وترك الأنصار، فوجدت الأنصار في نفسها شيئًا من صنيع الرسول ﷺ حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه، فجمعهم ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأشتاتًا فألف الله بين قلوبكم بي؟**»، فقالوا: الله ورسوله أمنُّ.

ومن ذلك أيضًا ما حدث يوم الدار، عندما همَّ البعض بقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ظلمًا؛ فقيل لهم: إنه حفر بئر رومة، وجهز جيش العسرة، وهو صِهْرُ رسول الله ﷺ على ابنتيه.

فقد دعت الحاجة والضرورة لذلك، لما حدث التجاحد ونزغ الشيطان في نفوس البعض، وقد قيل: إذا كُفرت النعمة حَسُنَتْ المنة.

والمن إذا كان من النوعين الأولين (أي على الأسير وإثقال الإنسان بالنعمة) كان محمودًا، أما الصورة الثالثة فقد تكون عند كفران النعمة، ولكنها مذمومة فيما عدا ذلك.

بعض الآيات الواردة في المن:

من صور المن المذموم الذي وردت به الآيات، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ (سورة المدثر: ٦)، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة الحجرات: ١٧)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

﴿الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ (سورة البقرة: ٢٦٤)، وقبلها قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٦٢)، فهذا الجزاء إنما هو لمن لا يُتْبِعُ إنفاقه مَنًّا ولا أذى، لأنهما مبطلان للصدقة.

والمن من الكبائر، لما ثبت في صحيح مسلم وغيره أن المانَّ أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، وظاهر الآية يدل على أن المن والأذى يكونان من المُنفِق على المُنفَق عليه، سواء أكان الإنفاق في الجهاد على سبيل التجهيز أو الإعانة فيه، أم كان في غير الجهاد.

والأذى يشمل المن وغيره، ونصَّ على المن وقدَّمَهُ لكثرة وقوعه من المتصدق، ومنه مثلاً أن يقول: قد أحسنتُ إليك، أو يتحدث إليه بما أعطى، فيبلغ ذلك المُعطَى فيؤذيه، ومن الأذى أن يسب المُعْطَى أو يشتكي منه، أو ما أشبه ذلك، وقال القرطبي: المنُّ غالبًا يقع من البخيل والمُعْجَب، فالبخيل تعظم في نفسه العطية، وإن كانت حقيرة في نفسها، والمعجب يحمله العُجب على النظر لنفسه بعين العظمة، وأنه مُنعِم بماله على المُعطَى، وإن كان أفضل منه في نفس الأمر، وموجب ذلك كله الجهل ونسيان نعمة الله فيما أنعم به عليه، ولو نظر مصيره لعلم أن المنة للآخذ لما يترتب له من الفوائد.

ومن الآيات التي ورد فيها مَنُّ الله على عباده، قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٤)، وقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ (سورة طه: ٣٦-٣٧)، وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (سورة القصص: ٥)، وقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا

عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (سورة الصافات: ١١٤)، وقال: ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (سورة إبراهيم: ١١)، وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (سورة النساء: ٩٤)، وقال: ﴿ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة القصص: ٨٢).

والمن عمومًا يحتمل تفسيرين: أحدهما إحسان المحسن غير مُعتدٍ بالإحسان، يقال: لحقت فلانًا من فلان مِنَّةٌ، وإذا لحقته نعمة باستنقاذ من قتلٍ أو ما أشبهه، والثاني: منَّ فلانٌ إذا عظَّم الإحسان، وفخر به، وأبدأ فيه وأعاد حتى يُفسده، ويُبَغِّضَهُ، فالأول حسن (ويدخل فيه كل صور المن من الله تعالى)، والثاني قبيح، وهو الذي يأتي على معنى التعديد للنعمة والتقريع بها، أو أن يتحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المُعْطَى فيؤذيه، والمن حينئذ من الكبائر.

بعض الأحاديث الواردة في ذم المنِّ:

عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة: المنان الذي لا يعطي شيئًا إلا منَّة، والمُنْفِق سلعته بالحلف الفاجر، والمُسبِل إزاره**» (رواه مسلم).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا ينظر الله عزَّ وجلَّ إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، والمرأة المترجلة، والديوث، وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والمدمن على الخمر، والمنان بما أعطى**» (رواه النسائي، وقال الألباني: حديث حسن صحيح).

وعن عبد الله بن أوفى أن أناسًا من العرب قالوا: يا رسول الله: أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأنزل الله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ (سورة الحجرات: ١٧). (أخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه بسند حسن).

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة خِبٌّ** ـ الخادع الغاش ـ **ولا منان، ولا بخيل**» (رواه الترمذي، وقال: حسن غريب).

معنى: «لا يدخل الجنة منَّان»:

وردت أخبار عن النبي ﷺ ثابتة من جهة النقل، جهل معناها فرقتان: فرقة المعتزلة والخوارج احتجوا بها، وادعوا أن مرتكب الكبيرة إذا مات قبل التوبة منها مخلد في النار، محرم عليه الجنان، والفرقة الأخرى المرجئة، كفرت بهذه الأخبار وأنكرتها، ودفعتها جهلاً بمعانيها، كما أوضح ابن خزيمة، وذكر أن معنى هذه الأخبار إنما هو على أحد معنيين:

أحدهما ـ لا يدخل الجنة، أي بعض الجنان، إذ النبي ﷺ قد أعلم أنها جنان من جنة، واسم الجنة واقع على كل جنة منها، فمعنى قول النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة عاقٌ ولا منان ولا مدمن خمر**»، إنما أراد حظيرة القدس من الجنة، وقد ورد في الخبر: «**لا يدخل حظيرة القدس سكير ولا عاق ولا منان**» (رواه أحمد وابن خزيمة بإسناد حسن).

والمعنى الثاني ـ أن كل وعيد في الكتاب والسنة لأهل التوحيد، فإنما هو على شريطة، أي إن يشاء الله تعالى أن يغفر ويصفح ويتكرم ويتفضل، فلا يعذب على ارتكاب تلك الخطيئة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ (سورة النساء: ١١٦).

وفي الحديث: «**من حلف على يمين صبر وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئٍ مسلم لقى الله يوم القيامة وهو عليه غضبان**» (رواه البخاري).

فمعنى من فعل كذا وكذا لبعض المعاصي لم يدخل الجنة، إنما أراد بعض التي هي أعلى وأشرف وأفضل وأنبل وأكثر نعيمًا وأوسع، لا لأنه لا يدخل شيئًا من الجنان، ودليل ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه أن الربيع أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، أنبئني عن حارثة، أصيب يوم بدر، فإن كان في الجنة صبرت واحتسبت، وإن كان غير ذلك اجتهدت في البكاء، فقال: «**يا أم حارثة إنها جنان في جنة، وإنه أصاب الفردوس الأعلى**» (رواه البخاري).

بعض الآثار وأقوال العلماء في ذم المن:

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة منان**»، فشق ذلك عليَّ، حتى وجدت في كتاب الله في المنان: ﴿**لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾ (سورة البقرة: ٢٦٤)، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ (سورة المطففين: ١٥)، قال أبو مُليكة الذِّماري: «المنان والمختال والذي يقطع بيمينه أموال الناس».

وعن الضحاك في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾ (سورة البقرة: ٢٦٤)، قال: «من أنفق نفقة ثم منَّ بها أو أذى الذي أعطاه النفقة، حَبِطَ عليه أجره، فضرب الله مثله كمثل صفوان عليه تراب، فأصابه وابل، فلم يدع من التراب شيئًا، فكذلك يمحق الله أجر الذي يعطي صدقة ثم يمن بها، كما يمحق المطر ذلك التراب».

وقال السُّديُّ في تفسيرها: «قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿**لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾ فتبطل كما بطلت صدقة الرياء، وكذلك هذا الذي ينفق ماله رئاء الناس، ذهب الرياء بنفقته، كما ذهب هذا المطر بتراب هذا الصفا».

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى**﴾ (سورة البقرة: ٢٦٢)، قال: «يمدح الله تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات، والصدقات منًا على من أعطوه، فلا يمنون على أحد، ولا يمنون به لا بقول ولا بفعل، وقوله: ﴿**وَلا أَذًى**﴾، أي: لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهًا يحبطون به ما سلف من الإحسان، ثم وعدهم الله تبارك وتعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال: ﴿**لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ أي ثوابهم على الله،

لا على أحد سواه، ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما خلفوه من الأولاد، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها، لا يأسفون عليها، لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

مضار المن وعلاجه:

المنُّ يستجلب غضب الله سبحانه وتعالى، ويستحق المانُّ الطرَ من رحمته جلَّ وعلا، وهو يوعز الصدور، ويحبط الأعمال، وينقص الأجر، وقد يذهب به بالكلية، ويحرم صاحب هذه الآفة من نعمة نظر الله إليه، وكلامه معه يوم القيامة، والمن صفة يتشبه بها صاحبها بالمنافقين، وهي آفة من آفات اللسان، ومظهر من مظاهر سوء الخلق، ولذلك ورد الوعيد الشديد لمن حصل منه ذلك.

وإذا عرف الداء وأسبابه وخطورته ومضاره، سهل العلاج ـ بإذن الله ـ، وكما قالوا: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، ولا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى من عصيت، وشأن من طلب السلامة والنجاة أن يعظم حرمات الله، ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (سورة الحج: ٣٢)، والمسلم يرى ذنوبه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، أما الكافر والمنافق، فيرى ذنوبه وكأنه ذباب جاء على وجهه فقال به هكذا وهكذا، على جهة الاستخفاف، وإنما خف الحساب على قوم غداً لأنهم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، والعيوب والآفات تقبل الإزالة والمحو بإذن الله، ولذلك قال سبحانه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (سورة الشمس: ٩-١٠)، وبشيء من المجاهدة مع معرفة الأسماء والصفات، وأن المنان والمنعم على الحقيقة هو الله، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (سورة النحل: ٥٣)، وأن المن والأذى من المخلوق سبب لمحق البركات وزوال الخيرات في العاجل والآجل، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ (سورة القيامة: ١٥).

١٦ـ الأثرة

معنى الأثرة في اللغة والشرع:

استأثر فلان بالشيء، أي استبد به، والاستئثار: الإنفراد بالشيء، ومنه حديث عمر ﷺ: «**فوالله ما استأثر بها عليكم، ولا أخذها دونكم**» (رواه مسلم).

ويقال: أخذت ذلك بلا أثرة عليك، أي لم استأثر عليك، وفي الحديث: «**سترون بعدي أثرة**» (رواه البخاري)، أي: من يستأثرون بالفيء، قال ابن الأثير: إنه يُستأثر عليكم، فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء، وقال ابن حجر: أشار بالأثرة إلى أن الأمر يصير في غيرهم فيختصون أنفسهم دونهم ـ أي دون الأنصار ـ بالمال، وكان الأمر على ما وصف رسول الله ﷺ فالحديث من دلائل نبوته ﷺ.

فالأثرة من الأخلاق المذمومة، وهي أن يختص الإنسان نفسه أو أتباعه بالمنافع من أموال ومصالح دنيوية، ويستأثر بذلك فيحجبه عمن له فيه نصيب، أو هو أولى به.

الآيات الواردة في ذم الأثرة:

قال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ (سورة النازعات: ٣٧-٣٩)، قيل: نزلت في النضر وابنه الحرث، وهي عامة في كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة.

وروي عن يحيى بن أبي كثير قال: «من اتخذ من طعام واحد ثلاثة ألوان فقد طغى».، وروى جويبر عن الضحاك قال: قال حذيفة: «أخوف ما أخاف على هذه

الأمة أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون»، ويروى أنه وجد في الكتب: إن الله جلَّ ثناؤه قال: «لا يؤثر عبد لي دنياه على آخرته، إلا بثثت عليه همومه، وضيعته، ثم لا أبالي في أيها هلك»، قال تعالى في ذم الأثرة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (سورة الأعلى:١٦-١٧)، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية، فقال: «**أتدرون لِمَ آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ لأن الدنيا حُضِرَت وعُجِّلَتْ لنا طيباتها وطعامُها وشرابها ولذاتها وبهجتها، والآخرة غُيِّبَتْ عنا، فأخذنا العاجل، وتركنا الآجل**».

وروى ثابت عن أنس قال: كنا مع أبي موسى في مسير والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا، قال أبو موسى: «يا أنس إن هؤلاء ما يكاد أحدهم يفري الأديم بلسانه فريًا، فتعال فلنذكر ربنا ساعة» ثم قال: «يا أنس ما ثبر الناس (أي ما الذي صدهم ومنعهم عن طاعة الله)، ما بطأ بهم؟!! قلت: الدنيا والشيطان والشهوات، قال: «لا، ولكن عُجلت الدنيا، وغُيبت الآخرة، أما والله لو عاينوها ما عدلوا (أي ما ساووا بها شيئًا) ولا ميَّلوا (أي ما شكُّوا ولا ترددوا)، والآخرة خير وأبقى»: أي أفضل وأدوم من الدنيا، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع**» (رواهم مسلم)، وقال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى، قال: فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفنى!!.

الأحاديث الواردة في ذمِّ الأثرة:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم سترون بعدي أثرة، وأمورًا تنكروها**»، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟، قال: «**أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم**» (رواه البخاري).

وعن أُسيد بن حضير رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار خلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: ألا تستعملني كما استعملت فلانًا؟ فقال: «**إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**» (رواه البخاري ومسلم).

وفي حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه : «**بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحًا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة** (أي مقدمة على الدين)، **وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمرًا لا يَدانِ لك به** (أي لا قدرة لك عليه)، **فعليك خويصة نفسك، فإن من ورائكم أيام، الصبرُ فيهن على مثل قبضٍ على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون بمثل عمله**» (رواه أبو داود والترمذي، وقال: حسن غريب، وابن ماجه، وللحديث شواهد يتقوى بها).

وعن مالك بن أوس قال: أرسل إليَّ عمر بن الخطاب، فجئته حين تعالى النهار، قال: فوجدته في بيته جالسًا على سرير، مفضيًا إلى رماله... الحديث، وفيه: «**فوالله ما استأثرت عليكم، ولا أخذها دونكم، حتى بقي هذا المال، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ منه نفقة سنة، ثم يجعل ما بقى أُسْوَةَ المال...**» الحديث (رواه مسلم).

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم : «**اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وأرض عنا**» (رواه الترمذي والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي).

وأيضًا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوَ ويقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليُّها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**» (رواه مسلم).

وعن كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**» (رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أن لابن آدم ملء وادٍ مالاً، لأحب أن يكون إليه مثله، ولا يملأ نفس ابن آدم إلا التراب، والله يتوب على من تاب**» (رواه البخاري ومسلم).

وحديث أم زرع، قالت السادسة: «زوجي إن أكل لفَّ (أكل حتى لا يبقى من الطعام شيء)، وإن شرب اشْتَفَّ (يستوعب جميع ما في الإناء)، وإن اضطجع التف (أي تلفف في ثوبه ونام ناحية عني)، ولا يولج الكف ليعلم البثَّ (أي لا يداعبها ولا يعاشرها معاشرة الأزواج)...» الحديث (رواه البخاري ومسلم).

وفي حديث الأبرص والأقرع والأعمى الذي رواه البخاري ومسلم، حكى النبي ﷺ لأمته كيف ابتلى سبحانه وتعالى الثلاثة، فعاد الأبرص والأقرع إلى حالته الأولى بسبب الأثرة، ومنع الحقوق، أما الأعمى الذي قال: «**قد كنت أعمى، فرد الله بصري، وفقيراً فقد أغناني، فخذما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك**» (متفق عليه).

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني، ثم قال: «**إن هذا المال خَضِرة حُلوة، فمن أخذهُ بطيب نفس بورك له فيه، ومن أخذهُ بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى**» (رواه مسلم).

من الآثار الواردة في ذم الأثرة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ملكًا من الملوك خرج يسير في مملكته، وهو مُسْتَخْفٍ من الناس، ، فنزل على رجل له بقرة، فراحت عليه تلك البقرة فحلبت، فإذا حلابُها مقدار ثلاثين بقرة، قال: فأعجب الملك بها، وقال: ما صلحت هذه إلا أن تكون لي، فإذا صرت إلى موضعي بعثت إليه فأخذتها، قال: وأقام إلى الغد فغدت البقرة

إلى مرعاها، ثم راحت فحلبت، فإذا حلابها قد نقص عن النصف، وجاء حلابها خمس عشرة بقرة، قال: فدعا الملك ربها (أي صاحبها)، فقال له: رعت في غير مرعاها بالأمس ولا شربت في غير شربها بالأمس، قال: ما بال لبنها قد نقص؟ قال: يشبه أن يكون الملك قد همَّ بأخذها، فقال له الملك: وأنت من أين يعرفك الملك؟ فقال له: هو كما أقول لك، فإذا الملك ظَلَم أو همَّ بظلم ذهبت البركة، أو قال: ارتفعت البركة، قال: فعاهد الملك نفسه ألا يأخذها، ولا تكون له في ملك أبدًا، قال: وأقام الغد، ثم غدت البقرة إلى مرعاها، فحلبت فإذا حلابها قد عاد إلى ما كان، قال: فدعا صاحبها، فقال له: هل رعت بقرتك في غير مرعاها بالأمس؟ قال: لا، قال: فما بال لبنها قد عاد، قال: يشبه أن يكون الملك قد همَّ بالعدل، قال: فاعتبر الملك، وقال: لا جَرَمَ لأعدلنَّ ولأكونَنَّ على أفضل من ذلك أو نحو هذا.

بعض مضار الأثرة:

الأثرة والأنانية المذمومة دليل على دناءة النفس وخِسَّتِهَا، بها يضيع العدل، وينتفي كرم الخلق، ويحل العداء والكراهية محل المحبة والمودة في القلوب، ومن شأنها أن تبث اليأس في نفوس ذوي الحقوق، وتنتفي الأسوة الحسنة، وتؤدي إلى انتفاء كمال الإيمان، وقد تذهب بالإسلام، وهي توذي وتضر، وتجلب الخصام والنفور، وبها تحل النقم وتذهب النعم، أي أن الأثرة مِعْوَل هدم وشر مستطير.

تنشد خلافة على منهاج النبوة فاترك الأثرة:

في سعيك لإقامة المجتمع الإسلامي، الذي يتحاكم بكتاب الله، وبسنة رسول الله ﷺ حتى تستطيع التنفس في أجواء إسلامية، وحتى يسهل عليك تربية أبنائك تربية إيمانية، أنت تضع ما كان عليه رسول الله ﷺ والصحابة الكرام نُصْبَ

عينيك، في أقوالك وأفعالك وحركاتك وسكناتك، وتردد البشارات الكثيرة التي أخبر عنها الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من أن المستقبل للإسلام، بغلبته وظهوره على الأديان كلها، ومن قتال المسلمين اليهود وانتصارهم عليهم، وفتح بيت المقدس، وأن الخلافة ستعود على منهاج النبوة، وهذا يتطلب منك أن تكون على مستوى إسلامك ودينك، وأن تتحلى بالفضائل، وتتخلى عن الرذائل، فأنت لا تطالب بخلافة عثمانية ولا عباسية ولا حتى أموية، وإنما تطالب بخلافة على منهاج النبوة، وهذه الخلافة أقامها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ فهل بمقدورك أن تُحسِنَ التأسِّي، وأن تجاهد نفسك في إحسان المسير إلى الله، فتترك الأثرة المذمومة وغيرها من الآفات التي تعرفها من نفسك، والتي تحول دون تحقيق هذا الهدف، فالتناسب واضح بين حالة البشر وحالة الكون حولهم، بل وحالة من يحكمهم، فهم على قدرنا ونحن على قدرهم، ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٩).

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «نحن في زمان لا يصلح أن يولى علينا فيه أمثال عمر بن عبد العزيز ولا معاوية بن أبي سفيان ﷺ، فضلاً عن الشيخين أبي بكر وعمر ﷺ».

الأثرة وتأخير الأكفاء من علامات الساعة:

الولاية بحسبها، وهي نوع من الأمانة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (سورة النساء: ٥٨)، فمن الأمانة تولية الأكفاء من أهل الخبرة والديانة، وتقديم الأمثل فالأمثل، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (سورة القصص: ٢٦)، فالقوة والأمانة مطلوبة في كل ولاية، فإن كانت ولاية مال قدمنا الأمانة على القوة، وإن كانت ولاية جهاد قدمنا القوة على

الأمانة. وقد حَدَّث النبي ﷺ عن هذا الوقت الذي تختل فيه المقاييس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنها ستأتي على الناس سنون خداعات يُصَدَّقُ فيها الكاذب ويُكَذَّبُ فيها الصادق، ويُؤْمَّن فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة**»، قيل: وما الرويبضة؟، قال: «**السفيه يتكلم في أمر العامة**» (رواه أحمد، وصحح أحمد شاكر إسناده، وقال ابن كثير: وهذا إسناد جيد ولم يخرجوه من هذا الوجه).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أشراط الساعة أن يغلب على الدنيا لكع بن لكع** ـ اللئيم والأحمق ـ **فخير الناس يومئذ مؤمن بين كريمين**» (رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات كما قال الهيثمي).

وفي (الصحيح): «**إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»، وعن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لُكَع بن لكع**» (رواه أحمد وصححه الألباني).

وهذه النصوص لها رصيدها الكبير في الواقع الذي نعيشه، وهي تدل على مدى غربة الإسلام وسط أهله وبنيه، وعلى مدى شيوع الأثرة وتولية من هو عارٍ من الكفاءة والخبرة، وأن ذلك من أمارات وعلامات الساعة، بل صار الرجل يؤثر تزويج ابنته ومولية من ذوي اليسار والغنى، حتى وإن كانوا مخمورين تاركين للصلاة على ذوي الكفاءة والديانة والصلاح والتقى، وفي هذا من الإضاعة للأمانة ما فيه.

١٧ـ الضعف

الضعف هو وهن القوة، أو هو خلاف القوة، ويكون في النفس وفي البدن وفي الحال، وفي إسلام أبي ذر: «فتضعفت رجلا»، أي استضعفته، وفي الحديث: **«أهل الجنة كل ضعيف متضعف»** (رواه البخاري)، واستضعفه بمعنى: الذي يتضعفه الناس ويتجبرون عليه في الدنيا للفقر ورثاثة الحال.

وقد ورد الضعف في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله ﷺ في مواضع كثيرة، ففي سياق حماية حق الضعيف يقول تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ (سورة النساء:٩)، وفي سياق التلاوم والعتاب، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ (سورة سبأ:٣٣)، وفي سياق الرحمة والترقيق، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التوبة:٩١)، وفي سياق الاحتقار: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (سورة هود:٩١).

والضعف سمة المخلوقين، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء:٢٨)، كما أن الضعف سمة الكيد الشيطاني ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء:٧٦)، واستضعاف الخلق من سمات الكفار والجبابرة، ومن ذلك ما حكاه سبحانه عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة القصص:٤)، وشأن

المؤمن ألا يضعف تجاه المصائب التي تنزل به، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٤٦).

ومن الأحاديث الواردة في ذم الضعف: ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**» (رواه مسلم).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» (رواه مسلم).

وقد كان النبي ﷺ يتعوذ ويقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**» (رواه مسلم).

وقال ﷺ: «**كل شيء بقدر، حتى العجز والكيْسُ**» (رواه مسلم).

وقال أيضًا: «**الكيْسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله**» (رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه).

والضعف وإن كان مؤلمًا للنفس، وقد يورث الذل والهوان، وقد يؤدي إلى تفكك المجتمعات وتفريق الجماعات، وقد يكون دليلاً على ضعف الإيمان وقلة اليقين، ومظهرً من مظاهر سوء الخلق، إلا أن استشعاره بين يدي الله مطلوب، وهو

نوع من القوة، فلابد أن تنكسر النفس بين يدي القوي المتين سبحانه، ومع وجود القوة المادية في مواجهة الأعداء والخصوم، لا يليق بالمسلم أن يطغى ويتجبر، ولا أن يعول على قوته، بل يستشعر أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه لا تغيير من حال إلى حال إلا بالله.

وقد حكى لنا سبحانه، ما كان من المسلمين يوم حنين، فقال: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (سورة التوبة: ٢٥)، وعلى العكس والنقيض، فإن حالة الاستضعاف يوم بدر وقعت من الله بمكان، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة الأنفال: ٢٦)، وقال أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٢٣)، وبين سبحانه عاقبة المستضعفين وعظيم تداركه لهم، ونعمته عليهم فقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (سورة القصص: ٥-٦)، وقال: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ (سورة الأعراف: ١٣٧)، وكأن العبد إذا وصل إلى مرحلة الاستضعاف يتعلق قلبه بربه، ويكون توكله على الله في تمامه وكماله، فيجبر كسره، ويرحم ضعفه، ويكون دعاؤه دعاء مضطر، ولذلك يجيبه سبحانه، ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ (سورة النمل: ٦٢).

وحسبنا أن نعمل بطاعة الله في ضعفنا وقوتنا، وعسرنا ويسرنا، وأن تتعلق القلوب بربها، فبذلك ننتقل من ضعف إلى قوة، ومن قوة إلى قوة.

١٨ ـ البذاءة

البذاءة: هي التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، أو هي كما عرَّفها البعض عبارة عن الفحش والقبح في المنطق، وإن كان الكلام صدقًا.

قال الغزالي ـ رحمه الله ـ: «إن السب والفحش وبذاءة اللسان مذمومة، ومنهيٌّ عنها، ومصدرها الخبث واللؤم، والباعث عليها إما قصد الإيذاء، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم، لأن من عادتهم السب، ومواضع ذلك متعددة، ويمكن حصرها في كل حال تخفى ويُستحيا منها، فإن التصريح في مثل هذه الحال فحش، وينبغي الكناية عنها، وأكثر ما يكون في ألفاظ الجماع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها، وأما أهل الصلاح فإنهم يتحاشون عنها، بل يكنُّون عنها، ويدلون عليها بالرموز، فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها، ألم تر أن الله عزَّ وجلَّ كنى باللمس عن الجماع، ولذلك فإنه تُستعمل ألفاظ مثل المس واللمس والدخول والصحبة، كما يكون الفحش والبذاء أيضًا في حال قضاء الحاجة، فإن استعمال البول والغائط أولى من استعمال لفظ التغوط والخراء.

ويدخل الفحش أيضًا والبذاء في ذكر النساء، والكلام عنهن، فلا يقال: قالت زوجتك كذا، بل يقال: قيل في الحجرة، أو من وراء الستر، أو قالت أم الأولاد، فالتلطف في هذه الألفاظ محمود، والتصريح فيها يفضي إلى الفحش، وكذلك يدخل أيضًا في ذكر العيوب التي يستحيا منها، فلا ينبغي أن يُعبر عنها بصريح اللفظ، فلا يقال: فلان الأبرص والأقرع، بل يقال مثلاً: فلان الذي به العارض الذي

يشكوه، وهذا كله يختلف باختلاف البلاد، وأوائل هذه الأشياء مكروه، وآخرها محظور، وبينها درجات يتردد فيها. اهـ.

وقد وردت الآيات تذم البذاءة وتعيبها: ومنها قوله تعالى: ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾(سورة النساء:١٤٨)، وقال تعالى: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾(سورة الممتحنة:٢)، وقال سبحانه بشأن الإفك الذي جاء به ابن سلول المنافق: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾(سورة النور:١٥-١٦)، وقال سبحانه عن المنافقين: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾(سورة الأحزاب:١٩).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللعَّان ولا الفاحش ولا البذيء**»(رواه أحمد والحاكم وصححه الترمذي، وقال: حسن غريب).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليُبغض الفاحش البذيء**»(رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاءة من الجفاء، والجفاء في النار**»(رواه الحاكم وابن حبان والترمذي، وقال: حسن صحيح).

وورد: «**حَسْبُ الرجل أن يكون فاحشًا بذيًا بخيلاً جبانًا**»(رواه أحمد والطبراني)، أي: ينطق ببذيء الألفاظ.

وفي الحديث: «**لا تسبوا أمواتنا، فتؤذوا أحياءنا، ألا إن البذاء لؤم**»(أخرجه النسائي بسند صحيح).

وفي الحديث عن عائشة: «**إن شر الناس من تركه الناس ـ أو ودعه الناس ـ اتقاء فحشه**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أتى النبي ﷺ أُناسٌ من اليهود، فقالوا: السَّام عليك يا أبا القاسم، قال: «**وعليكم**»، قالت عائشة: قلت: بل عليكم السَّامُ (الموت)، والذَّام (الذم)، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة لا تكوني فاحشة**»، فقالت: ما سمعت ما قالوا؟، فقال: «**أوليس قد رددت عليهم الذي قالوا؟ قلت: وعليكم**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة**» (رواه مسلم).

وقد ورد النهي عن سب الريح والحُمَّى، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**» (رواه البخاري ومسلم).

وفي الحديث: «**من الكبائر: شتم الرجل والديه**»، قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟!، قال: «**نعم، يسب أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه، فيسب أمه**» (رواه البخاري ومسلم).

وفي الحديث: «**الصيام جنة ـ وقاية ـ فلا يرفث ـ الكلام الفاحش ـ، ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شامته، فيلقل: إني صائم، مرتين**» (الحديث رواه البخاري ومسلم).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه، ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه**» (رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وحسنه).

وفي الحديث: «**إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن خير الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً**» (رواه أحمد وأبو يعلى، والطبراني في الكبير، وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح).

وعيَّر أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه، قال له النبي ﷺ: «**يا أبا ذر، إنك امرؤٌ فيك جاهلية**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**» (رواه البخاري ومسلم).

وفي الحديث: «**لا تسبوا الديك، فإنه يوقظ للصلاة**» (رواه أبو داود، وصححه الألباني)، وورد أيضًا: «**لا ينبغي لصدِّيقٍ أن يكون لعانًا**» (رواه مسلم).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «**إن أبغض الناس إلى الله كل طعانٍ لعانٍ**».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**ألأم شيء في المؤمن الفحش**».

وقال الأحنف بن قيس: «ألا أخبركم بأدوإ الأدواء: اللسان البذيء، والخلق الدنيء»، وقال عطاء ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٠)، قال: «كان في خُلقها سوء، وكان في لسانها طول، وهؤلاء بذاءٌ، فاصلح له ذلك منها»، ورأى أبو الدرداء رضي الله عنه امرأة سليطة اللسان، فقال: «لو كانت هذه خرساء كان خيراً لها»، وقال إبراهيم بن ميسرة: «يُقال: يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب، أو في جوف كلب».

وقال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: «خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل».

إن الخصومة تجر البعض إلى البذاء، وهي دليل قلة الحياء، وضعف الإيمان وخبث الطوية، وتؤدي إلى الهوان على الله، وإلى إشاعة الفاحشة والتفحش في المجتمع، والعاقل هو الذي ينظر في عواقب أمره، ولا يستخفه الطيش، ولا يحمله الغضب وهوى النفس على أن يورد نفسه موارد الهلكة.

١٩ - العدوان

العدوان: هو الظلم الذي يُتجاوز فيه الحد، والعدو ضد الولي والصديق، والعدوان نوعان:

الأول - محظور، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ (سورة المائدة: ٢).

الثاني - غير محظور، وهو الذي يكون على سبيل المجازاة، ويصح أن يُتعاطى مع من ابتدأ به، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿**فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ (سورة البقرة: ١٩٣).

والعدوان أيضًا على ضربين: أحدهما: ما يكون العداوة من مقصوده كما في قوله تعالى: ﴿**فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ**﴾ (سورة النساء: ٩٢)، والآخر: ما لم يقصد إلى ذلك، كما في قوله سبحانه: ﴿**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾ (سورة التغابن: ١٤).

والعداوة أيضًا قد تكون باطنة، وقد تكون ظاهرة، فالباطنة: عداوة الشيطان، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ (سورة فاطر: ٦)، وقال: ﴿**وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾ (سورة البقرة: ١٦٨).

ومن العداوة الباطنة: الهوى المُعَبَّر عنه بالنفس، في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ (سورة يوسف: ٥٣)، وقول النبي ﷺ: «**أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك**»، وكذلك الغضب الجامح، فالهوى شيطان، والغضب شيطان، كما ورد في الخبر، وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿**هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ**﴾ (سورة القصص: ١٥)، وأما الظاهر من الأعداء، فالإنسان وبعض البشر له طبع السباع،

وقد تحدث العداوة بسبب المال أو الرئاسة، قال رجل لآخر: إني أحبك، فقال: قد علمت ذلك، وقال: من أين علمت؟ قال: لأنك لست لي بشريك ولا نسيب ولا جار ولا قريب.

والعداوة المنسوبة للأولاد والأزواج، لما كانوا سببًا لإهلاك العبد لكثرة ما يرتكبه من المعاصي من أجلهم، والبعض قد يشارك الشيطان في المعاداة، فسمى الله تعالى الأعداء شياطين في قوله: ﴿ شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (سورة الأنعام:١١٢)، وقد سُمِّيَ كل ما يُتَأذى به شيطانًا.

وقد وردت الآيات توضح أن العدوان سبب العقاب العاجل في الدنيا، ومن ذلك ما ورد بشأن بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (سورة البقرة:٦١).

والعدوان: تجاوز المشروع في حق النفس، أو في حق الغير، قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (سورة البقرة:١٩٠)، وقال: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة البقرة:١٩٣)، وقال: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الأنعام:١٤٥).

والعدوان قرين التكذيب بالرسل، قال تعالى في وصف قوم لوط: ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (سورة الشعراء:١٦٦)، وقال: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ (سورة ق:٢٤-٢٥).

وهو سبب النفي عن ساحة القرب والمحبة، قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٥٥)، ولذا ينبغي على العبد أن يترفع عنه وعن أسبابه، ولذلك قال سبحانه محذرًا خلقه وعباده: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (سورة المائدة: ٩١)، وقال: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٨).

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تقربوها، وترك أشياء عن غير نسيان فلا تبحثوا عنها**» (رواه البزار والحاكم).

وكان النبي ﷺ يتعوذ ويقول: «**أعوذ بك اللهم أن أظلِم أو أُظلم، أو أعتدي أو يُعتدى عليَّ، أو أكتسب خطيئة محيطة، أو ذنبًا لا يغفر**» (رواه أحمد والطبراني).

وقال ﷺ: «**إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء**» (رواه أبو داود والطبراني وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني).

وقال ﷺ: «**المتعدي في الصدقة كمانعها**» (رواه أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المُستَّبان ما قالا، فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم**» (رواه مسلم).

وقال ﷺ: «**من بنى بنيانًا من غير ظلم ولا اعتداء أو غرس غرسًا في غير ظلم ولا اعتداء كان له أجر ما انتفع به من خلق الله تعالى**» (رواه أحمد).

وفي وصية صفي بن رباح التميمي لبنيه: «يا بُنيَّ: اعلموا أن أسرع الجرم عقوبة البغي، وشر النصرة التعدي، وألأَمُ الأخلاق الضيق، وأسوأ الأدب كثرة العتاب».

لقد تركنا الشريعة وراءنا ظهريًا، وصار التعـدي في الخصومات سمة من سمات حياتنا، وأصبحت الأعراف والعادات والأمثال هي التي تقودنا، فتسمع من يقول: أنا وأخي على ابن عـمي، وأنا وابن عـمي على الغريب، ومـا أقـرب المثال من صـور العصبية الجاهلية، وما أبعده عن قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (سورة المائدة: ٢).

٢٠ - إفشـاء السـر

إفـشاء السـر بمعنى نشره، وإذاعـته بين الـناس، ويكون ذلك بالكتابة والإشـارة والكلام، وينطوي على خَـرَق وخيـانة، فإنه ليس بوقـور من لم يضبط لسـانه، ولم يتسع صدره لحـفظ ما يُستسـر به، ويحرم على كل مكلف حديث أمر بكتـمه أو دلته قرينة على ضرورة كتمانه، أو كان مما يكتم عـادة، وخصوصًا إذا كان في إفشاء السر مضرة وتهاون بحق المعارف والأصدقاء، وهو من قبيل اللؤم إن لم يكن فيه إضرار.

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أنه إذا مات صاحب السر، فإنه لا يلزم من كتمانه ما كان يلزم في حياته، إلا أن يكون عليه فيه غضاضة، ويجوز الإفشاء إذا كان في ذلك مصلحة أو دفع ضرر، ومن ذلك إفشاء يوسف عليه السلام سرَّ التي راودته عن نفسه، وسر النسوة اللاتي قطعن أيديهن ليدفع التهمة عن نفسه، فإن الملك لو اتهمه لم يُولِّه على خزائن البلاد، وقد يُستحب إفشاء السر إذا كان فيه تزكية أو منقبة، أو نحو ذلك، فإن لم يكن كذلك فهـو منهي عنه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأنفال: ٢٧)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (سورة الحج: ٣٨).

وعن أنس رضي الله عنه قال: مرَّ بى النبي ﷺ وأنا ألعب مع الصبيان، فسلم علينا ثم دعاني فبعثني في حاجة له، فجئت وقد أبطأت عن أمي، فقالت: ما حبسك؟ أين كنت؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ إلى حاجة، فقالت: أي بني وما هي؟ فقلت: إنها سر، قالت: لا تحدث بسر رسول الله ﷺ أحدًا، ثم قال: «يا ثابت لو كنت حدثت به أحدًا لحدثتك يا ثابت» (رواه أحمد ومسلم).

وعن أنس رضي الله عنه قال: **«أسرَّ إليَّ النبي ﷺ سرًا، فما أخبرت به أحدًا بعده، ولقد سألتني أمي أم سُليم، فما أخبرتها»** (رواه البخاري)، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة: الرجل يُفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها»**، وفي رواية: **«من أشرِّ الناس»** (رواه مسلم).

ولما دخل ناس من أصحاب رسول الله ﷺ على أم سلمة؟ فقالوا: يا أم المؤمنين حدثينا عن سر رسول الله ﷺ، قالت: كان سره وعلانيته سواء، ثم نَدِمتُ فقلت: أفشيت سر رسول الله ﷺ، قالت: فلما دخل أخبرته، فقال: **«أحْسَنْتِ»** (رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح).

ولما عرض عمر على أبي بكر ابنته حفصة رضي الله عنهما أن يزوجه إياها، لم يجبه أبو بكر بشيء، ثم قال لعمر: **«فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ إلا أني كنتُ علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ولو تركها رسول الله ﷺ قَبِلْتُها»** (رواه أحمد والبخاري).

ومن ذلك قول السيدة فاطمة رضي الله عنها عندما سُئلتْ عما سارها به رسول الله ﷺ قالت: **«ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره، قالت عائشة رضي الله عنها فلما توفي رسول الله ﷺ قلت: عزمتُ عليك بما لي عليك من الحق، لما حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ، فقالت فاطمة رضي الله عنها: أما الآن فنعم، أما حين سارني في المرة الأولى، فأخبرني أن جبريل كان يعارضه**

القرآن في كل سنة مرة أو مرتين، وأنه عارضه الآن مرتين وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإني نعم السلفُ أنا لك، قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارَّني الثانية، فقال: يا فاطمة، أما ترضي أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيده نساء هذه الأمة؟ قالت: فضحكت ضحكي الذي رأيت» (رواه البخاري ومسلم).

وفي حديث أم زرع عن عائشة رضي الله عنها: «جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع؟ لا تبث حديثنا تبثيثًا (لا تشيعه ولا تفشيه وإنما تكتم سرنا)» (والحديث رواه مسلم)، وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة**» (رواه أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه).

قال العباس لابنه عبد الله رضي الله عنهما: «**إني أرى هذا الرجل - يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه - يقدمك على الأشياخ فاحفظ عني خمسًا: لا تفشين له سرًا، ولا تغتابن عنده أحدًا، ولا تجربن عليه كذبًا، ولا تعصين له أمرًا، ولا يطلعن منك على خيانة**»، قال الشعبي: كل كلمة من هذه الخمس خيرٌ من ألف.

وقال الحسن: «إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك»، قال الغزالي: «أفشى بعضهم سرًا له إلى أخيه، ثم قال له: هل حفظت؟ قال: بل نسيت».

وقال الثوري: «إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه، ثم دُس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك، فإن قال خيرًا وكتم سِرك فاصحبه».

وقال ذو النون المصري: «لا خير في صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصومًا، ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها».

وقال السفاريني: «قال الحكماء: ثلاثة لا ينبغي للعاقل أن يقدم عليها، شرب السم للتجربة، وإفشاء السر إلى القرابة والحاسد وإن كان ثقة، وركوب البحر وإن كان

فيه غنى»، وقال أيضًا: «يُروى أن أصبر الناس من لا يُفشي سره إلى صديقه مخافة التقلب يومًا ما».

وقال الحسن البصري: «لا تستقيم أمانة رجل حتى يستقيم لسانه ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم قلبه».

وعن عطاء قال: «كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن تقرأه أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك بما لا بد لك منه».

وعن عبد الله بن المبارك قال: «عجبت من اتفاق الملوك كلهم على كلمة، قال كسرى: «إذا قلت ندمت وإذا لم أقل لم أندم»، وقال قيصر: «أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلتُ»، وقال ملك الهند: «عجبت لمن تكلم بكلمة إن هي رفعت ضرته، وإن لم ترفع لم تنفعه»، وقال ملك الصين: «إن تكلمت بكلمة ملكتني، وإن لم أتكلم بها ملكتها»».

كثرة إفشاء السر في المشاحنة والخصومة من الأمور المعلومة، وخصوصًا وسط النساء، وقد يترتب على ذلك أوخم العواقب، والعاقل يتهم نفسه قبل أن يتهم غيره، فقد ضاق صدره عن سره ولذلك باح به لغيره، وعلى من أؤتمن أن يتقي الله في غضبه ورضاه، وأن يتقي موارد الهلكة وما يعقبه المذلة والندم والحسرة والعار والفضيحة، وما يُخل بالمروءة، ويوصف به بأنه من أشر الناس ويفقد الثقة ويفسد الصداقة ويُعرض للخطر، ويدل على لؤم الطبع وخيانة الأمانة ونقض العهد، والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

٢١- السخرية

نهى المولى عزَّ وجلَّ عن السخرية بأنواعها المختلفة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة الحجرات:١١)، قال الضحاك: «نزلت في وفد بني تميم، كانوا يستهزئون بفقراء الصحابة مثل عمار وخباب وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم، لما رأوا من رثاثة حالهم، فنزلت في الذين آمنوا منهم».

وقيل: نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلمًا، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا: ابن فرعون هذه الأمة، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فنزلت.

وقيل: نزلت في ثابت لما عير رجلاً بأم له في الجاهلية، فاستحيا الرجل، فنزلت.

قال الطبري في تفسيرها: «يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنون، عسى أن يكونوا خيرًا منهم، أي المهزوء منهم خير من الهازئين، ولا نساء من نساء: ولا يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات عسى المهزوء منهن أن يكن خيرًا من الهازئات».

وقال: إن الله عمَّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض من جميع أنواع السخرية، فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن، لا لفقره ولا لذنب ركبه، ولا لغير ذلك».

وقال القرطبي: «وبالجملة فينبغي ألا يجتريء أحدٍ على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبقٍ في محادثته، فلعله أخلص ضميراً وأنقى قلبًا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله، والاستهزاء بمن عظمه الله، ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: «لو رأيت رجلاً يَرضع عنزة فضحكت منه، لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع».

وعن عبد الله بن مسعود: «**البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلب، لخشيت أن أحوَّل كلبًا**» اهـ.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي**﴾ (سورة المؤمنون: ١١٠)، قال القطربي: «يستفاد من هذا التحذير من السخرية والاستهزاء بالضعفاء والمساكين، والاحتقار لهم، والإزراء عليهم، والاشتغال بهم فيما لا يعني، وأن ذلك مُبْعَدٌ من الله عزَّ وجلَّ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا (تعني قصيرة)، فقال: «**لقد قلت كلمة، لو مُزجت بماء البحر لمزجته**»، قالت: وحكيت له إنسانًا، فقال: «**ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا**» (رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح).

ولما سب أبو ذر رجلاً، فعيَّره بأمه، قال له ﷺ: «**يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية**» (رواه البخاري).

وعن أم هانيء عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿**وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ**﴾ (سورة العنكبوت: ٢٩)، قال: «**كانوا يخذفون - يحقرونهم وينبذونهم - أهل الأرض ويسخرون منهم**» (رواه أحمد والترمذي).

وكان مشركو مكة ـ أبو جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهما ـ يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين، فنزلت الآيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (سورة المطففين: ٢٩)، وقيل: جاء عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين، فسخر منه المنافقون، وضحكوا وتغامزوا، ثم رجعوا إلى أصحابهم، فقالوا: رأينا اليوم الأصلع، فضحكوا منه، فنزلت الآية، قبل أن يصل عليٌّ رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

والتهكم من السخرية، وكذلك التعيير بالفقر أو الذنب أو العلة، أو ما شابه ذلك، ويدخل في السخرية أيضًا التنابز بالألقاب، قال الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ: «التنابز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكره من اسم أو صفة، وعمَّ الله بنهيه ذلك، ولم يخصَّ به بعض الألقاب دون بعض، وغير جائز لأحد من المسلمين أن ينبز أخاه باسم يكرهه، أو صفة يكرهها، ولما كانت آية السخرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ (سورة الحجرات: ١١)، فيما يقوله أنس وابن زيد في نساء النبي صلى الله عليه وسلم عَيَّرْنَ صفية بالقصر، وقيل: نزلت في عائشة رضي الله عنها أشارت بيدها إلى صفية (قائلة): يا نبي الله إنها قصيرة.

وقال عكرمة وابن عباس: أن صفية بنت حُيَيّ قالت: «يا رسول الله، إن النساء يعيرنني ويقلن لي يا يهودية... الحديث»، كل ذلك يدل على أن التنابز بالألقاب إنما هو داخل في مفهوم السخرية، ومن ثمَّ يكون ذكر اللمز والتنابز بعد ذكر السخرية من قبيل ذكر الخاص بعد العام اهتمامًا به. اهـ.

والهُمَزَةُ: الذي يهمز بلسانه، واللُّمَزَة: الذي يلمز بعينيه.

وقال ابن كيسان: الهُمزة الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، واللُّمزة: الذي يكسر عينه على جليسه، ويشير بعينه ورأسه وبحاجبيه.

وبين السخرية والهزء فرق من جهتين: **الأولى** ـ السخرية تكون بالفعل وبالقول، والهزء لا يكون إلا بالقول.

الثانية ـ أن السخرية يسبقها عمل من أجله يسخر بصاحبه، أما الاستهزاء فلا يسبقه ذلك.

فالهزء يكون بالقول المصحوب بسوء النية، وهو إظهار الجد وإخفاء الهزل منه، والسخرية والهزء من المحرمات، قال السفاريني: وتحرم السخرية والهزء لقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ... ﴾، ولنهيه ﷺ عن ذلك في مواضع عديدة. اهـ.

إن السخرية داء من أدواء الجاهلية يجب تجنبه والبعد عنه، وخصوصًا عند المشاحنة والخصومة، وهي من سمات الكفار والمنافقين، ومن شأنها أن تفكك عُرى المجتمع، ويكفي أنها مخالفة صريحة لأمر الله عزَّ وجلَّ، ومبعدة من رضوانه سبحانه تنسي الإنسان ذكر ربه، ونذير شؤم لصاحبها، ومن أسباب حلول العذاب بالساخرين.

٢٢ ـ الطمع

الطمع قد يكون محمودًا، وقد يكون مذمومًا، والمحمود منه ما كان بمعنى الرجاء في رحمة الله وتوقع الخير، وهذا ما فعله نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (سورة الشعراء: ٨٢).

وامتدح سبحانه من يدعونه خوفًا وطمعًا، ووعدهم بما تَقَرُّ به أعينهم، فقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة السجدة: ١٦-١٧).

أما إذا كان الطمع في حطام الدنيا، من مال عارض، أو منصب زائل، أو جاه حائل، فإن ذلك كله مذموم، وهذا دأب المنافقين الذي كانوا يطمعون في الصدقات، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (سورة التوبة:٥٨)، قال ابن تيمية: وهكذا كان حال من كان متعلقًا برئاسة أو ثروة، ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضى، وإن لم يحصل سخط، فهذ عَبْدُ ما يهواه من ذلك، وهو رقيقٌ له إذا لم يحصل، والعبودية في الحقيقة هي رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده، فهو عبد، لهذا يقال:

العبد حرٌ ما قنع ... والحر عبدٌ ما طمع

وقال قائل:

أطعت مطامعي فاستعبدتني ... ولو أني قنعتُ لكنت حرًا

ويقال: «الطمع فقر، واليأس غنى، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه»، وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه» اهـ.

وقد قيل في معنى الطمع: نزوع النفس إلى الشيء شهوة له، وقد يُستعمل بمعنى الأمل، وقال البعض: الطمع ذل ينشأ من الحرص والبطالة والجهل بحكمة الباري، وفي الحديث: «**اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع، ومن طمع في غير مطمع**» (رواه أحمد)، وقد ورد الطمع في الآيات البينات في مواضع، منها ما هو بمعنى الطمع في المغفرة والجنة مثل: ﴿وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (سورة المائدة:٨٤)، ومنها قوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (سورة الأعراف:٤٦)، أي يتمنون ما أعد الله لهم من الزلفى، ومنها: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (سورة المعارج:٣٨)، وقد ورد في معرض الذم إذا كان تصرفًا من شأنه أن يثير طمع الغير، قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ (سورة الأحزاب:٣٢).

وقد وردت الأحاديث في ذم الطمع، منها حديث: وأهل النار خمسة... وذكر فيهم ﷺ: «**الخائن الذي لا يخفى له طمع، وإن دق، إلا خانه...**» الحديث (رواه مسلم).

وكان ﷺ يتعوذ بالله: «**من نفس لا تشبع**» (رواه مسلم).

وقال: «**لا يزال قلب الكبير شابًا في اثنتين، في حب الدنيا وطول الأمل**» (رواه البخاري ومسلم).

وقال: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**» (رواه أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**منهومان لا يشبعان: منهوم في علم لا يشبع، ومنهوم في دنيا لا يشبع**» (رواه الحاكم، وصححه الألباني)، وفي الحديث: «**يهرم ابن آدم وتشب اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر**» (رواه البخاري ومسلم).

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**تعلَّمَنَّ أن الطمع فقر، وأن اليأس غنى**».

وقال علي رضي الله عنه: «**أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع**».

وقال أيضًا: «**ما الخمر صرفًا بأذهب لعقول الرجال من الطمع**».

وسأل كعبٌ عبدَ الله بن سلام: «من أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به، قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه؟ قال: الطمع، وشَرَهُ النفس، وطلب الحوائج إلى الناس».

فإياك والطمع، فإنه دليل قلة الإيمان، وعلامة سوء الظن بالله الواسع العطاء، ويشعر صاحبه الفقر ويذله لكل من يطمع فيما عنده، وهو في تعب دائم، ويورث احتقار وازدراء الآخرين.

٢٣- الطيش

الطيش مثل السَّفَه، وهو سرعة الغضب من يسير الأمور، وإظهار الجزع من أدنى ضرر، والسب الفاحش، والسرف في العقوبة، وقال الليث: الطيش خفة العقل.

وفي حديث الحساب: «**فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة**» (رواه الترمذي)، أي خفت.

وفي حديث عمر بن أبي سلمة: «**كانت يدي تطيش في الصحفة**» أي تخف وتتناول الطعام من كل جانب، وفي حديث ابن شبرمة: وسئل عن السُّكْر، فقال: «إن طاشت رجلاه، واختلط كلامه».

قال الجاحظ: «وهذا الخلق مستقبح من كل أحد، إلا أنه من الملوك والرؤساء أقبح، وعلى هذا، إن ترتب على الطيش محرم كان محرمًا، وإذا ترتب عليه مكروه كان مكروهًا، وهو على كل حال مستقبح، وفي كل وقت مسترذل، فكم من طائش قول أو فعل أهلك صاحبه، وحرمه النجاة، وألقى به في عداد الظلمة الفسقة» اهـ.

وفي الحديث عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**التأني من الله، والعجلة من الشيطان، وما أحد أكثر معاذير من الله، وما من شيء أحب إلى الله من الحمد**» (رواه أبو يعلى والبيهقي والمنذري، وحسنه الألباني).

وعن جرير بن عبد الله ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عزَّ وجلَّ ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخَرَق، وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق، وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا**» (رواه الطبراني)، وقال الهيثمي: الصحيح منه: «**من يحرم الرفق يحرم الخير**»

وعن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان - أي صغارها - سفهاء الأحلام - أي ضعفاء العقول -، يقولون من كلام خير البرية - أي من القرآن -، يمرقون من الإسلام، كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة**» (رواه البخاري).

بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا عماله، فأمرهم أن يوافوه، فلما أتوا قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أيها الناس أيتها الرعية، إن لنا عليكم حقًا، النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير، أيها الرعاة، إن للرعية عليكم حقًا، فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله، ولا أعز من حلم إمام ورفقه، وليس جهلٌ أبغض إلى الله ولا أغمَّ من جهل إمام وَخَرَقِهِ**».

والطيش قبيح من الشباب والصغار، وهو أشد قبحًا من الشيوخ والكبار، ولذلك قال أبو منصور: «الشباب مظنة الجهل ومطية الذنوب»، والروية والتأني، وإن ترائى للبعض أنها تفوت المصالح، إلا أنها أحمد من التهور والطيش، ولذلك قال أبو منصور: «التأني مع الخيبة خير من التهور مع النجاح»، وقال أيضًا: «الأناه حصن السلامة، والعجلة مفتاح الندامة»، وصدق؛ فكم من إنسان أُتُّهِمَ دون وجه حق، وكم من طلاق وقع وبيت تخرب، وزوجة ضاعت وأولاد تشردوا بسبب الطيش والتهور، وكم من جريمة ارتكبت، ونفس أزهقت، وتخوين حدث بسبب عدم الروية والتثبت، ولذلك قال البعض: «لأن أخطىء في العفو، خير من أن أخطئ في القصاص.

إن الطيش يتسبب في ضياع الثواب، وذهاب الحقوق، وعدم احترام الناس للطائش، وفيه طاعة للشيطان، وهو من علامات الساعة وأماراتها.

٢٤ـ الشماتة

الشماتة خلق ذميم، وهي عبارة عن الفرح ببليَّة من تعاديه ويعاديك، وقال القرطبي: الشماتة؛ السرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدين والدنيا، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٠)، أي لا تسرهم، وهي محرمة منهي عنها، وهي في قراءة مجاهد: «لا تَشْمت بي الأعداء» أي لا تفعل بي ما تشمت من أجله الأعداء، أي لا يكون ذلك منهم، لفعل تفعله أنت بي، وقيل: المعنى على قراءة الجماعة: لا تسرهم بما تفعل بي، فأكون ملومًا منهم، ومنك، قال الشاعر:

والموت دون شماتة الأعداء

وقرئ: «فلا تشمِت بي الأعداء»، وتشميت العاطس: الدعاء له أن لا يكون في حل يُشمَّت به فيها، وقيل: معناه أبعدك الله عن الشماتة، وجنبك ما يُشمت به عليك.

وقد ذكر سبحانه شماتة المنافقين والكافرين في أكثر من موضع، فقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ (سورة آل عمران: ١٢٠)، وقال: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ (سورة التوبة: ٥٠)، فلا يجوز للمسلم أن يتشبه بهؤلاء، بحيث يفرح بمصيبة أخيه، ويُسَرُّ بمكروهه.

وفي الحديث: «**لا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك**» (رواه الترمذي وحسنه).

وكان النبي ﷺ يتعوذ بالله من شماتة الأعداء كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**كان النبي ﷺ يتعوذ من جهد البلاد، ودَرَك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء**» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أين فلان؟**»، فغمزه رجل منهم، فقال: إنه وإنه، فقال النبي ﷺ: «**أليس قد شهد بدرًا؟**»، قالوا: بلى، قال: «**فلعل الله اطلع على أهل بدر**»، فقال: «**اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**» (رواه أحمد وأبو داود والحاكم، وصححه، وأقره الذهبي).

وعن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر وعليه حُلَّة، وعلى غلامه مثلها، فسألته عن ذلك، قال: فذكر أنه ساب رجلاً على عهد رسول الله ﷺ فعيَّره بأمه، قال: فأتى الرجل النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «**إنك امرؤ فيك جاهلية...**» الحديث (رواه البخاري ومسلم).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من عَيَّرَ أخاه بذنب، لم يمت حتى يعمله**» (رواه الترمذي وحسنه)، قال أحمد: من ذنب قد تاب منه.

وعن البراء رضي الله عنه: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا، لم يدخلو من قبل بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار، فدخل من قُبُل بابه، فكأنه عُيِّر بذلك، فنزلت: ﴿**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**﴾ (سورة البقرة: ١٨٩). (الحديث رواه البخاري).

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: جاء أبو موسى إلى الحسن بن علي يعوده، فقال له علي: أعائدًا جئت أم شامتًا؟ قال: لا بل عائدًا، قال: فقال له علي: إن كنت جئت عائدًا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا عاد الرجل أخاه المسلم مشي في خرافة** - أي في اجتناء ثمر الجنة - **الجنة حتى يجلس، فإن جلس غمرته الرحمة،**

فإن كان غدوةً، صلى عليه سبعون ألف ملك، حتى يمسي، وإن كان مساءً صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح» (رواه أحمد، وصحح أحمد شاكر إسناده).

ولما ماتت أباعرُ لأعرابيٍّ قال:

لا والذي أنا عبد في عبادته ... لولا شماتة أعداء ذوي إضنِ

ما سرني أن إبلي في مباركها ... وأن شيئًا قضاه الله لم يكن

وقال الشاعر:

إذا ما الدهر جَرَّ على أُناس ... كلا كله أناخ بآخَرينا

فَقُلْ للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

فالشماتة تورث العداوة والبغضاء، وتنبيء عن سوء خلق الشامتين، وهي دليل على انتزاع الرحمة من القلوب وسبيل إلى تمزيق المجتمع، كما تسخط الله عزَّ وجلَّ، وتجعل الشامت مبغوضًا من الله ومن الناس.

٢٥- السفاهة

السفه والسفاهة عبارة عن خفة وطيش تَعْرِضُ للإنسان من الفرح والغضب، فيحمله ذلك على العمل بخلاف العقل وموجب الشرع، وهذا نقيض الحِلم، إذا ينبغي على المسلم أن يواجه الأحداث بمتانة في الرأي، وقوة في السلوك، لا أن يظهر الجزع من أدنى ضرر، ويسرف في العقوبة، ويبادر بالبطش، والسفه يدل على نقصان العقل، ويكون في الأمور الدنيوية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ**﴾ (سورة النساء: ٥)، إذ خشي من السفيه إضاعة المال في أوجه التبذير، وعدم القدرة على العمل فيه بالتدبير.

وقد يكون السفه من الأمور الأخروية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ (سورة الجن: ٤)، وقوله سبحانه: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ (سورة البقرة: ١٣).

فالسفيه كما قال الكفوي: «ظاهر الجهل عديم العقل، خفيف اللُّبِّ، ضعيف الرأي، رديء الفهم، مُستخِف القدر، سريع الذنب، حقير النفس، مخدوع الشيطان، أسير الطغيان، دائم العصيان، ملازم الكفران، لا يبالي بما كان، ولا بما هو كائن، أو سوف يكون» اهـ.

والسفه أقبح من العبث، إذ أنه يستلزم المضرة، وقد لا يكون فيه غرض أصلاً، والسفه قد يأتي بمعنى الكفر أو النفاق، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٣)، وقد تأتي بمعنى الجهل، أو سوء التدبير، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٠)، وحكى سبحانه ما كان من عادٍ مع نبيهم هود ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٦٦-٦٧).

وقد وردت الأحاديث تذم السفاهة، ومن ذلك: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنها ستأتي على الناس سنون خداعة، يُصدَّقُ فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويُؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة**»، قالوا: وما الرويبضة؟ قال: «**السفيه يتكلم في أمر العامة**» (رواه ابن ماجه والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي).

وقال ﷺ: «**بادروا بالموت ستًا**»، وذكر منها: «**إمرة السفهاء**» الحديث (رواه أحمد وصححه الألباني).

وقال لكعب بن عجرة: «أعاذك الله من إمارة السفهاء» قال: وما إمارة السفهاء؟، قال: «أمراء يكونون بعدي، لا يقتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني، ولست منهم، ولا يردون على حوضي، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فأولئك مني، وأنا منهم، وسيردون على حوضي» الحديث (رواه أحمد وابن ماجه والنسائي والترمذي، وقال: حسن غريب).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: حدثني حِبِّي أبو القاسم الصادق المصدوق ﷺ فقال: «إن هلاك أمتي على يدي غِلمةٍ سفهاء من قريش» (رواه أحمد والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي).

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار» (رواه ابن ماجه وابن حبان، وصححه الألباني).

وعن علي ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يخرج في آخر الزمان أقوام أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية - القرآن - لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة» (رواه البخاري ومسلم).

وقال ابن عباس ﷺ: «إذا سَرَّكَ أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٠)» (رواه البخاري).

وقال عمر بن خبيب - يوصي بنيه -: «بَنِيَّ: إياكم ومجالسة السفهاء، فإن مجالستهم داء، ومن يَحلُم عن السفيه يُسَرُّ، ومن يُجِبْهُ يندمْ، ومن لا يرضَ بالقليل مما يأتي به السفيه يرضى بالكثير» (رواه الطبراني في الأوسط).

قال السدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ (سورة البقرة:١٤٢): «المراد بالسفهاء: الكفار، وأهل النفاق، واليهود، أما الكفار فقالوا لمَّا حولت القبلة: رجع محمد إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا، فإنه علم أنا على حق، وأما أهل النفاق فقالوا: إن كان أولاً على الحق، فالذي انتقل إليه باطل، وكذلك العكس، وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء، ولو كان نبيًا لما خالف، فلما كثرت أقاويل هؤلاء السفهاء، أنزل هذه الآية: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ (سورة البقرة:١٠٦-١٥٠).

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

يخاطبني السفيه بكل قبح ▫■▫ فأكره أن أكون له مُجيبًا
يزيد سفاهةً فأزيد حلمًا ▫■▫ كعُودٍ زاده الإحراقُ طيبًا

فإياك وهذا الصنف من الناس، واحذر أن تكون واحدًا منهم، فالسفه دليل سوء الخلق، ومظنة سوء الخاتمة، وهو يخرب الديار العامرة، ويستجلب غضب الجبار وعظيم النيران، وصاحبه يؤول إلى الإفلاس، وهجران الناس له لشره المتعدي، وخلقه المشين.

الفهرس

الفهرس

الموضـــوع | صفحة

- **مقدمة** ٥
  - مفهوم الأخلاق ٦
  - بين الأخلاق والآداب والقيم ٧
  - معنى حسن الخلق ٨
  - أخلاق مذمومة وسلوكيات مرذولة ٩
  - منهج الأخلاق الإسلامية ١٠
  - مناهج أخلاقية قاصرة وخاطئة ١٠
  - ذكر من تكلم في الأخلاق ومؤلفاتهم ١٢
  - علماء سلكوا المنهج الصحيح في الكلام على الأخلاق ١٣
- ***الغاية من الأخلاق*** ١٥
  - علاقة الأخلاق بالعبادة ١٦
  - علاقة الأخلاق بالإيمان ١٨
  - الأخلاق والنفس البشرية ٢٠
  - علاقة الأخلاق بالأسماء والصفات ٢٢
  - الأخلاق في حياة ودعوة الأنبياء عليهم السلام ٢٥
- ***الحيطة للتوحيد والتشريع سياج أمان للأخلاق*** ٢٧
  - أولاً ـ الحيطة لجناب التوحيد ٢٧
  - ثانيًا ـ الحيطة لجناب التشريع ٢٩
- ***تطوير وتجديد الخطاب الديني وعلاقة ذلك بالأخلاق*** ٣٢

الموضـــوع | صفحة

■ القول بالتطور الخُلُقي!! ٣٦
■ الوسط الأرسطي والوسطية الإسلامية ٣٩
■ الإيمان وأثره في التحلي بالأخـلاق الفاضلة ٥١
■ بعض سمات وملامح الأخـلاق عند المسلمين ٥٤
١ ـ الربانيـة ٥٤
ـ لا يقال: تطرف وهوس ديني لمن تابع الوحي ٥٦
٢ ـ بن بيئته أم أسير الوحي المنزل؟ ٥٨
٣ ـ لماذا لا نستطيع إدانة الآخرين؟ ٥٩
٤ ـ لا يجوز خلط الشريعة بغيرها ولا التقاء في منتصف الطريق ٦١
■ الأخـلاق بين الطبـع والتطبـع ٦٣
■ من الأفضل: رجل جُبِلَ على خلق حميد، ورجل يجاهد نفسه على التخلق به؟ ٦٤
■ الافتقار إلى الله عزَّ وجلَّ ٦٥
■ جوامع من أدعية النبي ﷺ وتعوذاته لا غنى للمرء عنها ٦٧
■ الأصـالة والمعـاصـرة ٧٤
■ ضوابط الأصالة والمعاصرة ٥٧
■ كمال الشريعة الإسلامية من ناحية الأخـلاق ٨١
■ مسـألة القصــاص ٨١
■ تحقيقها المصلحة في العاجل والآجل ٨٢
■ ضوابط المصلحة ٨٤
■ مجـالات حسـن الخـُلق ٨٦
أولاً ـ حسن الخلق في معاملة الخالق ٨٦
١ ـ تلقي أخباره بالتصديق ٨٦

الموضــوع | صفحة

٢ ـ تلقي أحكام الله بالتنفيذ والتطبيق ٨٨
٣ ـ تلقي أقدار الله تعالى بالرضا والصبر ٩١
ـ حسن الخلق مع الله نحو أقداره ٩١
ثانيًا ـ حسن الخـلُقِ في معاملة الخـَلْقِ ٩٢
١ ـ معنى: «كف الأذى» ٩٢
٢ ـ معنى: «بذل الندى» ٩٣
٣ ـ معنى: «طلاقة الوجه» ٩٥
ـ من علامات حسن الخُلُق مع الخَلْق ٩٦
■ **الإخــــلاص** ٩٨
■ معنى الإخلاص لغة وشرعًا ٩٨
■ أمر الله عزَّ وجلَّ عباده بالإخلاص وحثهم عليه ٩٩
■ السنة الشريفة تحض على الإخلاص ١٠٠
■ بعض الآثار الواردة في الإخلاص ١٠١
■ قبول العمل بنية وصحة وإخلاص ومتابعة ١٠٢
■ الإخلاص يعبر عنه البعض: بالضمير والنية والقلب الأبيض ١٠٣
■ شمول الإخلاص وفوائده ١٠٤
■ أسباب تعينك على الإخلاص ١٠٥
■ **العـــــدل** ١٠٦
■ العدل في اللغة والشرع ١٠٦
■ العدل من أسماء الله تعالى ١٠٧
■ بين العدل والمساواة ١٠٧
■ بعض الآيات الواردة في العدل والحث عليه ١٠٨

الموضوع | صفحة

▪ الأحاديث التي تأمر بالعدل وتحض عليه ١٠٨
▪ بعض الآثار الواردة في العدل ١١٠
▪ بعض فوائد العدل وآثاره ١١٣
▪ تحقيق العدل على مستوى الفرد والمجتمع ١١٣
▪ **الإنصاف** ١١٥
▪ معنى الإنصاف لغة واصطلاحًا ١١٥
▪ أنواع الإنصاف: ١١٥
أولاً ـ إنصاف المرء نفسَه من نفسِه ١١٥
ثانيًا ـ إنصاف الله عزَّ وجلَّ ١١٦
ثالثًا ـ إنصاف النبي ﷺ ١١٦
رابعًا ـ إنصاف العباد ١١٦
▪ آداب أهل الإنصاف ١١٨
▪ بعض النصوص الواردة في قيمة الإنصاف ١١٩
▪ بعض الآثار الواردة في الإنصاف ١٢٠
▪ فوائد الإنصاف والاتصاف به ١٢٢
▪ **أخلاق مذمومة وسلوكيات مرذولة** ١٢٣
١ ـ السحر ١٢٣
▪ تعريف السحر ١٢٣
▪ بعض الآيات والأحاديث الواردة في ذم السحر ١٢٤
▪ النُّشْرة من عمل الشيطان ١٢٥
٢ ـ الابتداع ١٢٧
▪ تعريف البدعة لغة واصطلاحًا ١٢٨

الموضـــوع صفحة

▪ بعض النصوص الواردة في ذم البدع ١٢٩
▪ بعض الآثار الواردة في ذم الابتداع ١٣٠
▪ كل بدعة ضلالة ١٣٣
▪ البدعة المذمومة شيء، والمصلحة المرسلة والاستحسان شيء آخر ١٣٤
▪ البدعة الحقيقية والبدعة الإضافية ١٣٤
▪ قاعدة أهل السنة والجماعة في رحمة أهل البدع والمعاصي ١٣٥
٣ ـ *شهادة الزور* ١٣٦
▪ تعريف الزور ١٣٦
▪ شهادة الزور من الكبائر ١٣٧
٤ ـ *الظلم* ١٣٩
▪ حد الظلم في اللغة والاصطلاح ١٣٩
▪ أنواع الظلم ١٤٠
▪ ذم الظلم في كتاب الله ١٤١
▪ الأحاديث تذم الظلم ١٤١
▪ بعض الأثار في النهي عن الظلم ١٤٢
▪ أسباب الظلم ١٤٤
▪ أسباب تعين على ترك الظلم وتعالجه ١٤٥
▪ بعض آثار الظلم ومضاره ١٤٦
٥ ـ *الغـرور* ١٤٨
▪ معني الغرور لغة واصطلاحًا ١٤٨
▪ ذم الغرور في كتاب الله ١٤٩
▪ الأحاديث الشريفة تنهى عن الغرور ١٤٩

الموضـــوع صفحة

▪ بعض أقوال العلماء في ذم الغرور ١٥٠
▪ بعض أسباب الغرور ١٥٢
▪ بعض مظاهر الغرور ١٥٣
▪ آثار الغرور ومضاره ١٥٤
▪ الفرق بين الثقة بالله والغرور والعجز ١٥٥
▪ عـلاج الغـرور ١٥٥
٦ ـ **الغضب** ١٥٦
▪ معنى الغضب في اللغة والشرع ١٥٦
▪ تفاوت الناس في الغضب على درجات ١٥٦
▪ أسباب الغضب ١٥٧
▪ غضب الله، والحذر من تأويل آيات الصفات ١٥٧
▪ غضب الأنبياء لله من الغضب المحمود أيضًا ١٥٨
▪ بعض الأحاديث الواردة في ذم الغضب ١٦٠
▪ بعض الآثار الواردة في ذم الغضب ١٦١
▪ بعض مضار الغضب ١٦٢
▪ علاج الغضب ١٦٢
٧ ـ **انتهاك الحرمات** ١٦٣
▪ بعض الأحاديث الواردة في ذم انتهاك الحرمات ١٦٤
٨ ـ **طـول الأمـل** ١٦٧
▪ معنى طول الأمـل ١٦٧
▪ بعض الآيات الدالة على ذم طول الأمل ١٦٧
▪ طول الأمل مذموم في سنة رسول الله ﷺ ١٦٨

الموضــوع | صفحة

▪ الآثار تنهى عن طول الأمل ١٦٩
▪ مضار طول الأمل ١٧٠
▪ علاج طول الأمل ١٧١
٩ - اتبــاع الهـوى ١٧٢
▪ معنى الهوى في اللغة والشرع ١٧٢
▪ حكم اتباع الهوى ١٧٣
▪ الهوى يُعمي ويصم ١٧٤
▪ أهل الأهواء والبدع ١٧٥
▪ بعض الآيات الواردة في ذم اتباع الهوى ١٧٦
▪ بعض الأحاديث الواردة في ذم اتباع الهوى ١٧٧
▪ بعض الآثار في ذم اتباع الهوى ١٧٨
▪ عواقب اتباع الهوى ١٧٩
▪ كيف يتخلص العبد من اتباع الهوى ١٧٩
١٠ - سـوء الخـلق ١٨١
▪ كلام لابن القيم في سوء الخلق ١٨١
▪ بعض النصوص في ذم سوء الخلق ١٨٢
▪ بعض الآثار في ذم سوء الخلق ١٨٢
▪ بعض الأحاديث والآثار في ذم العنف ١٨٤
١١ - سـوء الظـن ١٨٨
١٢ - الخيـانـة ١٩٢
١٣ - التجسس ١٩٦
١٤ - الحمــق ١٩٩

الموضـوع	صفحة
١٥ ـ المـــنُّ	٢٠٣
▪ معنى المن في اللغة والاصطلاح	٢٠٣
▪ صور المن وأحكامه	٢٠٣
▪ معنى: «لا يدخل الجنة منَّان»	٢٠٧
▪ مضار المن وعلاجه	٢٠٩
١٦ ـ الأثـــرة	١٢٠
▪ معنى الأثرة في اللغة والشرع	٢١٠
▪ بعض مضار الأثرة	٢١٤
▪ تنشد خلافة على منهاج النبوة فاترك الأثرة	٢١٤
▪ الأثرة وتأخير الأكفاء من علامات الساعة	٢١٥
١٧ ـ الضـعـف	٢١٧
١٨ ـ البـــذاءة	٢٢٠
١٩ ـ العـــدوان	٢٢٤
٢٠ ـ إفشاء السر	٢٢٧
٢١ ـ السـخريـة	٢٣١
٢٢ ـ الطـمـع	٢٣٤
٢٣ ـ الطـيـش	٢٣٧
٢٤ ـ الشـماتـة	٢٣٩
٢٥ ـ السـفاهـة	٢٤١